«رواية»

حكاية الدّهان

«حولية الاحتضار»

جيزوالدو بوفالينو

ترجمة: د. ناصر إسماعيل

نبذة عن المؤلف:

جيزوالدو بوفالينو (1920-1996) روائي وشاعر إيطالي. كشف عن موهبته الأدبية متأخراً عام 1981. منذ أن نشر روايته «حكاية الدّهان». التي حققت أفضل المبيعات في إيطاليا ونالت عدة جوائز. توالت أعماله الأدبية: «متحف الظلال» (1982). «أرغو الأعمى أو أحلام الذاكرة» (1984). «أراجيف الليل» (1988). «تومازو والمصور الفوتوغرافي الأعمى» (1996). و«العسل المر» (ديوان شعري) (1982).

نبذة عن المترجم:

باحث في جامعة جنوة الإيطالية. من أعماله المترجمة إلى العربية: «الفكر الجمهوري» لماوريتسيو فيرولي و«كنّا نخطو على الأرض بخفة» لسيرجيو اتسيني.

رواية

جيزوالدو بوفالينو

حكاية الدّهان
(حولية الاحتضار)

ترجمة: د. ناصر إسماعيل

مراجعة: د. عزالدين عناية

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

PQ4862.U344 D5 2012
Bufalino, Gesualdo
[Diceria dell'untore]
حكاية الدهان: رواية / تأليف جيزوالدو بوفالينو؛ ترجمة ناصر إسماعيل؛ مراجعة عز الدين عناية.-أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والتراث، 2012.
ص 223 ؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب: Diceria dell'untore
تدمك: 978-9948-17-112-6
أ-ناصر إسماعيل. ب-عناية، عز الدين. Plague sower.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي:

Gesualdo Bufalino
Diceria dell'untore



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



حكاية الدّهان

تصدير

وُلد الروائي والشاعر الإيطالي «جيزوالدو بوفالينو» عام 1920 في جزيرة صقلية الإيطالية. ورغم نشأته المتواضعة، تمكن والده الذي كان يمتهن الحدادة من غرس حب الأدب والثقافة فيه. في عام 1940 التحق بكلية الآداب، لكنه أُضطرّ بعد عامين فقط إلى الانقطاع عن الدراسة لاستدعائه لأداء الخدمة العسكرية في صفوف الجيش الإيطالي أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد وقع أسيراً في أيدي القوات الألمانية في عام 1943، غير أنه استطاع الفرار والاختباء لعدة أشهر في غابات شمال إيطاليا. في خريف عام 1944 أُصيب «بوفالينو» بمرض الدرن مما تطلب علاجه في مصحة بشمال إيطاليا، انتقل بعدها إلى مصحة «كونكا دورو» في مدينة باليرمو بجزيرة صقلية والتي صارت مسرحاً لأحداث أول أعماله الروائية وأهمها على الإطلاق: «حكاية الدّهان» (حولية الاحتضار). بعد شفائه استأنف الدراسة الجامعية، ليتخرّج عام 1947، ويلتحق بالعمل في إحدى المدارس الثانوية كمعلم للغة الإيطالية.

شرع «جيزوالدو بوفالينو» في كتابة روايته «حكاية الدّهان» (حولية الاحتضار) في عام 1950، ولم ينته منها إلا في السبعينيات، وواصل تنقيحها وإدخال بعض التعديلات عليها لتنشر أخيراً في عام 1981. الأمر الغريب أن «بوفالينو» ظل لفترة طويلة لا يعدّ نفسه كاتباً تستحق أعماله النشر، إلى أن لفتت بعض تعليقاته التي دونها في كتيب خاص بمجموعة من الصور الفوتوغرافية القديمة لمدينة «كوميزو»، عُرضت في أحد المعارض الفنية، انتباه مديرة إحدى دور النشر كما

أثارت إعجاب الروائي الإيطالي الكبير «ليوناردو شاشا» فألحّا عليه هذان الأمران ليكشف عن كتاباته. بيد أنه ظل متشككاً ومتردداً لفترة طويلة، حتى قرر في عام 1981 نشر عمله الأول، وقد تجاوز عمره الستين عاماً آنذاك. حازت رواية «حكاية الدّهان» على إعجاب النقاد على الفور، وباتت حديث الوسط الأدبي في إيطاليا، واحتلت قائمة أكثر الروايات مبيعاً لفترة ليست بالقليلة، وتُرجمت إلى العديد من اللغات مما أهلها للفوز بجائزة «كامبيلّو» الرفيعة سنة صدورها، وصار يُنظر لـ«بوفالينو» بعدها كأحد أهم الكتاب الإيطاليين خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن المنصرم. عقب روايته الأولى توالت بغزارة تدعو إلى الدهشة أعمال «جيزوالدو بوفالينو» الروائية والشعرية، نذكر منها «العسل المر» (ديوان شعري) (1982)، وروايات «متحف الظلال» (1982) «أرغو الأعمى أو أحلام الذاكرة» (1984)، «أراجيف الليل» (1988) التي حصدت جائزة «ستريغا»، «ملاحات صقلية» (1988)، و «تومازو والمصور الفوتوغرافي الأعمى» (1996). وقد توفي «جيزوالدو بوفالينو» في حادث سيارة مفجع في عام 1996.

تشير كلمة «الدّهان» في عنوان الرواية إلى اعتقاد خرافي شاع في إيطاليا خلال القرن السابع عشر أثناء اجتياح وباء الطاعون وحصده لآلاف الأرواح بأن ثمة أرواحاً شريرة تتلبس بعض الأشخاص فيقومون بنشر الوباء عبر دهنهم لأبواب المنازل وللجدران ولأي شيء يقع في طريقهم بمادة صفراء دنسة. وكان تعيسو الحظ الذين يقعون ضحية لذلك الاتهام المشؤوم يتعرضون للملاحقة والقتل مثلهم مثل السحرة

والمشعوذين. وكما أشرنا سلفاً، فقد استلهم الكاتب رواية «حكاية الدّهان» من فترة احتجازه في مصحة «كونكا دورو» لعلاجه من داء الدرن القاتل في تلك الفترة، لذا تعدّ بعض أجزائها بمثابة سيرة ذاتيه له. وتدور الأحداث في عام 1946، وهي تتناول قصة شاب نجا من ويلات الحرب العالمية الثانية ليجد نفسه يصارع حرباً وموتاً آخرَين. تتشابك علاقات الشاب في المصحة مع المرضى الآخرين المحتضرين، ولا سيما مع طبيبه الغزير الثقافة والمتقلب الأطوار، ويرتبط بقصة غرامية مع إحدى المريضات ذات أصول يهودية وماض غامض. ويأخذ الكاتب بأيدينا لنعايش كيفية مواجهة مجموعة من المرضى، لكل منهم طبيعته المتفردة، موتهم المحتوم. وعلى عكس الآخرين ينجو البطل من الداء المميت ليعود إلى الحياة مجدداً مشبعاً بتجربة الموت وبرائحته وبتأملاته لا يدري إن كانت نجاته تلك هي نعمة أو نقمة، أهي عودة إلى الوطن أو رحلة إلى المنفى. غير أنه مع مرور الزمن يدرك أن القدر قد اختاره شاهداً وشهيداً على تلك الأحداث لكي يثبت أن بالإمكان أحياناً هزيمة الموت.

يتولى الشاب المريض بطل الرواية مهمة سرد أحداث تلك التجربة المريرة لرفقائه الآخرين ولحبيبته المحكوم عليهم جميعاً بالموت. ومع الجمل الأولى في الرواية يستغرق الكاتب بحساسية شديدة وبكلمات أقرب إلى مشرط الجراح في سبر أغوار أعماق الشخصيات، ولا سيما شخصية السارد، فيرصد تحولاته النفسية الدقيقة لحظة بلحظة يجعلها تقترب أحياناً من الرواية السيكولوجية. فشخصية البطل تتطور وتنمو

مع أحداث الرواية ومع تفاعله مع الشخصيات الأخرى. فالتجربة المريرة للمرض القاتل تترك في الشاب أثراً شديداً، وتقلب حياته رأساً على عقب. وبمجرد أن يبزغ بصيص أمل في الشفاء والخلاص داخل الفتى الثرثار الماكر المتشكك في كل شيء، الذي أدى به يأسه وموته المحتوم إلى الاندفاع نحو التمتع بملذات الحياة قدر ما يستطيع، حتى تتبدل طبيعته الجامحة الجانحة فتنزع نحو التأمل الفلسفي العميق في هبة النجاة من الموت التي تبدو له في الوقت نفسه وعلى غير المتوقع خيانة لرفقائه الذين لم يحظوا بمصير مماثل. بات الشاب أكثر وعياً لقيمة الموت والحياة ومدلولهما، وأدرك أنهما وجهان لعملة واحدة، وانه لا حياة بلا موت، ولا موت بلا حياة. ومن هذه الفكرة ينشغل السارد بتلك القضية الفلسفية الوجودية، مشككاً في كون الحياة مرادفاً للوجود والموت للعدم.

تتناول الرواية إذن ثنائيات الحياة والموت، المرض والشفاء، الفناء والبقاء التي طالما شغلت بال الروائيين والمفكرين وتعرض لها الأدب الأوروبي الحديث مراراً. فالموضوع المحوري هو الصراع الأبدي بين الحياة والموت. وبرغم انتصار الموت في الغالب الأعم لكن الحياة لا تعدم الحيلة لتظل حاضرة إلى النهاية. ويختصر «بوفالينو» فكرته هذه في جملة غاية في العمق والرقة: «إن الموت حطّاب ولكن الغابة خالدة». وفي لقاء صحفي مع الروائي «ليوناردو شاشا» كشف «بوفالينو» عن أن الهدف من كتابته لهذه الرواية كان استحضار تجربته الشخصية الخاصة مع الحياة والموت، وبلورة بعض الأحداث والشخصيات حول

حفنة من الكلمات كان يشعر بها تختمر بداخله منذ فترة مرضه. وتلقي الرواية برقة وبقسوة الضوء على تجربة المرض، التي ترمز إلى حالة وجودية وإلى عدو خيالي يداهم الإنسان من حيث لا يحتسب أو ينتظر. وينظر الكاتب إلى المرض على أنه تجربة روحية صميمة على قدر كبير من الخصوصية تمنح صاحبها وعياً ونضجاً روحياً يفوق وعي الأصحاء، وتكسبه القدرة على استقراء واستشفاف ماهية الوجود والعدم. تواجه شخصيات الرواية مصيرها هذا بمشاعر يمتزج فيها العداء بالرقة، والاستسلام بالتحدي، والسخرية بالكآبة في حبكة درامية متقنة. وتطغى على الرواية أحلام شباب جيل الحرب العالمية الثانية الناجين من ويلاتها ودمارها وهمومهم وخيبة أملهم في ما صارت إليه حياتهم بعد تلك التجربة الكارثية التي يبدو أن العالم لم يتعلم منها شيئاً. ورغم ما تنطوي عليه الرواية من شجن وحزن، فإن الرغبة الشديدة في التشبث بالحياة والدفاع عنها بأي ثمن، تظلّ تتوهّج فيها وتتسلّل بين السطور روح ساخرة متهكمة تجعل القارئ معلقاً دوماً بين الشعور بالحزن والشفقة على مصير المرضى، والدهشة والسرور لطريقتهم في تقبل تلك النهاية وانتظارها.

إلى جانب «تيمة» المرض والموت والشفاء غير المنتظر والنجاة من الموت التي تهيمن على الرواية، نلمح بين سطورها أفكاراً أخرى ومدلولات قصد الكاتب أن يستشعرها القارئ، مثل «تيمة» الاختفاء والوحدة والانعزال التي سعى إليها المرضى بعيداً عن صخب الحياة في مصحة تبدو كالقلعة أو كبارجة قديمة متداعية في جزيرة نائية ليواجهوا

مباراة ملاكمة أو دور شطرنج أخير نتيجته معروفة مسبّقاً. يضعنا الكاتب أمام بعض الإشكاليات الفلسفية ولا سيما تلك التي تتعلق بالبحث عن اليقين والحقيقة. فبرغم الإلحاد الديني للبطل، غير أنه في الوقت ذاته لا يقدر على إنكار وجود قوة أعلى تتحكم في الكون، وتنظم أموره، وتدرك أسراره ومصائره، ولذا فثمة دعوة ضمنية للبحث عن هذا الموجود الظاهر الباطن. كما يحتوي النص على دلالات إنسانية وفلسفية عميقة تجاوز تلك الشائعة والجاهزة.

ورغم أن بؤرة الأحداث هي جزيرة صقلية، فإن الشخصيات تبدو وكأنها تتفاعل في إطار خارج المكان والزمان وتهيمن عليها ثنائية الفناء والذاكرة، فيغدو سرد ذكريات الماضي الوسيلة الوحيدة للفرار من الموت والبقاء حيّاً لدى الآخرين. وحتى الأماكن الواقعية المعروفة التي تشير إليها الرواية فإنها تبدو لنا في أحيان كثيرة أماكن خيالية تملأها الأساطير. أما الشخصيات فهي لغرباء عن الجزيرة انتهى بهم المطاف جميعاً فيها كزائرين عابرين متأهبين للموت. وقد أظهر الكاتب براعة فائقة وخيالاً خصباً في وصف المشاهد الطبيعية الرائعة لجزيرة صقلية، التي تتميز بإرث ثقافي وحضاري عريق لما شهدته من امتزاج حضاري ولا سيما بين الحضارة الأوروبية المسيحية والثقافة الإسلامية.

رغم أهمية الشخصيات في الرواية والحوارات التي تدور بين السارد وبينها، فإن بإمكاننا اعتبار «حكاية الدّهان» رواية مونولوجية حيث تسيطر عليها ذاتية السارد، ولغته ورؤيته. فالأنا الساردة للبطل ترصد الوقائع وتكشف عن وجوده عبر تداخله في الأحداث وفي

أحكامه التي يطلقها على الشخصيات. ولا يعني هذا أن الشخصيات الأخرى تحتل مكانة هامشية بل إن كل شخصية منها تبدو، في بعض الأحيان، محور العمل، فلكل منها طبيعتها العميقة والمميزة، وتشع منها حكمة وفلسفة شعبية، ولكل منها طريقتها في مواجهة الحياة والمرض والموت. وقد أفلح الكاتب بحساسية شديدة في أن يعرض لنا معاناة المرضى والمهمشين. فمرضى المصحة هم رمز لكل مرضى العالم الذين هم بحاجة إلى كاتب يعبر عنهم.

وقد تباينت آراء النقاد حول التيار الذي يمكن أن يُنسب إليه هذا العمل لما يحفل به من عناصر وخصائص متباينة تجعل منه نصاً عابراً للعصور وللمدارس الأدبية. فالبعض يرى أن الرواية تميل إلى تيار الواقعية الجديدة لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية أو تلك التي أعقبت اضطرابات عام 1968 لواقعية أحداثها وأماكنها وشخصياتها، علاوة على ارتباطها بالسيرة الذاتية لكاتبها. بينما يصنفها آخرون كرواية خيالية نثرية لأسلوبها الفني الشديد الإتقان وللصنعة الجميلة والراقية للغتها وللصور المجازية التي لا تكاد تخلو صفحة منها. وثمة نقاد آخرون يذهبون إلى أن الرواية تنتمي إلى المدرسة الرمزية لأنها تتناول موضوعاً فلسفياً وجودياً ذا أهمية بالغة بالنسبة إلى أدباء تلك المدرسة ذات الأصول الفرنسية ألا وهو ثنائية الحياة والموت. غير أن الشيء المؤكد هو نجاح الكاتب بشكل واضح في دمج كل تلك العناصر في عمل روائي واحد يمتزج فيه الرمز بالواقع والحقيقة بالخيال والماضي بالحاضر في صياغة سردية وروائية محكمة ومتدفقة.

وقد أفصح الكاتب عن أن فكرة الرواية قد خطرت له عقب قراءته لقصيدة مترجمة للشاعر العربي الصقلي المولد بن ظَفَر الصقلي (1104—1170م)، وقد تأثر أيضا تأثراً شديداً بالمسرحية الشهيرة للكاتب الإيرلندي «صمويل باركلي بيكيت» «في انتظار غودو» التي تعبر عن هموم وهواجس إنسان ما بعد الحرب العالمية الثانية، بل إنه جعل «مارتا»، حبيبة البطل، في إحدى حواراتها تردد بعض الجمل التي تلمح إلى مسرحية بيكيت. وقد تأثر أيضاً بالفيلم الرومانسي الأمريكي —*One Way Passage*— لعام 1932 وقد أشار «بوفالينو» إلى هذا مباشرة في الرواية حينما شبه حال بطله بحال بطل الفيلم الذي يبحر على متن باخرة عابرة للمحيطات وينتظره في نهاية رحلته الموت على الكرسي الكهربائي، ولكنه مع ذلك يقع في غرام امرأة مصابة بمرض عضال.

وقد تميز الكاتب، إضافة إلى الواقعية التي تمكنه من رصد طبائع شخصياته وسبر أغوارها، برؤية فلسفية عميقة، وبدراية واسعة بالطبيعة الإنسانية ودوافعها ورغباتها وهواجسها، وبقدرة شديدة على التحليل النفسي الدقيق لها. ويُعدُّ «جيزوالدو بوفالينو» أحد أكثر الكتاب الإيطاليين في عقدي الثمانينيات والتسعينيات تمكناً من أدواته اللغوية، وأبرعهم مقدرة على التعبير والنسج بالحروف وبالكلمات مشاهد وصوراً بلاغية طازجة ومبهرة. وتقترب لغة الرواية من اللغة الشاعرية والنثرية مع استخدام مكثف للدلالات والرموز.

تزخر الرواية بمؤشرات تناصية عديدة مباشرة وضمنية ذات مرجعيات تاريخية (من التاريخ الإغريقي والروماني والفارسي القديم

والإسلامي)، ودينية (من الميثولوجيا الإغريقية والمصرية القديمة، والديانات اليهودية، والمسيحية والإسلامية)، وفلسفية، ونفسية، وموسيقية (تتكرر في الرواية إشارات وتضمينات متعددة من أعمال تراثية كلاسيكية ومن أعمال مسرحية، وأوبرالية وموسيقية وسينمائية)، وحتى رياضية تجعل النص أكثر امتداداً في الزمن، وأشد ثراء بدلالات ومعان تبحر في الزمان والمكان، وتدلل أيضاً على الثقافة الموسوعية اللامحدودة لـ«بوفالينو»، وعلى رغبته الملحة في ربط كل الأحداث الإنسانية في الرواية بحياته ومعارفه الشخصية، والتأكيد على وحدة التجربة الإنسانية منذ الأزل. ويحفل النص بالمقتبسات ولغة الباروديا، أي لغة المحاكاة الساخرة، لنصوص أخرى قديمة تنطوي على معان ترتبط بواقع شخصيات الرواية رغم البعد الزمني والمكاني. وتبدو رغبة الكاتب في إيصال تلك الدلالات إلى القارئ واضحة من خلال إصراره على تطعيم النص بالعديد من الهوامش والإحالات المرجعية التي يشرح فيها بعضاً من تلك الاقتباسات والتضمينات. وقد حرصنا أيضاً من جانبنا على توضيح تلك الهوامش، وإضافة مجموعة أخرى ضرورية تيسر على القارئ العربي بعضاً آخر من تلك الاقتباسات والاستعارات التناصية التي قد تكون معروفة للقارئ الإيطالي والأوروبي فقط، ولا سيما تلك التي تتعلق بالميثولوجيا الإغريقية والرومانية أو ببعض الأعمال الفنية الموسيقية والمسرحية الأوروبية.

تُعدُّ رواية «حكاية الدّهان» بلا شك إحدى أهم الروايات في الأدب الإيطالي المعاصر التي أفلحت في الخروج عن إطارها الزمني والمكاني

لتصبح عملاً أدبياً إنسانياً عالمياً يحمل رسالة لكل زمان وجيل. وتدل كلمات كاتبها نفسه في أحد التصريحات الصحفية على فلسفته التي دفعته إلى كتابة عمله هذا، وجعلت منه عملاً أدبياً أصيلاً ومتفرداً: «إن الكتابة هي هوايتي لقضاء الوقت، دمية تلهيني عن هاجس الموت، وتجعلني أقتنع بأنني سأظل باقياً، إنها كالسيجارة الأخيرة لمن حُكم عليه بالإعدام، والحليف الوحيد في مواجهة الفناء».

إن الكتابة إذن بالنسبة إلى «جيزوالدو بوفالينو» هي مرادف للحياة.

المترجم

إهدائي إلى من يعلم بالأمر

الحكاية هي حديث شفهي غير قصير، ويمكن أن يكون مدوناً ومطبوعاً..

وهي أيّ حديث طال ذكره، سواء بكثير من التصنّع أو بقليل من التفنّن..

إنها أيضاً حديث طويل للغاية يمكن أن يتعلق بشيء أو بإنسان..

توماّزيو – بيلّيني

إن الدهّان هو من يصنع وينشر المادة الدهنية المسببة للطاعون والمتفشية في كافة أرجاء هذه المدينة بنيّة القضاء على أهلها... (من محضر جلسات المحاكمة، لعام 1630م)

-1-

لشحّ أو لفتور مني، كنت أعاود كلَ ليلة رؤية الحلم نفسه: طريق مستوٍ رمادي يمتد كنهر ضفتاه أعلى من هامة رجل، لينحدر بعدها فجأة في هوة سحيقة، لا أثر فيها لصوت أو لضوء. هنا حيث أشْخصُ من أعلى نتوء حجري على شفا هذا الجرف الهاوي، يتملكني شعور بالهلع الممزوج بالنشوة لأنه لم يتبق سوى القليل... ولكن، على ماذا؟

لم أكن أمَلُّ من تكرار هذا السؤال، ولم تك لهفتي تلك كافية لإيقاظي من نومي، بل كنت كمن يحيا في عالمين منفصلين: أرقد متصلّباً منكفئاً داخل رحم فراشي، ولكني طليقٌ مرنٌ في الوقت ذاته. رُحت أهوي من كهف إلى كهف، لا أستند إلا على جذور متشابكة، وشقوف حجرية، حتى بلغت قاع البئر. بين أنقاض ذلك الكهف السفلي، كانت ثمة أشجار قد نمت على غير نظام (في الحلم كنت أستطيع تذكر أسماء تلك الأشجار فقط، بيْد أني تعلّمت لاحقاً فقط أن أقرن أسماءها بأشكالها).

أسفل الجرف، وعند الدرب الذي كان يمتد قبالته في خطّ مستقيم مضيء، كأنه يبث الطمأنينة في قلبي بعد ذلك الخطر الذي كان يحدق بي، ويحميني من هلع مفاجئ غلّف الهواء، ترددت لوهلة منتظراً أن تعود السكينة إليّ عقب تلك المغامرة، وأن تألف عيناي مراوغات ظلال الغابة، وحركاتها الطفولية.

توقف زفير الريح التي كانت يدها تمنعني حيناً وتدفعني حيناً آخر كرفيق ودود أثناء رحلة الهبوط. كان الصمت يغشى المكان، وكانت خطواتي أشبه بخطى ظلٍّ ما. لم يبق سوى القليل لبلوغ المكان المعتاد،

حيث يجلس، وكأنهم في مطهر دانتي[1]، رجال يرتدون سترات مطر بيضاء، يسند كل منهم كتفيه على كتفي الآخر، ويتبادلون في ما بينهم شظايا كلمات، مزيجاً من الأصوات المتلعثمة تلوكها منذ الأزل أفواه خربة واهنة. دنَوتُ منهم يصحبني اضطراب لم يخفف اعتيادي على الأمر من حدّته. رفعوا رؤوسهم، والحزن يكسو جباههم. كانوا يشيرون جميعاً إليّ بالرفض، ويصرخون فيّ بعيون مظلمة: اغرب عنّا!

لم أستطع أن ألبي أمرهم، ورحت أنتظر، على بعد أمتار، جالساً القرفصاء، شابكا أصابعي خلف ظهري، أن يتحرك أحدهم، أكثرهم نحافة وأطعنهم سنا. كان يبدو بين طرفي ياقته وكأنه كومة من التجاعيد الثعبانية الكثيفة. وبينما كان ينحني ليلتقط حجراً عند حافة حفرة غير مرئية، حتى تلك اللحظة، وكما لو كانت صندوق مُلقِّن مسرحي، أو شقّاً بركانيّاً، كشف لوهلة عن مؤخرة رأسها بينما يتلعها جوف الأرض، إنها «أوريديتشي»[2]، أو «سيستا أردويني»[3]، أو ما اسمها بحق الجحيم!

(1) المطهر هو أحد أجزاء العالم الآخر الذي صوره الشاعر الإيطالي «دانتي أليغييري» في عمله المشهور «الكوميديا الإلهية». ويعد المطهر مرحلة وسطى بين الجحيم والفردوس، يقبع به المذنبون ليتطهروا من آثامهم قبل نيل الخلود في الفردوس. (المترجم)

(2) «أوريديتشي» هي إحدى حوريات الأساطير الإغريقية. ووفقاً للأسطورة، ماتت «أوريديتشي» بعد أن نهشها أحد الثعابين مما جعل زوجها «أورفيوس» يهبط إلى عالم الموتى ليعيدها إلى الحياة. قَبِل «هاديس» ملك العالم السفلي بإعادة «أوريديتشي» إلى الحياة بشرط أن يسير «أورفيوس» أمامها، ولا يلتفت إليها إلى أن يخرجا إلى عالم الأحياء. لكن «أورفيوس» ارتاب حين لم يسمع دبيب خطوات زوجه، فالتفت وراءه، فرآها تغرق في أرض الموتى إلى الأبد هذه المرة. (المترجم)

(3) ستعود هذه الشخصية بوضوح مرة أخرى في الرواية. وهي فتاة ماتت محترقة عقب غارة ألمانية في الحرب العالمية الثانية، ثم دُفِنت في مقبرة من الجير، تاركة وراءها بضعة خطابات وظلالاً في حُلم. (الكاتب)

كنت أصرخ: توقفي! أمي! فتاتي! طائري! بينما كنت أشعر بأنامل النعاس البدينة الثقيلة التي كانت توصد جفني بعنف، وقد أخذت تنتفخ وتتلاشى في فقاعة هواء، في قطرات لزجة من الضوء. في تلك اللحظة فقط، حينما فتحت عيني، أدركت أنني عاودت ثانية مزاولة لعبة الموت، وأنني نسيت، أو أخطأت، عمداً، كلمة السر المطلوبة.

في صيف عام 1946، وفي الغرفة رقم 7 مكرر، كنت قد وصلت قادماً من مكان قصيّ وقد أهلك البرد والجوع رئتي، بعد أن رحت أتنقل من محطة إلى أخرى، قابضاً بأصابعي على اليد الحديدية لصندوق عسكري، نعشٍ صغيرٍ من خشب التنوب للعشرين سنة الأخيرة من حياتي ذات الأقدام المتآكلة. هنا في مشفى «روكّا» كان الأمر قد صار حقاً لعبة: إما الموت أو الخلاص. لم تك بصحبتي حقائب أخرى، ولم يكن بالصندوق شيء ذو أهمية: مجرد حفنة من الذكريات الجافة، ومسدّس فارغ بين كتابين، وخطابات امرأة كان الجير قد أتى عليها منذ زمن أسفل شجيرات زهور سمعت أن اسمها «الحوضية» في بقعة بين «بيسمانتوفا» و«كوسنا».

كنت قد وُعدت بأني سأحظى بعدد أقل من أكاليل الزهور الفاترة حالما تنتهي رحلتي فوق يابسة هذا العالم، وكمحارب قديم، سئمت من الدفاع عمّا تبقّى بداخلي من المشاعر التي تمدني بالحياة. لم يكن باقياً إلا القليل، فقد اختفت مشاعر التشكّك والخجل للأيام الخوالي، حينما كانت كلّ شعرة مني لا تزال على قناعة بأنها خالدة، وتأبى ألا تنسى هذا. غير أن مشاعر الضغينة كانت لا تزال كامنة فيّ، ولو في صورة

شفقة ثرثارة على حالي. كان الأمر وكأنّ ملكاً مغترباً أتى ليقطن بين أضلعي، وحش «مينوتوروس»[1] مجهول الاسم ينبغي علي أن أدفع له يوماً بعد يوم جزية من حياتي. كان قلبي (الذي يتمتع كالعين بقدرة ثمينة على مآلفة الأشياء) يردد على مسمعي دون جدوى بأنني من اخترت هذا الداء لنفسي كي أمسح، بكبرياء، بدمي ذلك الدم الذي كان يلطخ الأشياء، وأنني من أردت التضحية بنفسي فداء للجميع حتى أصلح اضطراب العالم وغُبنه.

لم تكن ثمة حاجة إلى هذه الكلمات، بل لا حاجة إليها مطلقاً، عدا مواساة النفس، وإضفاء مسحة من الكبرياء على ذاك المصير، وذاك الموت المحتوم. ورغم أني كنت أفخر طواعية بإقراري بالذنب على طريقة المسيح، عبر أشعار كتبتها في دفتر من ورق لحاء الشجر، غير أني لم أكف داخل إحدى ثنايا عقلي، عن احتساب نفسي أسيراً مؤقتاً في قبضة محكمة السنهدرين[2]، وكنت أترقب في الخفاء وسائل الخلاص التي كانت لا تزال بحوزتي متظاهراً برفع يدي أمام القضاة. وكان جنود يتصبّبون عرقاً سيأتون عما قريب ليؤدوا واجبهم من كيل الطعنات لي بحرابهم أسفل الصليب.

لكن، كان أمراً رائعاً حقاً أن أدع نفسي ليقين الفجر، ولنداء عودة الحياة، الذي كانت تتبارى في الصدح به كل صباح في «كونكا دورو»

(1) وحش «المينوتوروس» هو كائن أسطوري نصفه آدمي ونصفه الآخر ثور وينتمي إلى الأساطير الإغريقية. (المترجم)

(2) محكمة السنهدرين هي المحكمة اليهودية العليا التي قاضت عيسى (عليه السلام). (المترجم)

أبواق مئة ألف ديك[1]. من جانب آخر، فإن كل تأجيل كان سيؤدي إلى أن تغدو علاقتي الحميمية بالنهاية المحتومة أكثر تعنتاً ورقّة، حتى صار الأمر أقرب، ولو قليلاً، إلى مبارزة بين عشيقين: إغواء، فتمنُّع، فنظرات ماكرة من فتاة تتظاهر بالاستكانة، قبل أن تهوي عليك في الظلام الضربة القاضية.

وهكذا لم يكن نهار أو ليل يمر في «روكا» إلا وكان الموت ينفث بجواري وجوده المتنوع والمحيط بي من كل جانب، إلا وكنت ألمح، في كل خيط نور، أو كومة تراب، ملامحه المتلوّنة تارة على هيئة حورية وتارة كسجّانة شمطاء باطشة. لقد كان الموت هو المزولة التي تخط على سقف أَرَقي الإيماءات الصامتة للرغبة، والمصيدة التي تقضم مؤخّرة قدمي، وبحر أوراق الشجر التي تحولها الشمس إلى أكوام مكدسة من الدنانير الذهبية، كان فوهة المدفع، النفق المسدود، والزنزانة السرية لمحاكم التفتيش، أربعة جدران لبطن لا يبحث فيه عني أحد.

في ظل ظروف مسرحية كتلك، في صراع بين الكبرياء والجزع، أمضيت أسبوعاً تلو الآخر، دون أن أعرف مكاناً أو إنساناً، تقريباً، ودون أن أرى سوى وجه واحد أمامي: كمن يمشي في ردهة، ومن خلفه شعاع ضوء وأمامه مرآة. فلو كنت فقط استطعت المقاومة ولبثتُ هكذا حتى النهاية، لكنت تجنّبت منازعة لعنتي وخلاصي، ولعنة وخلاص الآخرين جميعاً: الطبيب والراهب والفتاة.

(1) «كونكا دورو» هو السهل الذي تقع به مدينة باليرمو في جزيرة صقلية. (المترجم)

-2-

«ماريانو غريفيو كوردونا مِن كانيكاراو»، كان اسمه هكذا، دفعة واحدة، دون اختصار ولو بحرف واحد. فقد كان من عادة الطبيب أن يُوقّع مُتْبِعاً اسمه الطويل بلقبه الثاني، ليس لأنه وُلد في تلك البلدة (كانيكاراو)، بل لأنه كان وفياً للاعتقاد المتوسطي الشائع (أو على الأقل بالنسبة لي وله) بأن المبالغة والتفخيم تضيفان للكلام – وللأجواء والإيماءات والأطعمة أيضاً – ليس ثراء فحسب بل مصداقية أيضاً، كما يحدث لثياب السحرة فكلما زادت الأقنعة والريش فيها قَوِيَ أثرها واشتد تأثيرها.

بيد أن كل تلك الألقاب الكثيرة لم تعد عليه بفائدة تُذكر، فلأسباب عديدة، وحسب ما أذكر، فقد كانوا يطلقون عليه دوماً اسم «الماغرو العظيم» (النحيف العظيم). فما من عامل لحمل النقالة، أو راهبة، أو حتى مريض، حين كانوا يلمحون ساقيه الطويلتين للغاية تعدوان عبر الردهة، إلا وشعروا بالحاجة إلى أن يذيعوا أمره هامسين: «إنه الماغرو العظيم» «الماغرو العظيم». ولا بد أن ذلك النداء ذا الموسيقى الثابتة، قد ترامى، خلال كل تلك السنوات، ولو لمرة واحدة فقط، إلى تجويف أذنه ذي الشعر الكثيف.

ورغم الشعار الأرستقراطي –خليّة نحل مكتوب في وسطها كلمة «أوبيريوس»– الذي كان يبرز مزهواً فوق بطاقة تعريفه، وبرغم كل التبريرات والبراهين التي كانت شجرة العائلة المرسومة، والمعلّقة خلف

مكتبه بجذورها الشبيهة بالأسماك المتوحشة، تجتهد في إعطائها له، ظللنا جميعاً نحسب هذا الأمر تعسفاً خاطئاً من جانبه.

يا لها من شجرة فريدة حقاً! فلم يكن ثمة زجاج يحميها، بل كانت محاطة بمجرد لوحات أشعة سينية قديمة مصطفّة جنباً إلى جنب بعد أن طُهّرت من عار وذنوب بعض المرضى والموتى المجهولين. كانت ترتفع عن الأرض بشموخ، وبوفرة من الأوراق، حتى ليُخشى من تحررها سريعاً من إطارها المتفسّخ، فتطلق أوراقها المزخرفة بالأسماء في الهواء. إحدى تلك الأوراق، إن أخذنا الأمر على محمل الجد، كانت تشير، عند نهاية أحد الفروع، إلى أن قطرة من دم أزرق من صُلب ماركيز إسباني قد انتقلت إليه عبر قرون عديدة، لتحقن في عروقه ومضة من كبرياء قديم، ولكنها حزينة كئيبة تليق حقّاً برجل مولع بحبّ الكتب. عموماً، كان النبيل الحقيقي أو الزائف «الماغرو العظيم» هو الطبيب الوحيد، إضافة إلى طبيب المناوبة الليلية، الذي كان يقضي الليل معنا (كان قد انفصل منذ سنوات عديدة خلت عن زوجته ذات الجمال الباهر، والتي تعود أصولها إلى مدينة «سيراكوزا»)، وكانوا يقولون إنه يبصق على صورتها كل صباح قبل أن يغتسل). في أحيان كثيرة، عقب العشاء، وبعد أن غدونا أصدقاء، كنت أراه يظهر فجأة ليقف بجانب فراشي بدون منديله الطبي، بينما يداه شديدتا الضآلة قابضتان على رأس عصاه. كنت أرفع عيني لأتملّى هيئته بدقّة، من رأسه إلى أخمص قدميه، بعدستيه السميكتين الخضراوين، وبحذائه المصنوع من جلد الماعز الأسود، الذي كان يصل قصبة ساقيه تقريباً. كان أشبه بصورة قديمة فعلاً للطبيب «هير

فيركو» بين زملائه وتلاميذه في حفل اليوبيل الذهبي لانعقاد أول حلقة دراسية، ومعه الطبيب «مونسنيور كاركوت» وقد وقف متهيئاً على عتبة مشفى «سالبيتريي» بينما الهواء يتلاعب بأوراقه[1].

ما زلت أتساءل إلى الآن: ماذا كان يجد في صحبتي؟ هل كان بحاجة فقط إلى مستمع وديع يصغي إلى ترّهاته المسائية، أو بحاجة إلى من يلبي فضوله المهني تاركاً إياه يتابع كيفما يشاء تطوّر الداء الكامن بداخلي: التشقّقات الجديدة، القلاع التي اختفت ثم عادت للظهور مجددا، ثم اختفت ثانية؟ فقد كان عليه بهذه الطريقة أن يجري فحوصاته ليس عبر لوحات الأشعة السينية المبللة بالماء المقطر، التي كان يبغضها، بل عبر قرائن أكثر دقة: سعال شديد طرأ مؤخراً، أو نغمة لم يستطع صوتي ترديدها، أو نَطَقتُها ولكن بصعوبة بالغة، ظفر مكسور، بقعة حمراء في الشفة، أو حرارة شديدة في حدقة العين. لعله أتى ليحتسي الخمر، فقد كان يحب الشراب كثيراً لأنه كان يدفعه للثرثرة. حينذاك كنت أنهض من الفراش، وأُخرج من الخزانة الحديدية زجاجة من النبيذ، والإبريق الخاص بي (أما هو، وحتى يتجنب العدوى، فكان يُخرج من جيب عباءة النوم كأساً صغيراً، وبنظرة من طرف عينيه كان يعتذر لي بشفتيه الوقحتين عن تصرّفه الوقائي ذاك). كنت أنا الروح وكان هو قائد الجنود والشيطان الرئيس. كنّا نخرج لنحتسي شرابنا في الشرفة بين

---

(1) «هير فيركو» و«مونسنيور كاركوت» طبيان مشهوران في القرن التاسع عشر بالمشفى الفرنسي «سالبيتريي». (الكاتب)

مقاعد وأَسِرّة سوداء لأجساد مُمدّدة هامسة أمام شجرة الصنوبر الصامتة تقريباً، التي كانت تخفي وراءها صفحة البحر هناك في الأسفل.

يا لها من أيام ويا لها من ليال! لعلّ حياتي في تلك الأيام كانت الأكثر هدوءاً، ولكنها أضحت، على غير انتظار، حياة لا نهاية لها. في ذلك الحين، ولاستغراقي الشديد في عدّ وحساب سنين حياتي القليلة المتبقّية، وكأنها قطع من المكعبات الصغيرة، أو قطع شطرنج قُضي عليها، واصطفّت على حواف الرقعة، كنت قد اعتدت على ألا أرى شيئاً في الزمن، وداخل عقلي سوى النهاية الوشيكة لمباراة خاسرة. لم تكن ملحمة فرسان حيث تظل المعجزات وفرص تحقق النجاة معلّقة حتى الصفحة قبل الأخيرة، ولكنها كانت قصيدة قصيرة، ينقصها فقط البيت الأخير، الخاتمة لقافية يستحيل تغييرها.

كنت أشرح الأمر لرفيقي بصوت متهدّج قائلاً: «كِش ملك! لقد مات بحركة نموذجية. فقد كان الأمر متوقعاً؛ وبثلاث حركات فقط، وبعد التضحية بالملكة، في محاولة لتقليد مباراة أندرسون الخالدة في مسابقة لندن عقب مرور حوالي مئة عام عليها. لكني أرغب فقط في معرفة اسم الفائز قبل أن أنحني وأخلع القبعة له»[1].

كنت أستمتع بإغاظته بهذه الطريقة، فماذا كان عساي أن أفعل أفضل من هذا، نظراً لندرة أوقات الترفيه في تلك الأيام الخاملة، وللسهولة التي كان يمكنني بها أن أنتزع منه إحدى لعناته التي كان يطلقها بصوت

(1) كان «أندرسون» لاعب شطرنج في القرن التاسع عشر وقد فاز في مباراة سُمّيت لفرط روعتها بالمباراة الخالدة. (الكاتب)

رجل مدخّن إلى مُحدِّثه، وعدوّه المفضل والدائم، مهندس العالم، الأب الرب، أو من يزعم أنه هو.

في الحقيقة، كان «الماغرو العظيم»، لسنّه الطاعنة، ولطبعه المتقلّب، يحب قليلاً التوقف، خلال ساعات القيلولة، عن مراقبة مؤخّرة الغاسلات المغتربات وهن منحنيات على الأرض، وعن ملاحظة السفن العابرة لمونتي «بيلّيغرينو» بالمنظار البحري، ليروّح عن نفسه منهمكاً في حلّ بعض الألغاز الغامضة، وكأنها الكلمات المتقاطعة ليوم الأحد. كان يفعل هذا بسخط ممزوج بحماسة لا تخلو من متعة، حتى أنني أمام هذا كله لم يكن بوسعي إلا أن أطلق العنان لضحكاتي.

كان يصرخ قائلاً: «إنه موجود... إنه موجود، فلا جريمة بلا مذنب» أو كان يردّد: «يا لي من مخطئ، يا لغبائي، ارتكبت هفوة لا تليق بصبي ساحر، انظر!» كان يجذبني من كُمّ قميصي، وكان يشير إلى الكون بإيماءة من يده كمن ينشّ شيئاً، أو يطرد شخصاً: «انظر إلى هذه الفوضى! فلتغرب عن هنا يا هذا!» كان يفعل هذا وكأنه يراه أمامه على هيئة «هيدرا» أو «سيربيروس العظيم»[1]، وكأنه كان يبتغي إنقاذ نفسه من براثنه بتثبيطه...

أما أنا، وحينما كنت أسمعه يكيل اللعنات، ويجأر من ألمه كالجار المشاكس، ويبرر أسباب عُقَدي الفلسفية، والحزن الذي يعتري قلبي منذ أن وطأت قدماي «روكا» بضعف كفاءة موظفي المستشفى، فلا

(1) «هيدرا» في الميثولوجيا الإغريقية والرومانية هي الأفعى المتعددة الرؤوس، أمّا «سيربيروس» فهو كلب ثلاثي الرأس، كان مُكلفاً بحراسة بوابات العالم السفلي. (المترجم)

أزعم أنني كنت أستقي منه دواء لحالي، ولكن بالتأكيد بعضاً من التسرية، ربما من الإنهاك البدني، أو من تلك اليرقة التي كانت تلتهمني في صمت أسفل الحلمة اليمنى، في نقطة ما كنت أعرفها عن ظهر قلب منذ زمن.

كنت أجيبه قائلاً: «هل قرأت أنت (كان هو من طلب مني أن أرفع الألقاب بيننا لأنه يفوقني بثلاثين سنة فقط) عن قصة لاعب الشطرنج الذي لا يخسر أبداً، ويختبئ في جوف إحدى الآلات؟ هكذا يبدو الأمر لي، فغالباً ما يخيل إليّ أن أحداً يلاعبني بهذه الطريقة. إنه يلاعبني بينما تبرق عيناه من وراء خوذة حديدية»[1]. كان يجيبني قائلاً مزهواً من أثر السّكر: «أتداهنه؟ لعلنا -أقصد كوكب الأرض، وكوكبة ذات الكرسي، ونجم الدبران، وذلك النيزك، كل تلك الأجرام المرئية وغير المرئية لك- كلنا، من أبراج سماوية، ومن حيوات لسنا إلا بلايين من الحصى الكلوية داخل حيوان ضخم هائل، آلام معدته لا حدّ لها. إننا بلّورات صخرية تقبع في مثانته الهائلة والمتألمة، نطفو بين ريحه وبوله، فننحشر في كل مسام جسده، دافعين إياه للعواء من الألم كالذئب بين جنبات صمت الفضاء السرمدي. إن هذا ما يطلقون عليه التناغم الموسيقي للقبّة السماوية. ولن يكون بوسع ذاك الكائن الذئب معرفة ممن بالضبط عليه التخلص أولاً. إنه ليس أكثر من مجرد حيوان غاشم يرغب في التخلص منا، ويركل، ويتبرم على غير هدى. إنه بحاجة إلى علاج ما، هزة عنيفة، أو تجشؤ بمعاونة إله آخر، الإله الأقدم، أو بمساعدة طبيب أكثر قِدماً وضخامة منه، لكي يفتّتنا تراباً، ويخلصه

(1) يشير الكاتب إلى آلة اخترعها الهنغاري «فولفغانغ فون كيمبلين» في عام 1769 وسماها «آلة التركي» بحيث كان يختبئ داخلها لاعب شطرنج حقيقي لا يراه أحد، وقد نالت هذه الآلة شهرة عظيمة في وقتها. (المترجم)

أخيراً منا ومن آلامه. غير أن موتك سيتحقق بمعزل عن ذلك السيناريو، على افتراض أن ثمة خطة معدة له...»

كنت أستمتع بإثارة غيظه: «لما كنت في المدرسة الثانوية فكرت في أمر شبيه، في سلسلة من الآلهة تختلف أحجامها، فيتداخل كل منها في الآخر، كالعلب الصينية. ولكن أن يتحول الكون بأكلمه إلى مجرد تحفة للأثاث فهذا تفكير لا يليق إلا بصبي في المدرسة الثانوية. وهكذا الأمر أيضاً في ما يخص المسيح...».

لم يكن يدعني أكمل جملتي حتى يعاجلني قائلا: «مَن؟ لحية التيس؟ إنه مجرد تبرير واه، مجرد واجهة للتغطية! إنه خدعة بحاجة إلى قسّيس مثلك لكي يصدقها، أجل قسّيس...». كان يتجاهل تذمري، واحتجاجي، ويستطرد قائلاً: «أجل قسّيس أو مقامر يبحث عن أعذار. كلا، ليست هذه مبارزة توشك على خسارتها، بل مجرد لعبة من طرف واحد. وليست هناك خوذة يختبئ وراءها وجه محارب أو محاربة».

أخبرته بنبرة خطابية: «إنك تسأل بلا جدوى عن الشيء الذي لن أفصح لك عنه أبداً». ثم أخذتُ أقلده ساخراً من ولعه الشديد بالاستشهاد والتضمين: «وهكذا جعل «مونتيفيردي» «كلوريندا» تغني لـ«تانكريدي»»[1]. بيد أنه تجاهلني وقال: «كلا، بل نحن بثور

---

(1) «كلوريندا» و«تانكريدي» هما الشخصيتان الرئيستان في العمل الأوبرالي «قتال كلوريندا وتانكريدي» للموسيقي الإيطالي «كلاوديو مونتيفيردي» الذي ألفه في عام 1624م، ويعد أحد أهم الأعمال الموسيقية في القرن السابع عشر، ويتناول قصة غرام الفارس المسيحي «تانكريدي» بالمحاربة المسلمة «كلوريندا». وجملة «إنك تسأل بلا جدوى عن الشيء الذي لن أفصح لك عنه أبداً» مقتبسة من تلك المسرحية. (المترجم)

ودمّل في الوجه القميء لذلك الكائن، روث لحيوان خلد هائل الحجم كالكون، زوائد لحمية، بثرات، ورم في الغدد الليمفاوية، أمراض خبيثة ينتهي اسمها بمقطع «أوما»، جلوكوما، فيبروما، بلاستوما...».

كان حينها ينفجر ضاحكاً، مشيراً بعصاً في يده المتسخة باليود نحو مجرة درب اللبانة، وكأنه يتوعّد طفلاً، ثم يصمت فجأة، حين أفقد الأمل في سكوته. عليّ أن أعترف بأن نزوات غضبه تلك المترعة بالكآبة والسخرية كانت تدوم معه لفترات قليلة حقاً، وكان يعبر عن خجله منها مودعاً إياي بعدها بتحية ألمانية فاترة، ثم يتركني وحيداً مستنداً إلى الدرج، ومُولياً ظهري نحو الصمت ونحو الآذان العديدة للّيل.

كنت أشاهده من الشرفة يجتاز برشاقة الغزلان، وبيدين وقدمين منطلقة، مقاعد وأَسِرّة ووسائد. كنت أعاود التفكير حينها في لوحة عثرت عليها في طفولتي في غرفة المؤونة العلوية، كانت تُصور «نابليون» وسط جنوده المرضى بالطاعون في يافا[1]. كنت أهتف به صارخاً، ولأنه لم يكن بوسعه سماعي، كنت أطلق بعض السباب، ثم ينتهي بي الأمر إلى أن أضحك. أما هو، وقبل أن يختفي في مخبره، بين الدوارق، وعينات البكتيريا، فكان يتوقّف لينصت إلى أحد المارة، أو ليتلقّى بطاقة طبية لا تحمل في طياتها أملاً: «لقد هبط «غاريبالدي» من سفينته أيها الطبيب». وكانت تلك الجملة الأكثر تردّداً وذيوعاً في اللغة المتداولة للمكان، وكانت تعني «لقد بدأ يبصق الدم» (لديّ تعبيرات أخرى في مفكرتي الشخصية: «الراية الحمراء»، «عَصير العنب»، «الماركيز».

(1) هي لوحة للفنان الفرنسي «جروس» معروضة في متحف اللوفر. (الكاتب)

وأذكر أسماء أخرى استوحيناها من واقع حياتنا معاً مثل: «إنسان الكهف» وهو الاسم الذي كان يشير إلى طبيب الأشعة «فاسكيز»، الذي كان خبيراً في رسم دوائر بقلم الرصاص حول تجاويف الداء وكهوفه البادية في لوحات الأشعة السينية المرفقة بالملف الطبي لكل مريض والمعلّق عند طرف فراشه. أمّا «هانَتْ» فكانت كلمة دارجة في لغة الجنود تشير إلى قرب انتهاء مدة الخدمة العسكرية، وكانت تُستخدم في المشفى للإشارة إلى شيء أقل إثارة للسعادة من هذا).

في الوقت ذاته كانت الأضواء قد شرعت في الخفوت في «روكا»، الركن تلو الركن. وكانت نوافذ جناح السيدات قد أظلمت عقب الصرخة المراسمية للراهبة «بينيدِتّا»، بينما كنا نتعمد نحن إنارة المصابيح كل خمس دقائق بدافع العناد فقط. بيْد أن المصحة في نهاية الأمر كانت تغرق في ظلام دامس وكأنها متدثرة بعباءة من السكينة؛ كقارب شراعي قديم معطّل فوق قمة تلّ يتأرجح الهوينى بينما يؤرق نعاسه سعال أجش يتردد صداه بودّ ورحمة، بين ردهة وأخرى، وفراش وآخر؛ كنباح كلاب صديقة يتملكها خوف الحقول بالليل؛ أو كموسيقى جنائزية لجوقة ريفية تعزفها أبواق الموت التي تسد فوهاتها كتل من البلغم.

كانت البارجة العتيقة تغط في النوم وكأنها سفينة نوح فوق الجودي بعد الفيضان. كانت سفينة رابضة فوق اليابسة، وقد هجرها الأحياء، وأتى على هيكلها الملح وبعثره الهواء، تقطنها الجرذان وحدها كسفينة فيلم مصّاص الدماء، بينما أسطوانة من الزمن الجميل تبعث من غرامفون مجهول المكان بكلمات لم تعد لوهلة قادرة على إثارة الشجون في قلبي:

تذكرني التذاكر القديمة يا عزيزتي
بتلك الرائعة الجمال على متن النورماندي...

ها هي ليال أخرى تمر عليّ، وباخرة «نورماندي» أخرى بنوافذها السوداء كحدقات العين المخيطة[1]، وبحمولتها من جرذان يافا المكدسة في جوفها، قد أتت لترسو فوق قمة «روكا».
الحديقة في المساء حين تُقرع الأجراس،
الخِدر القديم الذي لم يعد يأوي أيّا كان...

وبينما أخلع ثيابي كنت أنشد أغنية، ثم أتقوقع داخل جوف ردائي الاحتضاري، لكي أحلم طريقاً رمادية، كهفاً متهالكاً، حيث تعلو بين الأحجار والأعشاب أشجار نمت على غير نظام. ياه! لقد كانت تلك حقاً أياماً بائسة – الأيام الأكثر سعادة في حياتي.

(1) باخرة فرنسية عابرة للأطلنطي تعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي. (الكاتب)

-3-

مَن بوسعه أن ينسى رفقاء سجنه، وتلك النيران التي كانت تؤرقهم وتدفعهم للنزول إلى الحديقة مع انبلاج الفجر مرتدين بيجاماتهم لكي يذرفوا الدمع أخيراً بمفردهم، وقد ارتمت وجناتهم على مسند المقعد؟ مَن بوسعه أن ينتزع من مخيلته ذقونهم المحلوقة برداءة، بينما يأخذ بألبابهم ويثير اضطرابهم البهاء الخاطف للعالم في ما وراء الأسوار؟

بين الغفلة واليقظة، كان يكفي أحياناً صفير قطار، وقد زادت المسافة من عذوبته، أو صرير عربات الكبريت المصطفّة في طريقها إلى التل، لكي يقفز القلب من مضجعه مضطرباً، بينما نحن جالسون فوق الفراش نسترق السمع بحسد إلى أخبار وأساطير تلك النجمة الكافرة التي تحوّلت إليها الأرض. عمّا يحكي قطار، أو عربة تسير بين معسكرات الجنود وضوء القمر فوق الحظائر، عبر شذى أشجار البرتقال وعبق القرى في ليلة صيفية؟ عن لا شيء! غير أني أعلم أن ثمة عيوناً تحملق في الظلام، ولا راحة لها إلا في ملاحقة آثار عجلات العربات، على أمل أن تلتقي فوق الطريق ببعض من ومضات نور الحياة - كمشهد عجوز يستنشق الهواء الطلق، أو رأسين يتناجيان أسفل الضوء الخافت للعشاء...

كنا نعود أدراجنا من تلك الرحلة الثابتة في المكان أكثر سعادة، أو أكثر حزناً، مَن مِنّا يستطيع قول هذا! لكن، لم نكن في كل الأحوال، خائبي الأمل من غنيمة السحب التي حصدناها، والتي غدت الشيء

الوحيد الذي لم يكن بمقدور المصير منعه عنا. كان الأمر مثلما يحدث لمسافر يصادف توقفه أسفل شرفة مجهولة، فيتسكع تحتها متحيّناً الفرصة لسماع همسات امرأة عاشقة خجولة، في لحظة صمت بين أغنية وأخرى، ليعاود استئناف رحلته بعدها، وقد هدأت سريرته، قابضاً بيديه على تلك البَرَكَة، وذلك الخبز المسروق ليقتات منه في وقت آخر.

كم كان جميلاً التريّض بخطى طليقة عبر الجبال والوديان وكأننا ركاب متسللون دون تذاكر، مُهرِّبون للحياة. كان هذا على الأقل إلى أن تعود شلالات الضوء أدراجها لتعلن فوق الأسطح، لمن كان ناسياً، أن يوماً جديداً كان ينتظرنا بالجوار حاملاً معه جرعته المضبوطة من السخرية والألم. كان هذا يوماً مخصوماً من عمرنا، وأحد الأيام القليلة الباقية لنا.

كانت جلبة الاستيقاظ الحزينة تردد الشيء ذاته برتابة، وكأنه طقس لا يتغير، يتكرر حدوثه كل أربع وعشرين ساعة بجوار وسائدنا، بعد أن نسدل أستار النوم على جفوننا: رتابة حركة القضيب الذي يرتفع ثم ينزل داخل فتحة الباب الحديدي الكبير، وتوقف عربة نقل الحليب فوق حصوات الطريق؛ وتعثر عربة الحُقَن في نتوءات الرصيف أمام العيادة. كانت كل إشارة من تلك الإشارات التي كنا ننتظرها تبدو وكأنها تضع جدولاً زمنياً لنزع ملكيتنا في الحياة دون أي حق لنا في الاستئناف، مؤكدةً على الجُرم ووصمة العار اللذَين من أجلهما بُعث بنا إلى المنفى. كنا عصبة من الخارجين على القانون غير قادرين على أن نحب بعضنا، أو هكذا كنا نبدو، رغم أن مَن بقي منا على قيد الحياة أدرك، في السنين اللاحقة، أن

العكس تماماً كان هو الصحيح، وأن العذاب الذي كان كل منا يتأمل به موت الآخرين، وكأنه موته الشخصي، لم يكن إلا حباً حقيقياً.

كيف لي أن أنسى رفاقي آنذاك إذا كنت أرى نفسي وأتعرف على اسمي في كل واحد منهم، وإذا كان كل صدر منهم أعتمت بداخله هالة الضوء بجلال هو صدري؟ تكفيني الهمهمة بأسمائهم في أغنية مسجوعة، بداء بـ«دي فيليتشي» وحتى «شومي»، ليعود الواحد منهم تلو الآخر إلى التدخين سراً في حجرتي، وليفتحوا دون قصد كتاب «مونتالي» الراقد على الكومودينو، وكأنه مجموعة من أوراق اللعب الغامضة. ويعود «لويجي الشارد» ليرتجل أقوالاً ساخرة مثيرة للشجن، بينما يرنو إلى رذاذ سعاله في قعر مبصقة ورقية: «أحمر في المساء نرجو أن يحل الصفاء». أما «لويجي» الآخر «السعيد» فيرتقي فوق أحد المقاعد ملوّحاً بيده في الهواء مُطرياً على الأدوية الأمريكية الجديدة التي ستنقذ حياتنا في اللحظات الأخيرة، ثم يقول ضاحكاً مُقلداً بشفتيه زخات طلقات البندقية: «تا تا تا تا... ستصل أدويتنا عما قريب، وداعاً لك أيتها البكتيريا الكروية البائسة»[1]. كان يطلق على «بكتيريا كوخ» هذا الاسم، وكأي جندي نظامي آخر بات شغوفاً بأعدائه الرابضين في الخندق المواجه له وبمعدّاتهم الحربية وبألعابهم الترفيهية، كان يقول لنا: «إنهم يتكتّلون عند القمة، ولكنها خدعة، إن هدفهم هو فص الرئة الأسفل. اصبر وسترى ماذا سيحلّ بهم حين يصل البنسلين...».

(1) «لويجي الشارد» و«لويجي السعيد» اسمان مستوحيان من أحد أعمال الشاعر الإنجليزي «جون ميلتون». (الكاتب)

أما العقيد فكان لا يزال يُبقي على مسافة بيننا وبينه (فغُرف جناحنا متماثلة، وكل قاطنيها كانوا جنوداً سابقين رُحِّلوا إلى هنا، ولذا فهو يشعر بأنه لا يزال قائداً للكتيبة رغم أن الحرب وضعت أوزارها منذ عام، وباتت البيجامة هي لباسنا الرسمي). حتى أنه كان ينتظر أن ننهض جميعاً حين دخوله إلى الشرفة ممشوقاً رماديا بوشاح حريري حول رقبته، بينما كُمّ البيجامة الأيمن الخاوي من ذراعه يتأرجح حول خصره، فينطق بكلمات معدودة يقطعها سعال شديد متكرر: «المعذرة أيها السادة الضباط!» ثم ينصرف.

سأظل أذكر الصبي «أديلمو»، الذي كان لعبتنا، وابننا، وتميمة الحظ السعيد لنا. كان يهبط إلينا من الطابق العلوي ليسألنا حكايات وحلوى بلهجته الشديدة الصعوبة، وقد برزت يده البيضاء بلون الجبس لنا من الكُمّ المثني لقميصه الواسع للغاية. ما زلت أراه معنا في الطرقات يسرع خطاه ليلحق بنا، ثم تخور قواه عند الجزء الأكثر تشويقاً للحكاية. أذكر كيف كانت تصيبه الدهشة، وكيف كان يضحك، بينما ينصت إليّ وأنا أرتجل له إجابات على أسئلته بشأن النجوم. كنت أردد له بعض الأرقام العشوائية، وبعض الأسماء العسيرة النطق: «إيريبوس»، «إيروس»، «إيرينيس»[1]، بينما نجلس بمفردنا فوق شرفة «روكا» التي أمست كقلعة لامستها بالكاد أمواج الوجود. كان كوكبا الدب الأكبر والأصغر

(1) الأسماء تمثل ثلاثة من الآلهة الإغريقية: الأول يمثل مملكة الموت والظلام، والثاني هو إله الحب، بينما الثالث اسم ربة الانتقام. (الكاتب)

يمران مسرعين فوق رأسينا فاتحي الطريق لكوارث غامضة. كان يبحث مستعينا بإصبعي عن هالة ذهبية هناك في الأعلى عسى أن تقوده إلى الخلاص من دائه، وأن تعيده إلى بيته في جزيرة «فيليكودي» حيث كان مولده.

خاب ظنه فيّ فقط في النهاية. كان يعتقد، حسب ما سمع من أبيه يوما فوق قارب الصيد، أن مادة «الكينين» تشفي كل داء، وقبل موته كان يتضرّع ويتوسل إلينا بصوت خفيض ليحصل عليها، إلى أن لبّينا رغبته وأعطيناه أي قرص لنرضيه. حينها أدرك الأمر، وامتنع عن الكلام، واكتفى بأن يلقي إليّ بنظرة تحمل بعض العداء قبل أن يدير وجهه للناحية الأخرى.

كان «أنجيلو» يقول إن الموت برزخ دخاني بين الأحياء والآخرين، فيكفي أن نغمس أيدينا فيه لنعبر إلى الناحية الأخرى، ولنعثر على الأصابع الحنونة لمن يحبنا. كل هذا بشرط أن نخلّف وراءنا آثار أقدام، أو بقايا، وأي أثر لنا، ولو ضئيل، يحفظ رائحتنا. لعل هذا ما حدا به إلى أن يعطي إلى إحدى الراهبات عدداً من الخطابات التي تحمل تواريخ مختلقة لكي ترسلها، الواحدة تلو الأخرى، بواقع رسالتين كل عام. كان يحكي في خطاباته تلك عن مستقبله، فيفتخر بأبوته، وبوظائفه، وبنجاحاته. كان يتحدث عن أمراض أصابته، ولا يلبث أن يُشفى منها، ويتعافى تماماً في الخطاب التالي. كان يقول إن أمه كانت ستعيش لفترة أطول منتظرة موعد الخطاب المختلق الذي يحمل إليها وإلى ما لا نهاية صدى صوت الراحل الغالي. كما لو كان لها ابن يعيش في ما وراء

البحار في «سان باولو» أو في «ليتل إيتالي» في نيويورك. بيد أنها ماتت بعده بوقت وجيز. أما الراهبة «تارشيزيا» (إذا لم يصلها نبأ موتها) فلا تزال تواظب بالتأكيد حتى اليوم على إرسال تلك القرابين من ميت إلى ميتة، والتي لن يكون بوسع أي ساع للبريد أن يعيدها إلى مرسلها (أما نحن أيها الأحياء الذين نتبادل الخطابات، أنحن بحاجة أشد من الموتى إلى الكلمات؟ وهل نحن على يقين فعلاً أن الحياة هي مرادف للصوت، بينما الممات هو الصمت، وليس العكس؟)

انتحر «سيباستيانو» بعد أن ألقى بنفسه في بئر السلم دون أن يترك وراءه سطراً واحداً. قال لي في صباح أحد الأيام، وبلا أيّ داع، بينما يكتسي وجهه بابتسامة مظلمة: «حتى حينما يسلبون كل ما لدي فلا أزال أرغب في أن أُهدي شيئاً». ولا تزال حرقتي عليه هي الأشد وقعاً على قلبي إلى الآن. بينما الملازم ثان «جوفاني»، الخبير الزراعي من مدينة «تشيفالو»، وبرغم مرور زمن طويل، فلا تزال حكايته الغريبة المتناقضة تثير فيّ شعوراً بسعادة فظة. فقد كان محتجزا في «روكا» حينما كان صبياً، ثم خرج بعد دخوله مباشرة سليماً معافى، أو هكذا كان يبدو. حتى أنهم لم يعفوه من الخدمة العسكرية، وأمضى ثلاث سنوات في ليبيا مرتحلاً جيئة وذهاباً من وإلى إيطاليا. ولما أُعيد احتجازه في «روكا»، كنّا نراه يانعاً، ولكن كان بصدره بعض الثقوب الرخوة وندب قديم رطب، وكأن برعماً كان يصرّ على أن يتفتح فوق غصن مبتور، كان يبدو أن الحياة هجرته. ولكنه على كل حال –فللداء مَكْره– كان يزداد وزناً لفرط تناوله المواد الدهنية والقشدة، بعد أن أقنع نفسه، في شيء

من الغرور، بأنه ناج من مرضه. ما زلت أراه أمامي صبيحة كل سبت، عندما كان يحين دوره للصعود على الميزان لوزنه، بينما يتلفّت حوله بنظرات ماكرة ومترعة بالحيوية قبل أن يضرب بقدمه على كفّة الميزان وكأنها حجر في ضيعة ورثها عن أجداده. وحين كان يسمع صياح الممرّض، الذي كان يزداد علواً في كل مرة، معلناً عن وزنه، لم يكن ليبتسم حتى، بل كان يأخذ في مداعبة خصره الشبيه بخصر عروس بيدين راضيتين. ما كان يدرك أن أحداً مّا وفق ناموسه الغامض كان قد آثره على الجميع جاعلاً إياه أول من يقضي نحبه.

أذكر، أيضاً، عجوزاً آخر في عيادة الطوارئ ذا عينين زرقاوين جميلتين كان يعالج جبهته بمفرده بينما يتطلع إلى صورته في زجاج النافذة. كان أحد زملائه قد ضربه أثناء نوبة غضب حادة. و«مارتا»... لقد كانت «مارتا» أكثرهم أهمية، وسوف أتحدث عنها في ما بعد حين لن يكون بوسعي تجاهلها.

وهكذا كنّا نحيا جميعاً ومعاً في «روكا». فمِنّا من كان هناك منذ فترة وجيزة، وآخرون من فترة أقل، ومن بينهم مُحدّثكم، والعقيد، و«سيباستيانو»، و«لويجي»، و«لويجي» الآخر، و«جوفاني»، و«أنجيلو» وآخرون لن أذكرهم– نفايات للتاريخ، أو زوائد بشرية. كان جميعنا جنوداً سابقين محترفين أو مُجبرين، أما الآن فقد أصابنا الداء كافة بالقدر نفسه، وها نحن، الوحيدون في أوروبا، الذين نتقاسم المصير نفسه، ونقبع خلف الأسوار. كان قد أُوتي بنا إلى هنا في مجموعات من أماكن لا حصر لها متسربلين بعباءات البطولة المهترئة. خضعنا طائعين

مجدداً لفحوصات وإجراءات لا نهاية لها أمام جنود الحراسة. صعدنا أدراجاً لا تُحصى، نعدّ الطابق تلو الآخر بأنفاس لاهثة تزداد وهناً، حتى أخذنا أماكننا في ذلك الخندق العلوي الذي أُعد لنا. هناك سلّمنا لأياد مُعقّمة مُتمرّسة أكوام عظامنا التي كانت الحمى الخفيفة اليومية تكسوها، في أول الأمر، بوهج حارّ خافت. لكن، ومع مرور الوقت -كما يحدث عند تناول الشراب- حملتنا الحمى على الإفراط في الهذيان، وانتابتنا رغبة في تملق النفس، والتألم لحالنا، وكما ستلاحظون، كنتُ أنا على رأس الذين لم يستطيعوا التخلص من تلك العادة الذميمة أبداً في ما بعد.

أدرك «الماغرو العظيم»، على الفور، أنه تلقى خلف متاريسه الشائكة، كيسوع المصلوب، مُحتضرين مختلفين هذه المرة عن المعتاد، وكان يردد بنبرة تنمّ عن فخر شديد، وكأنه يستحق الثناء على هذا: «إن جيلكم هذا لا مثيل له. فمنذ أتيت هنا إلى «روكا» لم يصادفني من قبل أن أرى كتباً كثيرة هكذا حولي، ووجوها متجهّمة ترتدي النظارات. إنكم حصاد الحرب. في الماضي، كان الحثالة القادمون من «كسلا» فقط هم من يقعون فريسة المرض[1]، أما الآن، فحتى السادة ذوو الصدور الجرداء المعطرة والنكات الساخرة باللغة الإيطالية الفصحى يمرضون أيضا».

كان «الماغرو العظيم» يُقيِّم مرضاه حسب سنة وصولهم، وكأنه خبير في تذوق النبيذ، أو معلم مدرسي متقاعد. أما المرضى فقد كانوا

(1) «كسلا» هو حيّ في مدينة باليرمو عاصمة جزيرة صقلية. (الكاتب)

يسرون له الأمر، ولا يمكثون في «روكا» لأكثر من أربعة فصول. كانت تلك المدة المتوسطة المعتادة، من أكتوبر إلى أكتوبر التالي، الوقت الكافي للتعرف على الآخرين، وتعلم إحدى اللهجات، وبعض العادات التي تناسب الجميع. في نهاية المطاف، كان كل مريض، وكأنه يحاول أن يحظى بشرف الفوز في أحد سباقات التتابع، لا يكاد يشعر بسقوطه الوشيك إلا وكان يأتمن خليفته على عصا السباق المسكينة: تذكار قديم، أو حيلة مّا، أو حتى كُنية لأحد مّا. وهكذا، ومنذ عشرين عاماً، و«الماغرو العظيم» يحمل هذا الاسم، وقد لقي خلالها عشرون مريضاً حتفهم بعد أن أفشى كل منهم لخليفته عن اسمه هذا قبيل موته.

أما أنا، فإن طقس تسليم العصا والمشعل من مريض إلى آخر، وذلك الانتظار المستسلم للضربة القاضية كانا يسببان لي الاكتئاب – لا أعرف كم مرة في اليوم كانت تجتاحني رغبة في التخلص من هذا الشعور باليأس عاصياً الأوامر ومثيراً للقلاقل. فبدون شك، لو كنت متأكداً بأني لن أخلّف ورائي، في كل خطوة أخطوها، يرقات دائي وجراثيمه، ما كنت لأمكث طريح الفراش مع الحمى كحشرة البق، ولكنت هبطت لأقضّي آخر أيامي في عجالة بين الناس، فقد كنت جباناً بما يكفي لكي أقبل موتاً بالتقسيط كهذا. كان هذا في الشهور الأولى، لكن، مع مرور الأيام، بتّ معتاداً على معايشة الحياة القصيرة للآخرين، ولم تعد بي أي رغبة في أن أفترق عنهم. لقد تقاسمت معهم، تحت ظل الراية الصفراء نفسه، كل شفقة مَنّ بها الزمن علينا، وكل وهم زائف، وكل خيبة أمل أثناء «خدمتنا» هنا إلى أن وضع الموت نهاية لها.

ولما كنت أنا وحدي فقط، من بينهم جميعاً، من نجوت من هذا المصير، سواء كان هذا لحسن حظي أو لسوئه، فلقد كان الأسى أشد عليّ من السعادة لأنني خنت دون علمهم العهد الصامت بيننا على ألا يبقى أحد منا على قيد الحياة.

-4-

كانت كيلومترات قليلة تفصل «روكا» عن المدينة، لا أعرف بالضبط كم، فلم يكن من السهل إحصاؤها، ولكن الترام كان يبلغها قاطعاً المسافة بسرعة فائقة، عبر شارع «كالاتافيمي» المستقيم، حيث كانت ثمة محطات للركاب عند كل منعطف. كانت أكثر المحطات قرباً لنا تقع على بعد خطوات من البوابة الكبيرة، حيث كنّا ننتظر أسفل سقيفة من الصفيح مرتدين الصدريات الصوفية أحياناً، والقمصان الخفيفة أحياناً أخرى، حسب تبدُّل الفصول، ولكن بلهفة شديدة دوماً على الصعود إلى الترام قاصدين وجهتنا المؤقتة «سيترا»[1]. كان ركاب الترام العاديون ما أن يلمحوا فرقة الصعاليك الشديدي الفضول والنحافة إلا ويتنحون قليلاً عن أماكنهم دون أن يتعمدوا إظهار ذلك. كان زمن طويل قد مر علينا ونحن نرتدي السترات العسكرية الخضراء الرمادية، ولذلك كنا نبدو بلهاء في لباسنا المدني الجديد، والذي حاولنا بمشاعر مرتابة أن نتلو عليه صلاة الثياب التي كنّا قد نسيناها، غير أننا انفجرنا بالبكاء فجأة بينما كنا نحاول أن نضع حول رقابنا الهزيلة ربطة عنق مضى زمنها، ووشاحاً أبيض خاصاً بحفلات الرقص.

لم يكن باستطاعة الجميع الحصول على التصريح بالخروج الذي كان ينبغي إبرازه لحرّاس البوابة. في أوقات كثيرة لم تكن قوانا تسعفنا حتى على الخروج، لذا، فبين خرجة وأخرى، كنا نحرص، بطريقة مختلفة،

(1) «زيارة إلى جزيرة سيترا» هي اللوحة الأهم للرسام الفرنسي «أنطوان واتو». (الكاتب)

على أن نُسرِّي عن رغباتنا الجنسية في مجازفة منا باستثارتها بقدر أكثر مما كنا نخشاه.

كان من بيننا أيضاً من يبحث عن علاقة غرامية دون مراعاة القواعد مع جناح السيدات، عبر سور اللبلاب، الذي كان يقسم الحديقة إلى جزأين، والذي كنا نطلق عليه لعدم جدواه «خط ماجينو»[1]. كان الاتفاق يحدث أولاً بالإيماءات خلال القدّاس، ثم كنا نبعث برسالة إلى النافذة الصديقة، بواسطة حبل يتدلى من السطح، عبر ماسورة صرف مياه المطر، ونحن على ثقة بأن يداً ما ستلتقط الدعوة. أحياناً أخرى، كنا نقلد الصبية، ونرمي برمح من القصب وقد ربطنا به زهرة بواسطة حبل مطاطي أو شريط، لتبلغ الشرفة المنشودة.

في مرات أخرى، كان يكفينا أن نتحدث عنهن في ما بيننا، أو أن ناديهن بأغنية. فقد كانت الموسيقى، تحديداً، الشيء الوحيد الذي لم يكن ينقصنا أبداً. فعلاوة على الأسطوانات وأجهزة الراديو البدائية المصنوعة يدوياً، كان كل منا يمتلك سماعة للاستماع إلى البرامج التي كان يبثها علينا «الماغرو العظيم» كل يوم من «ستوديو» ناء في جوف المشفى بحجة إنامتنا أو إيقاظنا وفق مزاجه الخاص، وعبر التحكم في يد ميكانيكية معدنية بعيدة عنا. لقد كان تعسفاً من جانبه، ولكن كان من اليسير قطع ذلك الاتصال. بينما لم يك سهلاً مطلقاً تفادي عزفه

(1) خط «ماجينو» هو خط عسكري دفاعي بنته فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى لصد أي محاولة عدوان ألمانية، ولكن الخط فشل في مهمته، واستطاعت ألمانيا التوغل داخل فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية عبر دول أخرى، ودون الحاجة لمواجهة التحصينات الدفاعية لخط «ماجينو». (المترجم)

الشخصي والبدائي على البيانو، في القاعة، لنغمات مثيرة للجنون من مقطوعة «الصعود إلى جبل الحوريات»[1]. ورغبة مني في إثارة غيظه وحرجه فقد كنت أبدل اسم المقطوعة وأقول له إنها بالأحرى «الصعود إلى الهاوية».

ثم كنا نثأر لأنفسنا منه عبر غنائنا وعزفنا في المساء، حالما نشعر بزوال الحمى تدريجياً، وتدفق الدم بطيئاً وثقيلاً في عروقنا وكأنها مياه راكدة تضرب الشاطئ. كنا نجلس معاً على الأرض بمصاحبة «الهارمونيكا» و«الماندولين» وثلاثة أصوات وانية من فرط مطاردة كل منها للآخر، وسعيها العبثي، غالباً، إلى ملاحقة أو إيقاف ذلك اللحن المراوغ الذي، ككل الأشياء الأخرى على هذه الأرض، كان يأبى أن يقف إلى صفنا.

كانت الفتيات يطللن من الشرفات التي يضيئها نور القمر على إيقاع أغنية «*Begin' the beguin*»[2]. كن ينزلن ليتأبطن أذرعنا، ثم يمشين بجوارنا بمحاذاة نهر «تريزينارو» أو «ليفينزا» بينما يمسكن بأذرعهن بمقود دراجة من الضباب. تراهن وقد تقوسن كشجيرات صغيرة ليتلقين القبلات، بينما ينضح ثغرهن بمذاق ترابي لأحمر الشفاه، ويفوح من النهدين عبق السفرجل المقشر الطازج. لم نرهن ولم نسمع أصواتهن تمتزج بحفيف الليل أسفل شجر الدلب قط في ما بعد، فلقد منحتنا إياهن الحرب، والحرب نفسها أبعدتهن عنا، هناك في ما وراء الجبال والبحار. لعلهن لقين حتفهن، أو صرنَ أعداء لنا، أو لعلهن نسيننا! وها

---

(1) هي معزوفات على البيانو للمؤلف «موتسيو كليمينتي». (المترجم)

(2) أغنية تعود إلى الأربعينيات من القرن الماضي. (الكاتب)

نحن قد أمسينا هنا بمفردنا، تحت ستراتنا، حيث يجثم شيء كريه قذر ووصمة عار ينبغي علينا مواراتهما.

كنا قد خلفنا الحرب وراء ظهورنا، لكن آثار شريط البزة العسكري لا تزال واضحة على السترة، وكان المذاق الحامض للبارود لا يزال يلتصق بأنوفنا وبأيدينا التي قد تكون ضغطت على الزناد وربما قتلت أيضاً. والآن ها نحن نتساءل: لِمَ؟ ومع لهاثنا الشديد والمُطرد، وأنفاسنا الخانقة لأفواهنا، فإن كل الكلِمات العظيمة التي كنا نسمعها فقدت بريقها لتبدو زيفاً لائقاً بالرجال، وحتى كلمتا الحرية والحقيقة. لم يتبق من تلك الأيام الكثيرة المترعة بالنشوة، وبالسباقات المرحة فوق جبال «الأبنين»، بوشاح ملون حول الرقبة، وبأسمائنا الخيالية المستلهَمة من الروايات سوى حفنة من الشخابيط، ورسوم تعبر عن البشاعة أو الحب: صفير الاتفاق، ودخان الغسق المتصاعد من مدخنة بيت ريفي، وحشرجة مسدس يواجهنا في درب لا مفر منه... بيد أن الرائحة العفنة المنبعثة من المدينة المقصوفة، ومن ثغرها الأسود، ومن عورتها المكشوفة أثناء موتها كانت تهيمن بقسوة شديدة على الفضاء، وعلى كل شيء عداها، وعلى كل شعور بالأسف أو بالانتصار باق في الذاكرة. إنها الرائحة العفنة نفسها التي كنا نشعر بها آنذاك تفوح من وسائدنا. فثمة حرب أخرى كان علينا خوضها لمواجهة «قوطيين» آخرين أكثر بأساً وأشد فتكاً. فماذا يهمنا إن كان العالم، في مكان آخر، قد عاد ليصبح عمره عشرين ربيعاً مجدداً، وليهمس بكلمات رائعة بمحاذاة الأنهار، وفوق الشرفات التي يضيئها القمر؟ أما نحن، فلكي نمتلك امرأة، كان

علينا الانتظار ريثما تثبت التحاليل، لثلاث مرات متتالية، شفاءنا التام من الداء، وأن نُمنح شهادة بحسن السير والسلوك، وأن ترتضي حواسنا المخاطرة وذلك الشعور بالنفور من خوض علاقة مدفوعة الثمن، وأن... وأن...

كان علينا النزول بين الناس، هناك في الأسفل، في المدينة، حاملين على ظهورنا أسمال أجسامنا البالية، تلك الكومة الضئيلة من اللهاث والدماء، هناك بين أصحاء الطريق الأقوياء النظفاء الخالدين... وأن نحدق في واجهات المحلات، وأن نشاهد في كل ركن فيها أشباحنا الهزيلة، وأن نشعر بالعرفان لأن أحداً لم ينتبه لنا أو يلتفت نحونا. ها أنا ذا في معسكر الأعداء، وقد تنكرت مرتدياً لباس الأحياء، وقد صرت حصيناً منيعاً كأي فرد منهم. أرى فتيات كثيرات يمشين معاً، تتأبط كل منهن ذراع الأخرى، بينما يعثن بابتسامات متكررة. يرتدين أحذية بكعوب عالية على سيقان من النحاس المصقول، ويضعن مشبكاً للشعر ودبوساً على هيئة سيف فضي. كيف ينظرن أمامهن دون أن يرينني، وكيف تفتح كل منهن ساقيها وتضمهما مع كل خطوة تخطوها! كم سيكون جميلاً، بينما أنا أقف في خضم الزحام، أن أنتقي إحداهن بينما تتوارى مبتعدة، فأطلق عليها اسماً لأناديها في غيابها، وأن أتخيل أننا عاشقان نجلس على حافة أحد الأنهار: «تريزينارو» أو «ليفينزا»... أداعب ثنايا وجنتيها، وأقول لها: «سنلتقي غداً، اتفقنا! غداً، الساعة السادسة، أمام مقهى «الرواق»، في مواجهة سينما «أوديون». إلى اللقاء يا «سيستا». إلى اللقاء يا «سيلفيا». ثم ها هي تهلّ، يصاحبها

رنين بعض الحلي الذهبية الزائفة، بخطوات فتاة غجرية، ساحرة صغيرة وجريئة. يغطي وجهها نمش يجعل قلبك يرق لها، وتتلون شفتاها بلون فاقع، ترتدي قبعة مائلة، وتحمل حقيبة يد بحزام معلق على كتفيها. تروق لها الأسرار التي أهمس بها في أذنيها، والنبوءات، والكلمات الساخطة والأكاذيب. لا تريد أن ترى فيّ شيئاً آخر سوى شريك متواطئ معها في التآمر والمرح. تتذكر الأعياد الأكثر تفاهة، والنوادر المرتجلة وغير المكتملة. ترميني باتهامات لا أساس لها من الصحة حتى تعفو عنها عقب لحظة واحدة فقط. تهديني قرنفلة ملفوفة في ورق من الألومينيوم، وعلبة سجائر «الثلاث نجوم» وديواناً شعرياً سخيفاً عنوانه: (*Toi et moi*)[1]. ها هي فتاتي، أُنظروا إليها! إنها تعبر الطريق بينما الإشارة حمراء...».

كان الحال ينتهي بنا في حي الميناء إلى البحث عن أي امرأة حقيقية بشحمها ولحمها. كان الأمر بحاجة إلى هذا من حين إلى آخر، ولقد كانت تلك أيضاً نصيحة «الماغرو العظيم». ولكن صعود بعض درجات السلم، والخدر الشديد في ذراعي الذي كان يحيط بخصرها كانا كافيين لإنهاكي. فمن كان بوسعه التحرك كما ينبغي مع ذلك القدر الضئيل من الأكسجين المتبقي برئتيّ! حينئذ كنت أقول لها: «هل لي أن أعطيك مبلغا إضافياً وتتولين أنت العمل بأكمله...؟». كنت أشعر بجسمها الأشعر، والمغطى بالشامات يتضخم فوقي. إلى أن ذابت مطراً من العسل واللهيب.

(1) «أنت وأنا» ديوان الفرنسي «بول جيرالدي». (الكاتب)

في ما بعد، وبينما كانت تغتسل بفظاظة في أحد الأركان، كان يطيب لي الرقاد قليلاً خاوياً نازفاً كقتيل فوق الغطاء العسكري الممدد على الفراش (لكي أتجنب نظافته المشكوك فيها)، والتحديق في السقف محاولاً أن أستقرئ في أحد الشقوق، أو في الجص، الكمائن التي كانت ستتوعد مصيري في المستقبل.

حين عودتي كنت سأقصّ كل شيء على كل رفاقي المتزاحمين والمكدسين فوق الفراش نفسه، وكنت سأجيب ضاحكاً عن أسئلتهم التي تليق حقاً بتلامذة مبتدئين. ولعلي كنت سأكذب قليلاً عليهم أيضاً. كنت سأقول لهم: «لقد كانت رائعة الجمال. لقد صرختْ وتأوهتْ، ولم تكن تتظاهر بهذا. يا لها من امرأة! فلتذهبوا إليها أنتم أيضاً يا رفاق!!».

صرت صديقاً للأب «فيتوريو»، القس العسكري عقب مرور زمن طويل على إقامتي، برغم أننا كنا نتقاسم عادة الخروج في ساعة مبكرة من الصباح للجلوس في الشرفة لاستنشاق أكبر قدر ممكن من الهواء المنعش، على الأقل، إلى أن تحل النسمات الباردة والقاتلة للخريف فتنهانا عن ذلك. ولأكثر من مرة وقعت عين كل منا على رفيقه الآخر بينما كان يحاول من بعيد قراءة عناوين الكتب التي كان كلانا يحملها بثلاثة أصابع فقط وتبرز خارج الصدرية الثقيلة التي كانت تغطي جسدينا. ثم، في ما بعد، دأب كل منا على تحريك مقعد الراحة الخاص به، قليلاً قليلاً، يوماً بعد يوم، (الأمر الغريب أن مقعده كان من النوع الهزاز المخالف لقواعد المشفى) وكأن كِلَينا كان يتعمد ذلك، وكأن بيننا توافقاً بريئاً يدفع أعيننا إلى الضحك لوهلة ما أن نلتقي. انتهى بنا الأمر في صباح أحد الأيام فوجد كل منا نفسه بجوار رفيقه في مواجهة أول شعاع شمس، ودون أن يكون لدينا أي عذر يمنعنا من التحدث وترديد الجملة ذاتها في الوقت ذاته: «ما اسمك؟».

ومن الغريب حقاً أنه رغم معرفتنا الوطيدة، والأوقات الكثيرة التي جمعتنا معاً، إلاّ أني لا أذكر شيئاً عنه سوى قدر قليل وغامض من قسمات وجهه، وكأنها قسمات «يسوع» المطبوعة على كفنه المقدس، وبقعة الظل التي كان يخلّفها وراءه حينما كان يمر بيني وبين ضوء الشمس، وجسده الصلب حين كان يخلّص نفسه من غطائه الصوفي

الملون، فيتجه ناحيتي، وينحني فوقي، ويشد بصخب على يديّ. أما الأمر الأكثر غرابة فهو أن لقاءنا في مكان مثل المشفى، حيث الموت لا يتأخر لحظة ولا يجامل أحداً، قد سلك طريقاً متعرجاً حذراً، وكأن كلينا كان يخشى ويرغب، في الوقت ذاته، في أن يعثر في الآخر على حليف ومنافس بحاجة إليه وبدونه لم يكن للمباراة المقدّرة بيننا أن تُلعب.

فحياتنا، بلا شك، تشبه لعبة «اليانصيب»، التي عادة ما تتوقف جراء بعض العثرات، أو عقب سحب أرقام لم يخترها أحد. فلا أحد يتعرف قط على المرء الذي ينشد التعرف عليه، بل مَن نحن مرغمون على معرفته أو من نلتقيه مصادفة في طريقنا، وفق مزاج ورغبة يد ماكرة تمزجنا معاً، فتقربنا، وتفرقنا، وتعقد وتمحو مواعيد لقاءاتنا على مدار آلاف السنين. ولما كنت قد عدتُ منذ سنين عدة إلى ما كنت عليه في مراهقتي من جحود غير حاسم بوجود المسيح، فقد أعدت، عقب ذلك اللقاء غير المتوقع الذي حدث مصادفة وخارج أي حسابات معقولة محتملة، أعدتُ التفكير في الأمر للمرة الأولى والأخيرة في حياتي بهدوء وفزع. إلى أن أتى اليوم الذي فارق فيه صديقي القس الحياة، ووجدتُ نفسي في اللحظة ذاتها جافاً خاوياً كوعاء، فاكتشفت ساعتها أن مسيحيتي لم تكن أكثر من مجرد حَمْل كاذب دام ثلاثة أشهر فقط. أو لعل الأمر كان مجرد شغف فقط بالاستماع إلى ذلك القس الشاب الملتحي والمثير للشجون، وهو على بُعد نصف متر مني فقط، بينما كان يحكي لي عن معاناتنا وموتنا وكأنها معاناة «يسوع» وصلبه.

تُرى كيف انتهى به المطاف هنا بيننا، بينما كان بوسعه أن يطلب

الاستشفاء في مصحة خاصة برجال الدين يُقال إن الفاتيكان يملكها في أحواز منطقة «ترينتو»، أو في مشفى للأغنياء على مقربة من بيته (فقد كان ابناً وحيداً لعائلة تمتلك قصوراً وسفناً). لعله أراد أن يهبط إلى الجنوب إلى جبال «مادونية» دون أن يكون عليه أن يخشى من كشف جراحه، التي كانت تنتشر مهرولة بداخله، والتي قد يكون هو من جلبها لنفسه، على الضوء الوهّاج الدنيوي العلماني والمتمرد للجزيرة. تساءلت ملياً عن السبب وراء هذا، سيما وأن الطقس القاسي للجزيرة كان يضعف من القدرة على مقاومة المرض. فلمَ إذن؟ أكان ينشد إتمام جولته في الجنوب الإيطالي، والتي حلم بها طويلاً حينما كان راهباً شاباً في أحد الأديرة البائسة في منطقة «فينيتو» ببوابته ذات رؤوس الرماح المسنّنة؟ أكان يريد أن ينأى بنفسه وحيداً، مثله مثل المنبوذين من جماعتنا، بعيداً عمن يشعر بالعطف نحوه ويذرف الدمع من أجله، عند لحظة الرحيل النهائي، في ختام مباراة الملاكمة الحاسمة مع أحد الملائكة؟

لعله هو نفسه لم يكن يعرف سبباً لمجيئه، رغم أنه ألمح في إحدى المرات بصوت مرتبك إلى نذْر كان عليه الوفاء به حتى وإن كان محتجزاً في الحجر الصحي. وحتى يفي بنذره ذاك، يبدو أنه كان بحاجة إلى أن يأتي أرضاً يملأها الطمي والزيتون، مملكة «يهوذا» أخرى يغطيها الشوك وتعمها المصائب، كبعض الوديان الضيقة هنا حيث ريح صرصر تعصف عصفاً.

لكنها كانت مجرد خيالات وأوهام قالها لكي يملأ بها فمه في المساء.

حينها اكتشفت أنني عثرت على أخ لي يعيش هو أيضاً وهم الرغبة في إضفاء مغزى ذي قيمة على مأساة كل منا. إنها الخدعة نفسها التي من أجلها كنت أقدم سعف النخل في مقابل مسامير الصليب موهماً نفسي بأن الكبرياء وحده كاف ليتحول ذلك العقاب المخزي إلى نعمة إلهية. كنت أنا والأب «فيتوريو» أخوين، ملاكاً وشيطاناً، طيلة الوقت الذي كنا نتصارع فيه معاً، أفوز طوراً ويفوز تارة، فيحاول هو أن يقنعني بحقيقة الرسالة السماوية، وأجتهد أنا، قدر استطاعتي، بكافة الطرق، في زعزعة يقينه وإيمانه.

أُدرك الآن أنه كان نِزالاً بين كفيفين، بين سَيفين ضريرين، يطارد كل منهما الآخر فوق خشبة المسرح، ويتبارزان بعنف شديد ولكن دون إلحاق أي أذى بغريمه. كان كلانا يستقي من الفوضى العارمة المحيطة به، من ستائر وأتربة وحطام، نشوةً مضطربةً، لنكتشف، في نهاية الأمر، أننا لم نكن نتبادل الطعنات بل العدوى. أجل، لقد انتشرت عدوى بيننا، وبين متاريسنا المتوازية والمتناصبة العداء. لهذا، ففي الوقت الذي رحت أتعرض فيه لقصف نيران آماله، أخذتْ ريبتي وشكوكي تتسرب مني، ومعها خوفي، لتدسّ وتبثّ في جسده الكثيف الرابض بجواري قيحاً شديداً، لم يكن حتى لأشعة «فاسكيز» نفسها الكشف عنه. لم ألحظ هذا تماماً حينما كان على قيد الحياة، حتى وقعت يدي مصادفة على دفتر مذكراته المكتوبة بالقلم الرصاص، والتي كان كل سطر فيها يبوح بخيبة أمله في الحب الإلهي، ويكشف عن ندبات جراء حريق وسقوط.

يا له من طريق طويل ذاك الذي قطعه من بلدته «تشيفيدالية» إلى

«روكا» حتى يضل الخاتمة السعيدة لطريقه، وليجدوه في فجر أحد الأيام مستلقياً على مقعده الهزاز، وقد أدت تقلصات أطرافه خلال سكرات الموت إلى مواصلة هزه الخفيف لفترة، بينما يده قابضة بشدة على سيجارة منطفئة، وأسنانه مطبقة بقوة على وسادة مسند الرأس للمقعد.

أخبرني رفيق لي في الجناح أنه كان كثيراً ما رآه في الفترات الأخيرة وهو يستيقظ قبل أن يلوح النهار، وأنه تعقّبه خلسة ذات مرة، وشاهده عبر مصراعي الباب يقيم قدّاس الشكر بمفرده في كنيسة المستشفى مرتدياً وشاحاً من الصوف وَرِداء أحمر. لم يكن قدّاسه ذلك محاولة للرد عليّ بقدر ما هو ردّ على تلك الشياطين القابعة بداخله. وها هي بعض كلماته المدونة على هامش أحد كتب الأدعية والصلوات تؤكد على هذا، حسب تفسيري الشخصي، ومع حرصي الشديد على الدقة في نقل كلماته وكأني وريثه:

ما من شيء لا أستطيع غفرانه. إن الكثير من الإغواءات تتسلل إلينا من هذه الفكرة. أأنا بذلك أكثر رحمة من الرب؟

ليست لي أيام راحة، وأيامي تسيل وتذوب مع ألوان الأنهار والأحلام، بين أسوار حديدية وفي صمت عجيب. يا ليت نفير الموت يزعق ولو لمرة واحدة، أو تحل الهزيمة الصارخة. لكنني أخشى أن يتردد دويّ صوتي في فضاء غير مكترث، فلا صديق يجمع أوراقي أو يقبل التحدي. إني دوماً سجين الحرص الشديد الذي يجعلني أعكف طويلاً

على دراسة دقائق الزمن دون أن تكون لدي الجرأة أبداً لأن أعيشها بغتة وارتجالاً.

أيما أفعل وأينما أمضي ثمة خاطر مّا يشعرني بالراحة: إنني إنسان مُسيَّر ولذا فأنا بريء.

إن الإنسان اخترع الإثم لكي يستحق عناء الحياة، ولكيلا يُعاقب دون سبب.

أهذا مشروع أسطورة أم بقايا حلم: أهبط في محطة قطار لمدينة لا أعرف لغتها. أرى أطفالاً يقبضون بأياديهم على سكاكين، ثم فجأة ينفجرون ضاحكين.

حين أذهب إلى المدينة بمفردي أرى شبحاً يرتدي معطفاً يلاحقني.

إنني كالأعمى في ذلك المثل: أعمى يبحث عن مظروف أسود في غرفة سوداء لا مظروف فيها.

عليك أن تعتاد النظر إلى الحياة وكأنها شيء يخص الآخرين: لقد سرقتها على سبيل المزاح، وعليك ردها في الصباح. عليك أن تقتنع أنها ليست إلا مغامرة خطيرة لأناس لا يخشون شيئاً، وأن الموت هو الوسيلة الأسمى والأسلم لتجنب عواقبها.

الموت: أهو ذهاب إلى المنفى؟ أم عودة إلى الوطن؟

إن الموت... أشبه بمسمار ينغرس في قطعة من الخشب عبر ضربات صغيرة بالمطرقة.

إن العقاب هو أن نفترق عند منتصف الطريق بعد أن نكون قد قطعنا شوطاً وجيزاً مع أنفسنا، وبنا فضول لمعرفة البقية (فلو وُجد سيناريو

آخر مكتمل في مكان آخر...).

عليّ أن أردد لمئة مرة كل صباح (على سبيل التنسك والواجب) عنوان عظتي خلال إحدى الحلقات الدراسية («عظة قدّاس موت الأسقف «بوسويه» كما كان سيكتبها هو لنفسه[1]»): «إن الموت حطّابٌ، لكن الغابة خالدة».

إحدى بكتيريا «كوخ» قد أخذت مكانها فوق شفتي «أديلمو»، وقد رأى الرب أن هذا كان أمراً جيداً.

كم صار قلبي يختلف عني! لقد بات ينتمي إلى شخص آخر لا أعرفه ذي شخصية بائسة، اغتصب مني ذكرياتي، وها أنا أقاوم غزوه لي باكياً، وقائلاً كلاّ.

غالباً ما أستيقظ، ولوهلة لا أدرك من أكون. أهكذا سيكون الموت؟ أن نلاحق طيلة الليل أنفسنا التي تفر أمامنا، وأن نبحث بداخلها عن اسم نُسي دون أن نعثر عليه.

أيها الرب! إن شح الليل وخصبه وكل الأشياء تلاشت، وطابت جروح الألوان والأصوات. لا شيء أمام عيني سوى حمم وجهك واضطرابه، والعمى المتقد لاسمك.

بينما أغفو، ثمة أسماء من زمن الطفولة في «فريولي» تزفر صوتاً فوق رِق الذاكرة: اسم بلد أو عاهرة أو نجم...

كيف سيصير حالي، وكيف سيكون ذلك اليوم الممطر لعام 1939،

---

(1) «بوسويه» لاهوتي وواعظ كاثوليكي فرنسي من القرن السابع عشر له عظات جنائزية مشهورة. (الكاتب)

في سماء الرب ذات الملائكة المنهكة؟

من النعمة إلى النقمة حافياً وكأننا في حلم.

إن النبيذ الأسود للقداس نبيذ قوي من بلدة «سالاباروتا» يعطونني إياه في المطبخ. إنه نبيذ كثيف القوام ذو تأثير فوري من عروق إله السراسنة. أُدركُ هذا في غرفة المقدسات حين أتقيّأ بين طرفي المنديل عقب نوبة سعال.

في صباح هذا اليوم، على حين غرة، رفرفت أجنحة طائر «القبّرة» في القلب. كان الأمر أشبه بنبوءة لخلاص لم يكن في الحسبان.

إن الصلاة عادة خفية أخرى.

لقد ارتكبها جندي على سبيل الخطأ، ومر الأمر بسلام. لكن لو حدث وقام هارب من الخدمة العسكرية، أو قناص غير نظامي وأطلق الرصاص على جبين رئيس الشرطة، فماذا سيكون الأمر؟

إن الرب أعظم مُلطِّف للكلمات القاسية.

أيها الملاك المجنّح الشرير، إن تحليقك لأخرق وخيم، وضربات منقارك تطرق على صدري.

ها أنا في غرفتي ليلاً، يدِي تضغط على زرّ الإضاءة، ألعب لعبة «لقد قال الرب للنور كن، فكان». إني أتقمص دور الرب: أُطفئ النور ثم أضيئه مجدداً، ثم أطفئه ثانية، لأعيد إضاءته مرة أخرى، إلى أن يحترق المصباح في هدوء.

لقد شممتُ رائحة الموت في الحلم، ويا لها من رائحة كريهة كرائحة قمامة المطبخ التي ينبغي أن تغسل يديك منها باستمرار.

ها أنا أتطلع إلى بعوضتين تتطارحان الغرام فوق كفّي اليسرى. أرفع كفي اليمنى، شيئاً فشيئاً، ثم أهوي بها، وأُهزهما فجأة. يؤسفني أني لم أصب هدفي.

لديّ شك مفزع حول صلب المسيح: أأتى ليخلّص نفسه قبل أن يخلّصنا! (عليّ التحدث عن هذا مع رؤسائي).

ماذا لو كنا نحن خطيئة الرب الأصلية، الذنب الذي اقترفه، التفاحة التي لم يكن عليه أكلها؟

ليس هناك شيء اسمه الميتة الطبيعية: فكل ميتة هي جريمة قتل. إن لم تصرخ أثناء موتك فمعنى هذا أنك راض عنه.

أهبط إلى القاعة لأتلقى اعترافات الفقراء والعجائز. لا أفهم لغتهم المحلية الصعبة، ولكني أمنحهم التوبة والبركة دون أدنى فرق بالطبع. أيها الفقراء، يا ضواري الربّ في البرية!

أهذه هي الفائدة العظيمة للأمراض التي تضرّعتُ للرب لنيلها؟ أجل ها هي الدموع! ولكنها دموع غضب وضغينة، سباب ولعنات شاملة وعن قناعة، واستمناء فظ أسفل غطاء الفراش[1].

ها هي امرأة أخرى تمتطيني في الحلم. إنه اعتداء مهلك ومقدس، لهيب لا يخمد.

إن كان علي أن أصدق حارس السجن، فيكفيني إذن رباط حذاء لأشنق نفسي[2].

---

(1) هذه الجملة تحاول أن تعارض خاطرة من خواطر الفيلسوف الفرنسي «بليز باسكال». «الكاتب».

(2) يلمح القس إلى احتمال غامض بأن ينتحر بشنق نفسه برباط حذاء. (الكاتب)

ها هو نفير غمرك يزعق يا إلهي[1].
فلتظهر للعلن يا من ترقبني خلسة.

(1) جملة مقتبسة من الآية رقم 7 للمزمور رقم 42 ونصها الكامل الصحيح «غمر ينادي غمرا عند صوت ميازيبك. كل تياراتك ولججك طمت علي». (المترجم)

-6-

كان يطيب لي مقارنة عزلتنا هنا في «روكا» والحياة في خلوة ووحدة في أماكن أخرى مثل سجن «لوتشاردونوي»، أو جبل «أثوس»، أو قلعة «روتشيلا»[1]... ولم تكن قلعة «أتلنتيس» ببعيدة عن ذهني[2]، ففي ذلك المكان بالذات كانت لي لقاءات عابرة مع بعض من الناس ومن بينهم «مارتا».

حدث هذا في يوم عيد القديسة «روزاليا» الذي صادف يوم خروجي نصف الشهري لإمدادي بالهواء، الذي يسمونه أيضاً بالاسترواح الصدري، والمعروف بـ «*PNX*» الذي كان يُعد شعاراً للأمل بالنسبة إلينا. كان المريض يُحقن بالهواء أسفل الإبط عبر حقنة تشبه الخنجر بهدف ضغط الرئة، والسماح للأغشية وجروحها بالالتئام ذاتياً. عقب العملية كان على المريض أن يلزم الفراش، وألا يتحرك بتاتاً. بيد أن حفلاً فخماً في ذلك المساء كان سيُعقد في قاعة المصحة، وكانت فقرات برنامج الحفل مفاجأة لنا، وكان سيشارك فيه بالتمثيل مجموعة من المرضى. أما «الماغرو العظيم» فكان هو المُخرِج الأوحد، وعامل الديكور، والحارس الرابض على باب الدخول. فبمجرد دخولي إلى

(1) «لوتشاردونوي» هو سجن مدينة باليرمو الواقعة في جزيرة صقلية. أما جبل «أثوس» فهو جبل مقدس يقع في شمال اليونان ويقطنه رهبان مسيحيون أرثوذكس. (المترجم)

(2) قلعة «أتلنتيس» هي القلعة المسحورة التي ذُكرت في الملحمة الرومانسية الإيطالية «أورلاندو فوريوزو» أو «أورلاندو الهائج» والتي كتبها الشاعر «لودوفيكو أريوستو» ونُشرت في عام 1532م. (الكاتب)

المصحة، اكتشفت أن «الماغرو» في الحقيقة لم يكن فقط حبْر الكنيسة القوي الذي كان علينا كل صباح أن نتلقى البركة أو التناول من شفتيه الشبيهتين بشفتي الأرنب، ومن يديه القابضتين على السماعة الطبية والصولجان؛ بل كان المسؤول في الأعياد عن إثارة المرح، وجلب معدات الإضاءة، ولوحات الديكور، وتماثيل مولد المسيح، والألغاز الساخرة.

لم يكن هناك فرق لنا بين ترفيه وآخر؛ أما بالنسبة إليه فالأمر كان جد مختلف. كان بمثابة انتصار متأخر لهواية يعشقها، ومن أجلها كان لا يتردد في أن يتجاهل مرضاه، إلا إذا أتوا لتلقي العلاج في كوخ البروفات القائم في الحديقة وسط نباتات الخبازي، وقد تنكروا على هيئة آلهة أو فرسان. لم أكن أشارك في العرض، فقد كنت نزيلاً جديداً في المصحة. غير أني، في المرة القادمة، لم أكن أنوي التخلف عن المشاركة وإن اضطرني الأمر إلى أن أقبل بتمثيل دور عرّاف أو حتى مهرّج. كان «الماغرو» قد أدرك ما يدور بخلدي، وأن انتظار الموت لشيء سقيم كأشياء أخرى كثيرة، بل إن ذلك الانتظار كان بحاجة إلى مراسم واحتفالات أكثر مما يحتاجه الموت ذاته. لذا، وكعادته، راح يطلق الوعود تلو الوعود: سيكون هناك عرض مماثل في رأس السنة، وآخر في الكرنفال، وفي عيد الفصح، والصيف القادم، إن بقي لي في العمر بقية. وحسب ما قال، فقد كان يفكر في عمل مّا من المسرح التراجيدي الكلاسيكي (كان يحب الأعمال الكلاسيكية فقط) كان سيعيد صياغته في أشعار هزلية ساخرة ليتحدث عنا بشكل غير مباشر:

لعله «ألكيستيس»[1]، أو «فيلوكتيتس»[2]، بحيث يرتدي فيه الممثلون القبعات، وتشهد أحداثه مفاجآت، والتباسات، وإلقاء كعكة بالقشدة على وجه «ثاناتوس» ذي العينين الفحميتين[3].

ونظرا لثقافتي الأدبية، فقد كان علي أن أضفي على هذه المسرحية بعضاً من التشويق، وأن أساعد «الماغرو» في اختياره للممثلين المناسبين للعرض وفي تدريبهم.

ورغم ما كانت تنطوي عليه هذه الفكرة من صبيانية، وصلف، وخبث من جانبه، فإني لم أُبدِ أي اعتراض بتاتاً. فلعله كان يبتغي السخرية مني، أو الشماتة في قليلاً، ثم بعدها كان سيبدي القليل من الندم الرفيع كنصْل السكين. ففي نهاية الأمر، ماذا كان يشغل بالي؟ ولكي أقول الصدق، فقد كان ثمة سبب آخر وراء موافقتي على تلك المهمة، دفعني إليه ذلك الثعلب الماكر والثرثار الرابض بداخلي. فقد كان الإعداد للعرض سيتيح لي الفرصة للاختلاط بالنساء، وكان وسيلة سأتقرب بها إلى هؤلاء الفتيات الغامضات القابعات في الجناح الجنوبي. كنت سأتمكن بثرثرتي من إغواء إحداهن، فأشبع رغبة دمي، مريض مع مريضة، وأدّخر على نفسي عناء الشعور بالندم، وذلك المذاق الترابي اللذيْن كانت تخلفهما على شفتي زيارتي كل يوم أحد إلى قلب المدينة. ختاماً، لم يكن، بأي حال من الأحوال، بوسعي التخلف عن تلك الحفلة

---

(1) «ألكيستيس» مأساة ألفها الشاعر المسرحي الإغريقي «يوربيديس». (المترجم)

(2) مسرحية للكاتب التراجيدي الإغريقي «سوفوكليس».

(3) في الأساطير الإغريقية «ثاناتوس» هو ابن إلهة الليل «إيريبوس» وكان يجسد الموت. (المترجم)

طالما كنت أرغب في أن أرقب خلسة، ودون نية في إصدار أحكام، الممثلات المسرحيات اللائي كنت سأحتاج إليهن في المستقبل لإشباع رغبتي المزدوجة. تسللتُ هابطا من الفراش، ارتديتُ ثيابي، وبلغتُ سريعا القاعة.

حينما دخلت، كان العرض قد بدأ. رحت ألتمس طريقي دون أن أرى فتحة الدخول بين الستائر المخملية القرمزية، التي كانت تتدلى من عضادة الباب وكأنها غطاء لنعش. ما إن دلفت، حتى داهمتني كلمات «روميو»، التي كانت تترامى في الهواء عبر صوت له لهجة مدينة «تراباني». كانت ركبتا العاشق النحيف تفترشان تراب خشبة المسرح، بينما يبدو أن سرواله، الذي كان قد تبرع به مدير مسرح «بوليتياما» بـ«باليرمو»، كانت قد ارتدته في زمن آخر سيقان أكثر اكتنازاً:

«كانت بشيرة الصباح، القبّرة - لا ليس ذاك بلبلاً! هيا انظري يا حبيبتي: تلك الخيوط من نور النهار من غرامنا تغار، بل إنها قد طرَّزت أطراف مدن الشرق كي تفرق الأحبة. لا بد أن أنجو بنفسي، أو أموت لو بقيت!»[1].

أدركت ببعض الضجر بصمات أصابع «الماغرو» في فرضِهِ على ممثّل ريفي هاو دوراً بهذا الحجم وبتلك الرومانسية حتى يجعله مثاراً للضحك وللتهكم بينما هو جالس بعيداً في الظلام على مقعده. بيد أني كنت، على كل حال راضياً عن الألم الذي كان يرتسم على وجوه الجميع

(1) مقطع من المشهد الخامس في الفصل الثالث لمسرحية «روميو وجولييت» لـ«شكسبير»، ترجمة: محمد عناني، ص: 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب. (المترجم)

بينما تشخص أبصارهم نحو خشبة المسرح، وكأنها منبر على وشك أن تهبط عليه الحقيقة، أو ربما بُرْغُم الخلاص والنجاة للجميع. ندى صوت له نبرات قوية لشابة ذات لهجة شمالية غير متوقعة تجيب على الممثل الأول: «أهكذا رحلت أيها الحبيب؟ يا سيدي وعاشقي وزوجي!»[1]. أعقبتْ هذه كلمات أخرى، كانت تبدو مرتجلة ودون ترابط أو اتساق في ما بينها سوى أنها كانت تتحدث عن الحب، وكانت تخرج من شفتيها بإغواء شديد، وعلى تباعد تلك الكلمات فقد كانت تبث في ما حولها عبقاً جنسياً صارخاً.

تقدّمتُ حتى بلغت مقعداً في الصف الأول بجوار «الماغرو» كان قد حجزه لي مخالفاً قراراته الطبية (ضحكتُ في نفسي، فقد كان يشبه الطبيب «كوتارد»[2]، وها هو الواقع يحاكي الفن!). جلست في الوقت المناسب لأشارك الآخرين تصفيقهم، ولكي ألمح هناك في الأعلى ما يشبه ابتسامة مختنقة على وجه صارم لفتاة تنحني شاكرة، كعصفور مبلل يتلألأ تحت شمس تطل علينا خلسة من بين كتل الغيم الكثيفة. «مَن تكون؟» سألت مضيفي دون أن أتلقّى رداً أكثر من مقطعين من الحروف «مارتا»، ممزوجين بزفير قاس سرعان ما تلاشى في خضم هدير التصفيق الذي عاد من جديد ليعْقُب الإعلان عن الفقرة التالية في العرض. كانت

---

(1) مقطع من المشهد الخامس في الفصل الثالث لمسرحية «روميو وجولييت» لـ«شكسبير»، ترجمة: محمد عناني، ص: 199. (المترجم)

(2) «كوتارد» هو اسم الطبيب في سلسلة روايات «البحث عن الزمن الضائع» للكاتب الفرنسي «مارسيل بروست». وكان الطبيب في الروايات يتعامل بنفس الطريقة مع مريضه «مارسيل». (الكاتب)

«مارتا» – أو بالأحرى «مارتا بلوندو» – كما كان مكتوباً في البرنامج المعلّق في القاعة، الذي أعطاني إياه في ما بعد الطبيب العجوز حينما أُضيئت الأنوار في الاستراحة، مما أتاح لي الالتفات إلى الخلف لرؤية شعب «روكا»، وقد احتشد بأسره في ساحة المعركة، أمام ستارٍ مسدلٍ، بوجوه تلمع من أثر الحمى، أو بلا شك من السعادة . يا لها من صالة مكتظة بالبيجامات المخططة! لعلنا كنا، نحن أيضاً، ممثلين ولكن من الجهة الأخرى المقابلة، وقد تزيّنت وجناتنا باللون الوردي، وتأهبنا لننشد معاً صلوات الموتى، بينما كان المشاهدون الحقيقيون يرمقوننا في صمت، وقد اختبأوا ربما في صندوق الملقن الذي كان يبدو خاوياً.

فجأة، وسط صمت مطبق، راح شيء يتحرك على خشبة المسرح. كانت الفتاة السابقة مجدداً، ولكن في عرض راقص هذه المرة. لم أكن بوسعي أن أرى منها سوى أجزاء جسدها الصغيرة المتدثرة بألوان كثيرة بينما تضطجع على الأرض وكأنها غلاف لكتاب: لعلها كانت مهرّجة تتظاهر بالموت في ردائها المبهرج. لم تلبث هكذا لفترة طويلة، ومع أول جلبة أحدثتها الآلات الموسيقية من وراء الستار (كانت في الحقيقة أسطوانة، ربما لأوبرا «سيلفيديه»[1]، تطلق موسيقاها في الهواء عبر مكبرات الصوت) هبّت قائمة من الأرض ببطء بحركات متأملة ومنكفئة، بينما تُوجّه أسئلةً بحرص شديد إلى الفراغ. فجأة، بحركة واحدة خاطفة، انتصبت قافزة إلى السقف.

(1) أحد أشهر العروض الراقصة الرومانسية، وقد تم عرضه على المسرح للمرة الأولى في عام 1832م في باريس. (المترجم)

إحساس بالخدر في فروة رأسي نبهني بأننا كنا في بداية نزال حقيقي وجاد -لم أكن أعرف ما هدفه- وسط دوامة مخروطية من هواء منير كانت كشافات الإضاءة تحدثها في الأعلى. كانت حقاً لعبة جادة تنطوي على هدف غامض خبيث لم أكن أعلم عنه شيئاً. حينئذ عمدتُ إلى التركيز على ما كان يحدث، ورأيتُ كيف كانت الراقصة تتحرك بجرأة وصرامة، وتتقافز إلى السماء، مصدرة مع كل وثبة منها هريراً محرضاً. كانت قفزاتها وحركاتها الدائرية الراقصة، والتي كانت أطرافها الضئيلة تجيب بها دون تردد على الحوار الصاخب للموسيقى؛ ووقفاتها التي كانت تمحو بها، فجأة، وبلا داع أحياناً، تلك الكتابة الهوائية الراقصة، تغزل أمامي خيوطاً من التوسل أو السخرية، أياً كان، جعلتني أشعر وكأن نسيج مصيري قد حِيكَ بتلك الخيوط في إزار واحد لا فكاك منه.

كان عليها أثناء إحدى الوقفات أن تظل منتصبة لبرهة وسط المسرح، مما أتاح لي أن أتطلع إليها أخيراً بتمعّن. كان اللون الأحمر الناري يخضّب حنجرتها جراء توهج الدم أسفل جلدها، فراح «الماغرو» الجالس بجواري يحدثني بثقة وبغض: «إنها كالضوء خلف جدار من المرمر. وهكذا تكون ملائكة الساروف»[1]. أجل، كانت حقاً ملاك «ساروف» بخصره النحيل، وبأجنحته النارية، وبعينيه الشبيهتين

(1) الجملة مقتبسة من فردوس الكوميديا الإلهية لـ«دانتي أليغييري» البيت: 24 في الأنشودة رقم: 25. (الكاتب)

«الساروف» أو «السيرافيم» حسب العقيدة المسيحية هو أحد ملائكة المرتبة الأولى والمذكور في سفر إشعيا، ويتم تصويره عادة في رسومات العصور الوسطى على هيئة ملاك بستة أجنحة. (المترجم)

بحصوتين من الأبنوس في وجه مختال أضفت عليه خصلة قصيرة من النور رقة ووداعة.

ولكنها ما لبثت أن استأنفت تحليقها بعيداً بصبر، وكانت تبدو وكأنها تطلب من الجدار إذنا بالانصراف. وجدت نفسي أبحث مندهشاً وراءها عمن كان يُرغِمها على الاستمرار. عاودتْ السقوط مجدداً لفترة أطول هذه المرة. في كل مرة كان الإنهاك يصيبها وتسقط على الأرض لم تكن تنهض ثانية إلا بشقّ الأنفس. كانت راقدة فوق الأرضية، أسفل الضوء الأخضر لكشافات المسرح، بوجه يزداد شحوباً بوضوح، تسحب أنفاساً عميقة، محاوِلة شيئاً فشيئاً، استعادة قواها، ولملمة شتاتها لتهب في التحليق ثانية. أبديتُ امتعاضي هامساً في أذن الطبيب: «إنك قاس كالبهيمة، كيف لك أن تسمح بهذا. ستقضي نحبها».

أغمضتُ عيني حينما هوت، عقب محاولة ثانية فاشلة منها في القفز، على الأرض وكأنها أُلقيت من شرفة عالية. كان جلياً للجميع أن ثمة صدعاً مّا قد حدث، أو خرقاً للقانون قد ارتكبته عند حدود ذلك العالم الافتراضي الذي كانت هي وحدها تدركه. عادت مجددا بأنفاس لاهثة لتستأنف صعودها السماوي، ولكن دون ثقة بالنجاح، فقد انتهى الحال بها وصارت كسحْلية صغيرة شقّتها لنصفين عجلةٌ لإحدى العربات على الطريق. عندئذ هبّت الموسيقى لتمدّ لها يد العون بترنيماتها الأكثر حيوية وتمرداً. انحنت الوتريات وآلات النفخ فوقها وكأنها غريقة، وراحت تزفر في وجهها بنسمات من نغمات وَدُودة،

مزيج مضطرب من الموسيقى الصاخبة. أما هي فرفعت ذراعها وكأنها تحاول تهدئة روع الموسيقى، وللحظات قليلة تجمدت حركتها، ثم عادت لتسترد عافيتها ثانية. جعلتُ أُصلّي، بتعاطف شديد، بيني وبين نفسي من أجلها حتى تنتصر مرة أخرى. ولفرط صدق صلاتي تلك، في ما بعد، كنت متيقناً أنني كنت أنا من أنقذها، وكنت أزهو بذلك في نفسي.

وقفتْ على قدميها دون عناء، وكانت تبدو لنا أكثر ارتفاعاً وأصلب عوداً. وفي لمح البصر رأيناها تعاود القفز إلى الأعلى بالخطى النشيطة للبحارة الراقصين، متلألئة، فائقة الوصف، وكأنها ملاك رسول يهم بالرحيل.

لم تعاود الظهور ثانية، ولم أطق البقاء جالساً هناك لأكثر من هذا. ما لبِثْ أن اشتبكت الدميتان «بوليكاني» و «بووفو دانتونا»[1] في نزال حتى الموت من أجل عيون فتاة جميلة من مدينة «طرابزون»، ورأيتهما يسقطان سوياً، وقد تهشم درعاهما تهشيماً أسفل جميزة مرسومة، حتى نهضت واقفاً لأخرج، رغم أن جاري في المقعد كان يرمقني بنظرات من الضغينة لا أدري سبباً لها. لم يكن من اليسير شَقّ طريقي بين جمهور غفير من المتأخرين المتزاحمين صفوفاً وراء صفوف، بينما على خشبة المسرح كان قد ظَهَر الممرض «بانزيرا» وقد تنكر في دور ملك السحرة المشعوذين، وراح يحرك بين يديه وبسرعة شديدة عدداً من الكرات الصغيرة كنت أرغب بشدة في معرفة عددها.

---

(1) شخصيتان من مسرح العرائس التقليدي لجزيرة صقلية. (الكاتب)

وجدتها في الغرفة الصغيرة المخصصة لتغيير الملابس خلف خشبة المسرح، حيث كانت جالسة في سكينة في أحد الأركان، بجوار مرآة جدارية، وكانت لا تزال ترتدي ثيابها الملونة السابقة، والتي بدونها ما كنت لأتعرف عليها. كانت تبدو لي طفلة بوجهها الذي تملأه نونات لم أرها عليها من قبل، والذي كان يتطلع صوب إضاءة بلون صفار البيض متدلية من السقف. كان وجهاً مختلفاً، بل أكثر جمالاً من ذلك العبوس الشبيه بوجه «ماتا هاري»[1]، الذي كنت أظن أني تبينته من مكاني في الصف الأول - والذي كان أكثر انسجاما مع مشاعري الجياشة البطولية والدرامية التي شعرت بها قبل أن أدخل عندها، ولم أستطع تبديلها بأحاسيس أخرى أكثر بساطة وتلقائية حين توقفت أمامها، وأسندت يدي على كتفها، وقلت لها: ««مارتا»! عليكِ أن تخرجي معي! أمامك القليل من الوقت، بل أمامنا القليل من الوقت، وها نحن في العشرين من العمر».

رفعتْ وجهَهَا، وحسب ما فهمتُ، لم تكن مندهشة أو غاضبة. كانت وكأنها لم تسمعني، وكأن كلماتي قد امتزجت داخلها بكلمات الأغنية المتهادية من خشبة المسرح التي أمامنا، والتي كانت تحكي عن شهر سبتمبر وعن المطر. كلاّ، لم تجبني، ولكن عينيها راحتا تنأيان عني بخطوات كسولة، ابتعدتا، ويبدو أنهما كانتا تبحثان عن شيء في الغرفة دون أن تعثرا عليه. أخيراً أغمضتهما في اللحظة نفسها التي اجتاحها

(1) «ماتا هاري» هي الجاسوسة الهولندية الشهيرة أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد قام الفرنسيون بإعدامها رميا بالرصاص في عام 1917 بعد اتهامها بالتجسس. (المترجم)

فيها سعال شديد جاف كطلقة الرصاص، فطوى جسدها، وشتتها، ولصق بوجهها قناعاً مهترئاً لعجوز شمطاء. وقفت، فرّت بعيداً واضعة منديلا على فمها، غير أنها قبل أن تدفع باب الخروج، التفتت نحوي لبرهة، وابتسمت إليّ بنظرات متسائلة. لم أدرك ساعتها أكانت تريدني أن أُخلصها، أو أن أدعها وشأنها، وألا أفكر فيها ثانية.

بيد أن «الماغرو» كان قد أدركني، فأمسك بذراعي ساحباً إياي معه، وهو يسبني بطريقته هامساً لي بالألمانية: «*Quella, strichten verboten!*» (ممنوع المساس بتلك)، ثم أردف قائلاً: «لا تفتح فاك، يا «ألمافيفا» السام»[1]. لم يضف شيئاً آخر غير بعض الخوار الذي ينم عن رضائه حينما سمع مجدداً، أثناء تجاوزه للردهة، هدير التصفيق الصادر من المسرح، الذي كانت الستائر تخفف من حدة جلبته، مما جعله ينحني، بجسد متصلب كالدمية، مرة أو مرتين، للمصفقين له غير المرئيين.

(1) «ألمافيفا» هو اسم الكونت الذي ينجح بعد صراع مرير في كسب قلب حبيبته في أوبرا «حلاق إشبيلية» للموسيقي الإيطالي «جواكينو روسيني». (الكاتب)

-7-

في مساء اليوم التالي، لم أستطع المقاومة، وطلبت من أصغر رفاقي عمراً، وأكثرهم وقاحة ونزقاً «لويجي» الشهير بـ«السعيد»، أو كما كانوا يطلقون عليه أيضاً «باشا باتراسو» لزهوه المفرط بعلاقاته الغرامية الفاجرة في أحد بيوت الدعارة اليونانية، أن يصطحبني معه خلسة إلى الحديقة عقب منتصف الليل. كان على موعد، ليس الأول من نوعه، مع «أدلينا». كانت شابة نحيفة على وشك الشفاء، ولكن كانت بها شهوة جنسية تؤرق مضجعها، ولم يكن حتى النوم بقادر على أن يطفئ لهيبها. كانا يتلامسان عبر السور الحديدي الفاصل بين الجناحين بقدر ما يستطيعان، ويتبادلان قول الترهات، والبذاءات، ويُعدّان حِيلاً لا حصر لها للخروج معاً من المصحة يوم الأحد. كنت أريد أن أسأل تلك الفتاة أخباراً عن «مارتا»، حداً أدنى من المعلومات التي قد تنتزعها خارج هالة القداسة البتولية تلك، التي كانت تبدو لي بديهية أن تحيط بها أثناء تلك الأمسية الساحرة في المسرح. كان سيغدو بوسعي أيضاً، عبر بعض المعلومات عن عاداتها الملازمة لها، وعن جواربها المهترئة، ورائحة عرَقِها، أن أراها تتنفس بجواري كأي امرأة عادية أخرى من دم ولحم. لم تكن فترة طويلة من مشاعر الانتشاء والحب العذري مثل حالتنا هذه تناسب مطلقاً الزمن القصير المتاح إليّ في الحياة، وقد كنتُ أنا، على العكس، بحاجة فقط إلى جسد ألتهمه فوراً، قبل أن تصل عربتنا المختومة بالرصاص إلى محطتها الختامية. إضافة إلى ذلك، كانت جذوة

طبيعتي تنزع إلى التأجج والخمود سريعاً، وفي كل مرة أتّقد فيها أرقب بنهم، في طيات النار، اللون المستتر للرماد القادم. وفي تلك اللحظة، كان حالي هكذا بالنسبة إلى «مارتا». فبينما كان حبي لها يعزف أولى نغمات إيقاعه البطيء، كنت أشتهيها بداخلي عنيدة تافهة حتى أختلق لنفسي سلفاً أعذاراً وحُججاً للفرار منها غداً.

إلا أن «أدلينا»، وكما لو كانت تقصد ذلك، راحت تخبرني بكل شيء بما في ذلك الأشياء الأكثر سوءاً، وبتلك التي كنت أصبو إليها ولم أكن لأبوح بها. زفرت قائلة عبر الشجيرات المتسلقة على السلك الحديدي: «أتعني الفتاة «بيتاتشي»؟ إنها من أكثر المريضات عفونة، حتى أنهم كفوا عن معالجتها تقريباً، وتركوها تفعل ما تشاء، حتى الرقص، أرأيتها؟». سألتها: «من أين هي؟ كيف جاؤوا بها إلى هنا، في «روكا»؟ ولِمَ تسمونها هكذا؟». أجابت: «لا أعرف تماماً. أما هي، تلك الأميرة المدللة، فإنها لا تكاد تتكلم. يقولون إنها من الشمال، كانت في مشفى «بسوندالو»، لكن المرضى الآخرين لم يكونوا يريدونها. يقولون أيضاً إنها كانت ترقص في مسرح «لاسكالا». ولكنها تبدو لي بالأحرى مغنية في مقهى. ويرددون أشياء أخرى كثيرة عنها...».

ثم بات صوت الفتاة ينخفض تدريجياً إلى درجة الهمس واصطبغ فجأة بنبرة جادة صادقة: «إنهم يتحدثون عن ضابط في قوات النخبة النازية... وعن فيلا على بحيرة، وأشياء أخرى أسوأ. من الواضح أن شعرها نما منذ فترة قليلة فقط بعد أن كانت رأسها حليقة بالكامل...».

في نخبك! فها هي طلباتي كلها، بل وأكثر، قد لُبِّيت. وها هو سبب

ثان لعدم الاقتراب منها، يا له من رقم قياسي! لقد كنت أحمق إذن حين وقعتُ في غرامِها، أنا الذي كنت، حتى البارحة فقط، أشعر نحو أولئك المتعاونين مع الأعداء ببغض صبياني مفرط، مثله مثل حب المراهقين، دون أن يكون لدي أدنى قدر من التسامح أو الشفقة أو الريبة. إذن لم يبقَ لي سوى أن أقول لها كفى، وأن أبتعد عنها. ولكن، كلما ازدادت المشاعر المتناقضة بداخلي جرّاء تلك المعلومات اللعينة، وغدت كأنها ضربة سوط موجعة، أو نسيم بحري مالح لاذع، راح ينمو بداخلي ويترعرع، في اللحظة ذاتها، شغف حقيقي بها. لم يكن بوسعي تصديق أني قد عثرت على طائر فاسق منتوف الريش بدلاً من حورية الغابة التي كنت أتخيلها. وامتزج هكذا بِطيْش الرغبة الشهوانية التي كانت تهيمن علي بعضٌ من الشفقة الواهنة لها. فمن كان بوسعه إذن أن ينتزع من مخيلتي، رغم كل أعذاري، ومقدرتي على التملص، تلك الومضة الخافتة، تلك الابتسامة، إن كانت ابتسامة حقاً، التي لمحتها على شفتيها في اللحظة التي استدارت فيها نحوي؛ وشعرها القصير الحديث النمو، والشبيه بغابة قصيرة، وخطواتها بينما كانت تبتعد عني؟

انصرفتُ، كان الوقت متأخراً. بيد أنني قبل أن أمضي، وبدون أي شعور بالخجل، استسلمت لإغواء «السعيد»، الذي كان يشير بيده وبعينه، في الظلام الدامس، إلى كوة صغيرة في نافذة لا تزال مضاءة أمامنا في الجناح الجنوبي. ولكنني، عبر تلك الفتحة الصغيرة بين أوراق شجر السور، التي زادت الأذرع من اتساعها، لم أكن أستطيع رؤية أكثر من وميض خافت، لا أعرف إن كان للحم أو لثوب، ولكنه كان كافياً

لأشعر مجدداً في أذنيّ بحركة وطنين طاحونة الهواء المعتادة لدمي، مما دفعني إلى أن أتكئ، لبرهة، على رفيقي الذي غرق في الضحك. عقب هذا تركته مع «أديليه» ليستأنفا غرامهما المُنهِك، وعدت أدراجي عبر ممر سري من السلالم والأبواب الاحتياطية، من المغسلة حتى غرفتي، متسللاً عبر ردهات خافتة الإضاءة، وكأني لصّ من لصوص الفنادق الذين يرتدون أحذية من اللباد، ممن تتحدث عنهم الكتب.

منذ تلك اللحظة صار حبي لـ«مارتا» بمثابة الأسطورة في «روكا». كنت أتحدث عنها مع الجميع، دون أن أدري ما دهاني. كانت المريضات ذوات «الأرواب» اللائي ألتقيهن في غرفة الزائرين يسخرن مني، ويحذرنني بأصابعهن. بل إن الطبيب «فاسكيز» أيضاً كان يمزح معي عن الشيء ذاته بينما يخط بقلمه الرصاص دوائره الشبيه بالزنبق الفرنسي فوق قفصي الصدري. وحتى في المرحاض العمومي كانت هناك جملة مكتوبة فوق جداره تسخر مني أيضاً. أما «الماغرو العظيم» فقد كان الوحيد فقط الذي لم يكرّر ترديد ذاك الاسم أمامي قط. بيد أنه أخذ يعاملني بصلف وتكلّف وكأنني زبون. كفّ عن زيارتي إلا لإجراء الفحص الإلزامي كالآخرين، وفي الأوقات المحددة لهذا، تصحبه الراهبات والمساعدون، وكان يرمقني أثناءها بعينين منتفختين وكأنهما متورمتان. كانت كلها إشارات تدل على غيظ وغيرة لم أكن أفهم لهما سبباً في رجل متهكم مثله. لم أنزعج كثيراً لهذا، بيد أني عزوت تصرفه هذا إلى عيب في طبيعته غير المتزنة، والتي كانت تقبع في قعرها رواسب من اضطراب عصبي كئيب، زاد العمر من حدته، فراح يفور ويثور

نحو السطح دون رادع له. من ناحية أخرى، وعقب ذاك اللقاء خلف ستار المسرح، لم ألتق بالراقصة ثانية، سعيداً بما فيه الكفاية بأنني، قبل نومي، كنت أروِّح عن نفسي وأغذيها بخيالات لي ولها، وقد شُفينا وأخذنا نقبّل بعضناً أمام البحر. وبشيء من الدهشة لم أكن أمنع عقلي من التفكير في ماضيها الذي لم يكن يوحي لي إلا ببعض الفزع الرقيق الذي أضفى عليه البعد عبقاً خاصاً. كان الأمر كرسالة تحمل نبأ غرق سفينة وقد وُضِعت في زجاجة قديمة لعلها تصل إلى يد حارس منار بعيد وحيد. ففي النهاية، ألم يكن كل واحد منا، نحن القاطنين في «روكا»، سوى حارس منار قد نسيه العالم فوق شاطئ «مالا سبيرانزا» (الأمل المشؤوم)؟ لم تكن شهور كثيرة قد انقضت، بل قليلة، ولكن الأمر كان وكأن ذراعاً من مياه راكدة قد امتدت وحالت إلى الأبد بين وحوش الحرب التي كنا عليها البارحة، وعما صرنا إليه من تلك الحياة البائسة الآسنة التي كانت تفرز حولنا زبداً. لقد كانت بحق عديمة الجدوى تلك الدعوة الصاخبة لنا التي تمتلئ بها الكتب والصحف اليومية القابعة فوق أفرشتنا لكي نأخذ مكاننا في ذلك العالم الجديد الوليد الزاحف بعد الحرب – أي ذاك المزيج المتشابك من الآمال والحقائق التي كان كثيرون منا يحسبونها ستصبح الموسم الأكثر زخماً في حياتهم. أجل، كانت عديمة الجدوى، بل إن ملك أوراق اللعب التي كنا نلعب بها كان أكثر واقعية وصدقاً من الملك «أومبرتو» الشاب الذي كان يستجدي أصوات الناخبين، وها هو قد أتى إلينا هنا في الأعلى ليشد على أيدينا

بشجاعة ممزوجة بالهلع، قبل الثاني من يونيو بأيام قليلة[1]. لم يكن لدينا أبطال نتبادل أخبارهم في أحاديثنا غير ذلك الرجل الضئيل «روبيك» الذي كان يصعد تلّ «تورماليه» ممتطياً دراجته وكأنه يرقص[2].

إني أعترف بأنه منذ أن نحى إحساسي الداخلي الصادق جانباً كل مشاعر البغض أو الحماس، كلما فكرت بـ«مارتا» كان شيء آخر، غير أخطائها، هو ما يثير قلقي. كنت بالأحرى حائراً ما إذا كان علي أن أصدق تلك النظرة المرهفة والمشحونة التي كانت، رغم كل شيء، قد بعثت بها «مارتا» إلى عيني في تلك الأمسية الراقصة، أو تلك التخمينات اليائسة التي استمعتُ إليها في الحديقة، التي كانت تبدو وكأنها تقضي على أي أمل لي في علاقة غرامية معها. تلك الكلمات التي لم أكن أجرؤ، أكان لكبريائي أو لخشيتي، على أن أتيقن منها من أحد.

ظل الحال هكذا إلى أن أتى يوم اتضحت لي فيه الأمور مصادفة في غرفة الأشعة. كنت قد ارتديت ثيابي للتوّ عقب فحص الأشعة لأمكث مع الآخرين في طابور من البهائم ذات الصدور الهزيلة المصطفة على الأريكة. حينها أُستدعي «فاسكيز»، فانصرف تاركاً غرفة التحميض والخزانة الزجاجية للوحات الأشعة، دون حراسة، وفي متناول يدي.

(1) كان الملك «أومبرتو» آخر ملوك إيطاليا، وقد قام بزيارة فعلية لمستشفيات مدينة باليرمو عام 1946 في محاولة منه لكسب تأييد الناخبين الإيطاليين في الاستفتاء على إلغاء النظام الملكي وتأسيس الجمهورية الإيطالية. (المترجم)

(2) يعد تل «تورماليه» إحدى المراحل المهمه لسباق الجائزة الفرنسية للدراجات. وقد فاز «روبيك» بهذا السباق في عام 1947. (المترجم)

تسللت إلى الداخل دون تردد، فقد كنت لا أزال أتمتع ببعض الامتيازات الإضافية أمام أعين الجميع، الذين لم ينتبهوا بعد أن «الماغرو» كان قد كفّ عن تمييزي عنهم. عموماً، لم يكونوا ليقولوا شيئاً بفضل تلك الرابطة الأخوية التي تجمع بين السجناء. كانت المئات من لوحات الأشعة متاحة أمامي، وكان مكتوباً على المظروف الخارجي لكل منها اسم المريض. انتقيت على عجل اثنتين منها.

حينما عدت إلى غرفتي رفعتها أسفل الضوء، وحيث إني صرت ماهراً في استقراء أدق أسرار هذا الداء، كانت نظرة واحدة على الأشعة كافية لكي يداهمني الرعب.

لم أنزل إلى غرفة الطعام في منتصف النهار لذلك اليوم، اضطجعت على الفراش، ورحت أقارن ملياً بين لوحة الأشعة الخاصة بي وبين لوحتها الممددتين فوق الوسادة جنباً إلى جنب، وبين التجاويف الصغيرة والكهوف في رئتينا، ورحت أقيس، كعالم جغرافي اسكندنافي، كل الأغوار والخلجان، حيثما شعرت بهبوب عاصفة سوداء ولو من أقصى الأماكن. وبينما كنت مستغرقاً في الاحتفال، ببعض من المتعة المتألمة، بجماع تلك الأشباح، في لوحتي الأشعة، وقد انفرجت شفتاي، دون جدوى، عن صيحة بالشفقة، وإذا بصوت القس «فيتوريو»، الذي كان يقف خلف الباب، يفاجئني وكأنه ضربة حجر: «إنك إذن السيد ليفنغستون، *I suppose?*»[1].

(1) هذه هي الجملة الشهيرة التي رددها «ستانلي» للمستكشف والمبشر الشهير «دافيد ليفنغستون» حينما عثر عليه في الغابة. (الكاتب)

كانت زيارته تلك في ساعة ساكنة مثل ساعة القيلولة غريبة جداً، ولم تكن إطلالته المرحة الزائفة تنم عن خير أبداً. كان واضحاً أن الراهب يعاني كثيراً. تظاهرت بعدم تنبهي لمعاناته، وأفلحت في التملص من الأسئلة التي كانت تحدثني بها نظرته، ورحت أنتظر. كان ممسكاً بكتاب بيديه واضعاً إصبعه الأوسط بين صفحاته. أخذ مكانه على حافة الفراش، ومكث هكذا لوقت طويل.

أخيراً راح ينطق: «لقد حاولت الصلاة، بيد أن طعماً مراً علقماً عَلق في حلقي. لعلي لم أعد أستطيع الصلاة بمفردي!». كان قد دخل عليّ في وقت غير مناسب الأمر الذي أزعجني.

قاطعته قائلاً: «الصلاة! وأين جُحْرك الدافئ! والباب الذي يسترك خلفه حين يسوء الطقس! أشعر بالشفقة لهذا الرب الذي يتسربل به الناس كصدرية ثقيلة لحماية غشائنا الرئوي الذي يشبه ورق السلوفان. أما أنا، فلطالما راق لي أن أتبلل بالمطر». ابتسم مجيباً: «ولهذا السبب بالضبط انتهى بك الحال هنا بيننا». ثم استدرك متعجلاً: «ساعدني! خلِّص نفسك! إن خلصت نفسك ستخلصني. ولا تلبث كثيراً في مهب العاصفة».

فتح الكتاب وبدأ بالقراءة، ثم كف عنها، ثم واصل قراءته من الذاكرة: «كما الطيور تبني أعشاشاً فوق الأشجار لتأوي إليها حين الحاجة؛ كما الأيائل لها أعشاب وجحور لتلجأ إليها وتسكن بها، وتستمتع بداخلها باعتدال الطقس تحت الظلال بالصيف. آه يا «حبيبة الرب»! يجب على قلوبنا أن تختار كل يوم مكاناً لها فوق جبل

«الجلجلة» أو بين جروح الرب[1]، أو في أي مكان بجواره، ليكون لنا ستراً في كل حين، ولنلهو ونمرح فيه بعيداً عن أشياء هذا العالم، ولنشيّد فيه قلعة نحتمي بها من الفتنة والغواية. طوبى للنفس التي تستطيع أن تقول بحق للرب: أنت داري وخندقي الأمين، أنت سقفي الذي يقيني من المطر، والظل في الرمضاء!».

كنت بالكاد استمع إليه. كان وسواس يردد في أذني: «مارتا»... «مارتا». وكانت تلك الخارطة الممدّدة فوق الوسادة بوديانها وبفطرياتها، وتلك المجرة من قناديل البحر الميتة تردد بلا انقطاع: «مارتا»، إنها «مارتا».

كان الراهب يُنشد: «يشيد طائر «الرفراف» عشه على هيئة كرة تاركاً كوة صغيرة في أعلاها. يبنيه متيناً وغير منفذ للماء، ثم يضعه فوق الشاطئ. حتى إذا اجتاحته الأمواج لا تخترقه المياه؛ بل يطفو العش فوقها وسط البحر، ويغدو سيداً له. هكذا ينبغي أن يصبح قلبك...».

توقف، ووضع الكتاب. ردد مرتين، وكأنه يتحدث إلى نفسه: «في وقت مّا مضى كنت أعشق هذه الكلمات». ثم راح يستفيق مردداً: «كلا! إن الرب ليس داراً للسلام فقط، كما تخشى، بل إنه جبار أيضاً، إنه جبار سماوي يطاردنا، ويختطفنا، ويحبنا».

وبينما أخذتُ أَلملمُ أمامه الخرائط المسروقة حتى أنحيها عن ناظري، وأطرد ما بها من تعاسة وصراخ في الظلام، قاطعته قائلاً: «إنه حب

(1) «الجلجلة» هو اسم المكان أو التل الذي يعتقد المسيحيون أن عيسى (عليه السلام) صُلب عليه. (المترجم)

عجيب هذا. لقد كنت في العدم. كنت للأبد عدما خالي البال..»[1].

قال برقة: «لقد أتى بك من العدم لأنه يحبك». أجبته: «إنه لا يحبني بل تعب وملّ من عزلته الطاهرة من الذنوب...».

كنا نتبادل هذه العبارات دون أي شعور بالغضب، بل بصوت ممزوج بالتعاطف كمنافسَين يدرك كل منهما أنه في نصف الجانب الصحيح فقط.

أمسك «فيتوريو» بذراعي. سأظل أذكر دوماً ذلك الشّيب المبكر الذي لفع لحيته التي كانت ترتعش مع حركة شفتيه، وسأظل أشعر بمرارة الندم لأنني لم أستطع أن أخلق من نفسي ذلك الإنسان الذي كان ينشده. قال لي: «أتغفر له، أتبغي قول هذا؟ أتجرؤ على قول هذا؟ ألا تعي أن في عملية الخلق نفسها يكمن جمال موت «يسوع»، وفضيحة موته، وتهكمه البديع على موته؟ فلكي تصير أنت إياه، يرتضي هو، كل يوم، أن يكون أنت، وأن يميت لاهوته المُعدِي بداخلك. ولأن الخلق يحدث كل يوم كموته، فسيظل «يسوع» محتضراً إلى نهاية العالم... ».

أثار حماسه المضطرب مشاعري، فرحت أهمهم فقط حتى أستثيره وأجعله يواصل الحديث: «إنها مجرد كلمات، مثل كلمات «باسكال»...»[2]. أما هو فاستطرد قائلاً: «أيها الصديق المسكين! بل

(1) جملة مقتبسة من «سهرة مع السيد تيست» للشاعر والفيلسوف الفرنسي «بول فاليري». (الكاتب)

(2) يشير المؤلف إلى عمل الفيلسوف الفرنسي «بليز باسكال» (الخواطر) «*Les Pensées*» الذي كتبه بغرض الدفاع عن الدين المسيحي في مواجهة الملاحدة وأتباع الديانات الأخرى في عام 1669م. ويشير أيضا إلى الجدل بين العلماء ورجال الدين المسيحي حول حقيقة اللاهوت في تلك الفترة. (المترجم)

إنك أنت من تحيا في شبكة معقدة من الكلمات، وتدور وتلف حول نفسك وبداخلها، بينما كلمة واحدة فقط، تنطقها في صمت، وأنت راكع هنا بجواري، تكفيك. إنك بحاجة إلى الاستسلام لكي تنتصر، وإلى النوم لكي يكون بوسعك الاستيقاظ. عليك أن تُسلم نفسك في الليل المعتم لفؤادك إذا كنت تنشد الضوء. إن الرب ليس هو الظالم المتجبر الذي تحسبه. إنك تفترض أنك تلاحقه، وتلهث، وأنت تحبو على الأرض، كرجال الشرطة في الروايات، محاولاً تتبع آثار أقدامه الغامضة أثناء فراره، وتسأل البقع التي خلفها إبهامه الممسوح بالزيت. بينما هو، في الحقيقة، من يحلق فوقك دوماً، وظله يغشاك دون أن تدركه، وأنفاسه تلفح مؤخرة رأسك وأنت تظنها خطأ ريحاً...».

احمرّ وجهه بشدة، بعد بضع دقائق، ما إن لاحظ أنني لم أعد أجيبه. حينما عاود الحديث كانت نبرته توحي بالاعتذار والاستسلام: «إنني لست سعيداً، وأسأل نفسي لِمَ؟ لعل هذا الداء المهلك الذي أحمله في لحمي قد راح يفسد أيضاً روحي. بات الشك يصيبني كثيراً، وصرت أفزع، وأشعر بأنني قسّ زائف، رغم أني لا أصرخ معترضاً على الرب. حينما يجن الليل لا أجده بجواري، ولم أعد أناجيه إلاّ أثناء نعاسي بشفتي المرتدّ الخائن. ليتني أشعر، فقط، كما في الماضي، ولو لمرة واحدة، بجراحه في قلبي، وبصاعقته الحلوة...».

طويتُ الكتاب الذي كان قد تركه مفتوحاً على الوسادة ومددته إليه. قلت له: «يا سيد «ستانلي» لقد قطعت شوطاً طويلاً، ولكن رحلتك الآن قد بلغت نهايتها. في فجر أحد الأيام القادمة، سيأتي أحد

مّا من البحر، من ناحية شاطئ «سفيرّا كافالّو». ستمضي معه، أؤكد لك هذا، وستسير معه فوق الماء مرتدياً نعليك الخفيفين».

قال لي: «أسأل السماء أن يكون هذا هو قصدك فعلاً!».

كذبتُ عليه قائلاً: «ألا ترى أني قد انفجرت باكياً من أجلك!».

-8-

كانت الأيام التي أعقبت موت القس مستعرة كالنيران. ورغم أني والصيف نتشابه في الكثير من الأشياء، إلا أنني لم أستطع في يوم من الأيام أن أحبه. إنه موسم القروح والجروح، موسم الحنق والصلف، الموسم الذي يُلحِق أشد الأذى بمن يشعر بدنوّ أجله، ويصبو إلى العيش في ظل صمت من التواطؤ اللائق غير المخجل، بأفكار مرتبة، وبدم يشعر أخيراً بالسكينة. بينما لم يكن لعنان أن يكبح دمي في ذلك الصيف، وكنت أشعر به يتدفق في عروقي في أوقات غير منتظمة، هائجاً ثائراً طوراً، وواهناً طيعاً تارة أخرى، مثلما يحدث حينما يبلغ الصبية الحلم فيطيب لهم تحسس شريانهم السباتي ليشعروا بتدفق الدم فيه، ويتبينوا مده وجزره الغامضين. لقد استولت عليّ فجأة مراهقة جديدة أشد وطأة من تلك الأولى، وإلا ماذا كان يعني قرع الطبول الذي كانت تنبعث منه رائحة الفوران الشديدة تلك المألوفة لي، في كل مرة استيقظ فيها. كانت الساعات تنزلق فوق المزولة كحبيبات من ضوء بطيء موجع، وكنت أرجو دون جدوى أن تتعثر النجوم في مدارها. كانت زرقة السماء صافية بشكل صارخ فوق مزاريب صرف مياه المطر في «روكا»، بينما يحوم في أعلاها صقر وحيد، ودون غيمة واحدة تحول بيننا وبين حلول نهاية العالم. بيد أن ثمة يوماً واحداً فقط من شهر يوليو كان مختلفاً عن الأيام الأخرى، في الجزيرة، ولا يمكن نسيانه أبداً. أما بقية الأيام فقد كانت مجرد صيف رتيب ذي لون برتقالي كالذي

تتحدث عنه البطاقات السياحية المصورة. كان ذلك اليوم بمثابة غضب من الرب، صورة لموسم لم ولن يتكرر.

بدأ ذلك اليوم مع الضوء الأول للفجر لمجرّد أن ترامى إلى مسامعنا أثناء النوم نباح أنين الكلاب بين أشجار الزيتون. بزغت الشمس بين الأسقف ممطرة شعاعاً بلون صفار البيض، حيض السماء الكريه. لم يكن زفيرها يبلّلك بالعرق، ولكنه كان يقبض على قلبك، ويلقي بالسنونو للاحتراق في قلب حممها الملتهبة أو حيثما انعكس البريق المرتجف الخادع لمياه سرابية. دقت الساعة الواحدة، فالثانية. راحت ذيول الرياح، التي كانت قد علت من البحر ناثرة رمال إفريقيا على كل تشققات الجسد والطريق، تخمد مصحوبة بحفيف خافت؛ فتسللت الحيات في الدِلاء الخاوية بجوار الآبار، ورقد الفقراء على عتبات البيوت كالموتى عاصبين أعينهم بضمادات قاتمة اللون.

لم يكن الأمر مختلفاً بالطبع في «روكا». أما عمدة بلدة «كاكّامو»، الذي كان قد وجه نداء استغاثة على صفحات الجرائد لطلب المساعدة ضد جحافل الجراد التي كانت على وشك الوصول، فلم يضع وقتاً كثيراً ليبدو كفرعون موسى المذعور. كانت راهبات رابطات الجأش يرتدين أوشحة تغطي رؤوسهن إلى أسفل الرقبة يمررن بين الأَسّرة، ويرطبن جباه المرضى الأشد معاناة بمنديل مبلل، ويحاولن التخفيف من الأمر بقولهن: «إنها ريح الخمّاسين من تونس. سرعان ما ستهدأ، سترون. سنكون بحال أفضل في الغد».

كان المرضى يومِئون بالموافقة، فماذا كان بوسعهم عمله غير ذلك!

أما أولئك الذين لم يكونوا يعانون من الحمى فكانوا يهبطون إلى الحديقة دون أخذ تصريح من أحد، وقد صار جسدهم عظماً دون لحم، بصدور عارية، دليل على عدم الطاعة، أو على رغبة في ارتكاب خطأ، لا أحد يدري ضد مَن، وكانوا يحثّون الخطى لاهثين بين جنبات ضباب له أزيز. كانوا يتصرّفون تماماً مثلما تصرّف الآخرون في العام المنصرم، ومثلما سيتصرّف آخرون في الأعوام القادمة. كانت لهم ذات الحركات المتعجلة غير الضرورية، والتعبيرات المذهولة نفسها لأحد الأغبياء أو صغار السن، ونوبات الطيش نفسها لجنود محاصرين دون ماء في إحدى القلاع بينما تبرز رؤوسهم من الشرفات المسننة للأبراج صارخين، وقد ربض عدوهم أسفل شجيرات النخيل لا يعيرهم اهتماماً، ولا يطلق عليهم حتى الرصاص.

بالنسبة إلي، فما الفائدة التي كانت ستعود علي إذا ما حاكيت أفعالهم؟ ففي حالة مثل هذه كان من الأجدى الالتزام بما يشبه الجمود الشعوري، أو التراخي، أو قصر النظر في مواجهة عداء الزمان الشديد هذا، وأمام ازدياد حالات الموت التي كان الهجير ينذر بها، بينما ينحت نتوءات فكّي المرضى جاعلاً رؤوسهم تبدو كجماجم الموتى في الرسوم الجدارية.

أقصد أنني التزمت الرقاد في الفراش في ذلك اليوم وفي الأيام التالية له، عارياً تحت غطائي، وبعيون مغمضة في أغلب الوقت، وفي أحيان أخرى متطلعاً إلى صور بعض الممثلين الملصقة بالجدار المواجه لي، متخيلاً أحداثاً في ما بينهم، قصة وهمية مثيرة للبكاء لا تُصدق كحكايتي. ولما

كانت قصتي ليست أكثر من مجرد حكاية مختلَقَة كالأساطير، فقد كان النوم كافياً لأفقد الصدق بها، ولكي أعيد ميزان العدل إلى الحياة فوق ذلك الجزء من خشبة المسرح. أجل، كان هذا هو السر، الفرار داخل النوم، والاحتماء به، وبناء عُشي فيه، كمن يرتدي صدرية قديمة، تاركاً بالخارج كل الآخرين بدائهم، ولِثاهم الحمراء، وخطاهم التي تجوب المكان، فلا أحد بينهم يدري أين يمضي وإلى ماذا يصبو. فيا ليت قلبي يكف تماماً عن الطرق كالمطرقة، وتتوقف قطرات الماء عن السقوط في الحوض معذبةً ذبابة انزلقت من حافته لتستقر على ظهرها فيه! ففي نهاية الأمر، ماذا كان يبغي الجميع مني، وماذا كان نور النهار يريد؟ أما أنا، فلديّ جداري أمامي، بقصة وهمية مرسومة فوقه، ولدي أحلامي الذهبية الخالصة، حتى قبل أن أغمض عيني. وها هو أخيراً النوم، القبر الموصد، مشيمة أم عتيقة، سفينة شمسية أرحل على متنها كالفراعنة...

لم يكن هذا حقيقياً، أو على الأقل لم يكن هكذا في ذلك الوقت، منذ اللحظة التي أعلنت لي فيها تلك الفتاة عن وجودها، وعن أنها تشغل كوة ضئيلة من الفراغ بيننا، على بعد خطوات معدودة من ذراعي. ها هي هناك بنوناتها الضاحكة، وسعالها، إنها فتاة مهمشة، نفس ضائعة، الرفيقة المناسبة التي كنت بحاجة إليها. أجل، إنها رفيقتي. وخلافاً للمنطق ولقواعد الذوق، كنت أُصر على الاعتقاد بأني قد عقدت معها عهداً وثيقاً، وكانت لوحات الأشعة الخاصة بها التي استوليت عليها، وكنت أحتفظ بها تحت وسادتي، بمثابة عربون وضمان لهذا العهد. فقد كان يكفيني أن أداعبها بإصبعي في المساء لكي تدب في أوصالي

رجفة بمذاق حلوٍ حامضٍ مثل ذلك الشعور الرقيق الذي ينتابنا حينما تلامس أطراف شعرنا القماش الحريري للمظلة. حتى أن تلك القطعة البلاستيكية الرقيقة للأشعة، والتي كانت قد لمست والتصقت بصدرها، التي كانت تبدو لي في البداية مثل بيت عنكبوت أسود، راحت هيئتها تتبدل أمامي، شيئاً فشيئاً، فمرة بدت قفازاً، ومرة أخرى حذاء، ثم باتت صنماً صغيراً لإله للحب لم يسبق لأحد غيري معرفته من قبل...

لم يدم الأمر طويلاً على هذا النحو، فقد استفاقت دفاعاتي الطبيعية من سباتها، وزيادة على خشيتي من التعرض للسخرية، وعلى الأشواك والعراقيل المتعددة التي كانت تحول بيني وبين تلك المرأة، انتابني الخوف من أن عرى تلك العلاقة التي تمسك بتلابيبها يَدَان واهنتان كانت ستنفصم خلال وقت قصير. استعادت مخيلتي فيلماً كنت شاهدته قبل سنين طويلة خلت، وعنوانه الضاحك المتألم: «عشاق بلا مستقبل». عادت إلى ذاكرتي صورة بطليه على متن إحدى السفن العابرة للمحيط الأطلسي. كان البطل اسمه «ويليام بويل» وكان نبيلاً غامضاً ينتظره الكرسي الكهربائي في نهاية الرحلة؛ وكان رجال الشرطة المرافقون له يسمحون له بودٍّ بالتجول بحرية دون أغلال فوق سطح الباخرة. أما البطلة فكان اسمها «كاي فرانسيس» وقد عدّها الأطباء في عداد الموتى، ولذا كانت ترتدي كل مساء وشاحاً أجمل من الفراء لكي تنسى مصيرها. التقيا، واكتشف كلاهما مصير الآخر، ولكنهما واصلا التظاهر بعدم معرفتهما للأمر. كانا يرقصان معاً وسط قاعة هائلة خاوية، ثم يتبادلان الكلمات أسفل ضوء القمر... كانت دموعي تنثال مني

بسهولة في صباي، أيتها المختالة الرهيفة «كاي»! من كان ليقول إنني يوماً ما سأرقص رقصة الحب والموت تحت ظلال أشجار الصفصاف المبللة نفسها وعلى أنغام موسيقى بيانو متثائبة؟

فجأة عاد إليّ رشدي، وأردت انتزاع نفسي من بحر العسل هذا، وطلبت العودة إلى منزلي لأقضي عدة أيام. لم تكن حالتي أسوأ من المعتاد، ولم يكن بي سعال، لذا لبّوا طلبي.

رحلت مع أول قطار في الصباح. كنت سعيداً لأني سأرى ثانية والديّ، وأعود مجدداً إلى غرفتي، وكتبي، وإلى أمسياتي مع أصدقائي من منتصف الليل إلى الثانية صباحاً. فأحياناً يكفينا القليل لنمحو امرأة من بالنا.

بلدتي: من عساه يتذكرها! إنها تمثل أمام عيني صورة خاطفة لستائر صاخبة كأشرعة القوارب، وحُمُر في حالة جماع، وفتاة سمراء بزهرة تزين رأسها في مشهد راقص. بل كانت مكاناً قاسياً، بدءاً من صف الأشجار المتصلبة المنتصبة في طريق المحطة، التي تبدو أشبه بجنود يحملون البنادق في انتظار أحد المارة معصوب العينين، ووصولاً إلى هياكل البيوت المطلة على الجرف البحري، حيث كانت تهب رياح شمالية. ما كدت ألمح من نافذة الحافلة بين شقين جبليين المشهد المتقطع الأوصال حتى أدركت: «لقد أخطأت، كان عليّ ألاّ أعود إلى هنا».

وجدت نفسي وحيداً على الرصيف حينما هبطتُ من الحافلة المتوقفة، ووحيداً تابعت سيري باتجاه الدار. بتُّ، شيئاً فشيئاً، أكثر تيقناً، بأنه على الرغم من عودتي المفاجئة، بعد فترة طويلة من الغيبة،

فقد كان آلاف من الأعداء الماكرين، المتيقظين، والمتوحشين لا يزالون في انتظاري عند مدخل البلدة. كنت على يقين أن آلافاً مؤلّفة من الذكريات كانت تتربص بي على هيئة شحاذين، أو قتلة مأجورين، ولم يكن ثمة طريق للخلاص منهم. أمام باب البيت بلونه القديم المألوف، وبينما كانت يدي تتردد ممسكة بالكاد بالمقبض الحديدي للطرق، وقد تحول لونه إلى السواد من أثر الزمن، رأيتهم، الواحد تلو الآخر، يندفعون جميعاً نحوي: أناس رعاع لا عد لهم، تلاحقني أصواتهم اللاعنة والمبتهلة في أذني، تسألني جواباً لا أملكه.

ثم كان ما كان من عراك مثير للشفقة بيني وبين أبي. لم أكن أرغب في عناقه أو تقبيله بشفتي السامتين، أما هو فكان يصر على هذا. وبينما ذقنه يتقطب دهشة، كان يبرق في حزقية عينيه، ليعاود الاختفاء مجدداً كلمح البصر، شعورٌ بالهلع لطريدة اصطيدت على حين غرة. فمن كان هذا الرجل الشائب الضئيل، بصدريته المهترئة، التي تتدلى من طرفي عظام كتفيه؟ فأين دُفِن أبي الضخم المتسخ ذو الضحكة الشبيهة بدوي الرعد، ومَن أتوا لي به بدلاً منه؟ إن هذا ليس إلا عجوزاً ترتعد يداه وهو يردد اسمي، ويدفعني بغير قوة نحو غرفتي حين كنت طالباً، وهو يهمهم قائلاً: «إن كل شيء على حاله. فلم نغير فيها شيئاً».

أجل بالتأكيد، كان كل شيء في مكانه، فلم ينسوا شيئاً، وكأنه عش للثعابين، بئر للخوف كل ثعبان فيه قابع في مكانه. كانت النتيجة الورقية تعود لذلك العام، والغيتار، والفراش الحديدي. فوق المكتب، الذي لم يكفّ بعد عن النحيب، كانت توجد ثلاث حصوات جيرية

نحتها الهواء. في نهاية أحد الأدراج، الدرج نفسه، تعرفت، ومن دون النظر حتى، وبمجرد اللمس، على دفاتري العظيمة لمدرسة «بريني» العسكرية[1]، والمسوَّدة بأكملها بحبر صامد. كم كنت أثق بنفسي وبقدراتي كثيراً! وكم وقتاً، لخطأ مني، مكثت أمام هذا المكتب من الجلد الزائف، بجوار باب الشرفة هذه، التي لا تزال تشرف على الساحة الصغيرة نفسها، التي تبدو وكأنها قطعة من الشمس خامدة ومهجورة. اختفت شجرة السنط التي كانت قائمة هناك، بيد أن الأرائك الخشبية المتقابلة، والتي يعادل طولها جسد فتى مراهق مضطجع، لم تتزحزح من مكانها. هنا، في ذات المكان، كانت أختان توأمتان تأتيان كل مساء ضاحكتين لترقبا في أحد الشقوق المظلمة لجذع شجرة العينين البراقتين لبومة. عندما كنت أطِلّ من الشرفة، لم يكن ثمة مفر من أن أرى أمامي ثيابهما الوردية القطنية. قلت لهما كلمات غرامية ذات مرة. أين هما الآن، أي ريح عاصفة حملتهما بعيداً؟

كان كل ثعبان في مكانه، وقد راق لي أن أمد يدي في جحر الثعابين مجدداً. استأنفتُ حياتي ثانية في البيت، ممضياً أغلب الوقت ممدداً على الفراش، وكأن ثمة حمى عقلية خانقة تمنعني من النهوض. لم أكن أبصر أي شيء آخر من فراشي سوى تلك الأرائك في الساحة. لم أكن أقرأ أو أتكلم، وقد عاودت فقط الإفراط في التدخين غير مكترث بأي شيء. كانت الغرفة معبأة بالدخان، وكانت هناك شفرات حلاقة قديمة مبعثرة في كل ركن، وأمشاط ممتلئة بالشعر. كان ثمة ضوء متقد لا يتبدل،

(1) المدرسة العسكرية التي تخرج منها «نابليون بونابرت». (الكاتب)

وكأننا في بحيرة من الملح. بيد أني لم أنتبه له، فقد كانت فكرة واحدة قد استحوذت علي. كان الشيء الوحيد الذي يحوّل انتباهي عن الطريق هو صوت يائس لامرأة تهتف على السقّاء، أو على سنّان السكاكين. تمنيت حقاً لو انهار كل شيء حولي –الساعات، والمخلوقات والكلمات– فيغدو تراباً. كانت كل لحظة نصْلاً حاداً من الضوء أُقدم له يدي باستسلام. في يوم مّا، كانت هذه الأرض أرضي، كنت أعرف كل خبيئة كنز فيها، ونبوءات عشبها، وهنا كنت أخاطب يوماً عنزة ذات ضرع أسود. أما الآن فلا أجرؤ على السير برأس مكشوفة بين كل تلك الأسوار المناوئة؛ ولا أن أجتاز، دون أن يصيبني الدوار، ساحات الكنائس الخاوية المهجورة، حيث تحققت إحدى المعجزات، أو ستشهد مصرع أحد يوماً مّا. كنت أمكث في الداخل دون أن أفعل شيئاً، أغتسل كثيراً، دون فائدة، فجسدي لا يلبث أن يتسخ مجدداً في الحال، وكنت أشعر بأن طبقة من الشحم قد التصقت بجلدي، ولزجت بشعري، وبأن ثمة سواداً يزحف، شيئاً فشيئاً، ليغطي أناملي الشاحبة دون سبب. كم هو صعب أن نعيش أمواتاً بين الأحياء. لقد باتت الحياة كلعبة أطفال غامضة معقدة، وقد صار علي أن أتعلمها في عمري هذا.

أفلح أصدقائي أخيراً بإخراجي من جحري بعد أن علموا بوصولي. تبادلنا الحديث، وسرعان ما أصابهم الازدراء مني. احتقروا صوتي، وعيني الزائغتين، والأشياء التي تذكرهم بها يداي الجليلتان العائدتان من الموت، واللتان تمتلكان إرثاً أسود لم يكونوا يحسدونني عليه، ولكنهم لم يكونوا يغفرونه لي. مراتٍ كانوا يسألونني مستنكرين: «ماذا فعلت

بهاتين اليدين، ولِمَ تظل حبيساً هكذا طيلة اليوم، كم تغيرت!». أو كانوا يقولون: «لِمَ لا تجيب حين نكلمك، لِمَ لا تأتي إلى المحطة هذا المساء، ولِمَ لا تأتي إلى الحفل الموسيقي هذه الليلة؟».

كففتُ عن مصاحبتهم، واستبدلت بهم عصبة من بعض اللصوص الشباب، من بينهم سكير مرهف، كان يطيب لي الجلوس معهم فوق درجات سلم الكورنيش، بمنأى عن الفوّارات التي كانت تنثر رذاذ المياه، دون أي جدوى، كل ساعتين من الزمن، على أحجار البازلت لأرضية الساحة. كان هؤلاء صحبتي في البلدة، ولا سيما في المساء. لا يعني هذا أن صحبتهم كانت تروق لي كل مساء، ولكني لم أكن أستطيع التحدث طوال الوقت مع نفسي فقط في غرفتي. إضافةً إلى أني كنت أفتقد النساء، امرأة أضطجع معها، وأهمس لها بأشياء بين عناقيد خصلات شعرها.

كنت أخرج مع الفجر لأبحث عن امرأة، وقد أنهكني الليل، وكأنني مقاتل في معركة بلا سبب أو هدف. كنت أذرع الطرقات بخطوات واسعة، وقد تقلصت معدتي لرائحة مولد الخبز الساخن في الأفران المنيرة. كنت أتعرف في كل ركن فيها على خوفي المتأصل من نباحه ككلب وفيّ، ومن رائحة عرقه الشبيهة برائحة الصمغ، بينما كان يردد في أذني: «عمت صباحاً». كان الحال ينتهي بي في حي «سانتا فينيرا»، في أزقة مسدودة، وما كنت ألبث أن أجتاز غابة من الثياب المغسولة المنشورة، حتى يثير وجهي غير المعروف فضول امرأة مّا تقف على عتبة بابها، ليتحول اليوم إلى مناسبة سعيدة.

في صباح أحد الأيام، لبثتُ داخل البيت منتظرا «كريستينا»، الخادمة القبيحة ذات الأربعين عاماً، التي كانت تساعدنا في إتمام الأعمال المنزلية، وتنظف لي الغرفة. كنت أترقب وصولها خلف الباب، والقشعريرة تدب في جسدي دون أن أستطيع كبحها. اقتربتُ منها بطريقة بلهاء، بينما كانت ترتب الفراش، ورحت ألمسها متحججاً ببعض الأعذار. كانت ترمقني بتعجب وسعادة ودون أن تنبس بكلمة. فجأة، أخبرتها بأن تنصرف: «ابتعدي، اغربي عني. اغربي عن وجهي!». رحت أصيح بينما هي تفر هاربة باكية دون أن تدرك سبباً لتصرفي. لم تستطع أن تفتح، فلبثت قائمة في مواجهة الباب، بيَدٍ مضطربة على المغلاق، وبكتفين متصلبتين مرتعشتين، حتى لحقتُ بها، وبتُّ وراءها. أرغمتها على الاستدارة نحوي، والاضطجاع على الأرضية، ورفعت عنها مريولها وألقيته على وجهها كالكمامة على فمها.

في وقت لاحق أطللت لأتنفس السماء في الخارج، ولأتطلع إلى الطيور البحرية التي كانت تمر بين شرائط أفاريز الشرفات، بينما كانت صرخاتها المدوية فوق رأسي كافية لأن يجتاح قلبي فواق لعاصفة لم تكتمل، أو بكاء بغير سبب لطفل يتقلب في فراشه.

كان الأمر وكأنك تقوم بالحراسة الليلية بينما الأعداء يحيطون بك منتظرين أن تتثاقل جفناك، ولكنك تعلم جيداً أنك إن أغلقتهما فستكون تلك نهايتك، رغم أن القمر يتساقط حولك كذرّات نورانية، أو كضباب هائم، حيث لا ينشد جسدك شيئاً آخر سوى أن يغوص فيه

بنشوة غرامية. جعلت أقول بصوت عال: «كفى كفى! علي أن أعود إلى «روكا»، فلا مكان لي هنا».

-9-

كانت تلك إحدى نقاط ضعفي منذ الطفولة. فلطالما أحببت صوت طقطقة أصابعي بينما أردد جملة: «*Go, Stop*»، حين يوشك المصعد على الصعود أو التوقف وأنا وحدي بداخله؛ ولطالما أحببت أن أكون أنا من يعطي بإيماءة من يده إشارة البداية لجوقة موسيقية أتخيلها بينما أستمع لعزفها أمام المذياع؛ ولطالما راق لي، على سبيل المزاح أو الثأر، التظاهر بقيادة الأشياء التي كانت هي من يقودني في الحقيقة.

الآن وقد عدت إلى «روكا»، أخذ شعور بالاسترخاء التام وبراحة البال يغمرني! لعلي كنت بحاجة، بشكل أو بآخر -وبالتناغم مع حالة الطقس الذي راح، شيئاً فشيئاً، يغدو أكثر لطفاً واعتدالاً- إلى أن أُداوي الحروق التي كنتُ قد عرضت لها عقلي وحواسي في الأسابيع الأخيرة برعونة ودون تفكير. بالتأكيد، لقد صرت الآن أشد رغبة في ارتقاء أي مرصد لأتمكن من مراقبة فوضى العالم باسترخاء وسلبية، فأضحك عليها، وأبكي لها، دون مبالغة، كما يحدث عادة حين نشارك الآخرين ضحكهم وبكاءهم على سبيل المجاملة. لم أعد أفكر في المستقبل، ولم أعد أسيطر على عنانه في خيالي، رغم أنه كان يربض فوق رأسي كسماء موصدة بسحّاب عالق لا ينفتح؛ كأسطوانة مجروحة أسفل إبرة الغرامفون تعيد وتكرر بملل ذات الإجابة السقيمة. أما بالنسبة إلى «مارتا» فقد كان كافياً لي أنني أعرف أنها على مسافة خطوتين مني، وكنت سأتكلم عنها في اليوم التالي، حسب درجة حرارتي الغرامية

المتأرجحة. إن أجمل شيء الآن هو الخلود للراحة خلف درج الشرفة، جالساً في المقعد الهزاز، الذي كنت قد ورثته عن الراهب، بينما أرنو إلى ما يفعله البستاني في الحديقة، أو إلى الألعاب التي كان الأطفال المرضى يرتجلونها تحت ظلال إحدى الأشجار.

كانوا هم أيضاً يعشقون اللعب في الأوقات المحظورة، التي كان قانون المشفى يخصصها لراحة المرضى في العنابر. فقد كانت الراحة هنا إجبارية مثلها مثل العمل في أماكن أخرى (كانت الراهبة «كازيميرا» تغمغم قائلة: «وماذا بوسعنا أن نفعل لهم!» في محاولة منها لنيل تأييدي بابتسامة كشفت عن طقم أسنانها بينما تجتهد، سدى، في أن تنمّ عن حنان أموي حقيقي).

فمنذ أن أدرك الأطفال بشيء من الغموض أنهم يحيون حياة تعود إلى الخلف، وأن أجسادهم ما هي إلا خادم غاشم وجاحد، حاولوا أن يختلقوا لعبة تحتاج إلى ركض قليل بغير حمية، أشبه بالسير في المواكب، أو بعرض راقص لملائكة يتحركون بالكاد، ويتراقصون بأياد متشابكة حول جذوع أشجار الصنوبر الشبيهة بالمظلة. ومع هذا، كان يحدث أن يصاب أحدهم بالإنهاك سريعاً، فينفلت من أيادي الآخرين، فيذهب ليرقد بمنأى عنهم. كان الجميع، في النهاية، يستسلمون، فيتوقفون ليبوحوا بأسرارهم بصوت خفيض.

كنت أرقبهم من الأعلى، منذ بعض الوقت عقب عودتي، محاولاً التعرف على الجسد الصغير لـ«أديلمو» في وسط هذا العدد الهائل من الأطفال، ظناً مني أن الصوت العالي والحاد، الذي لا يختلف كثيراً

عن صوت طائر السنونو بين أوراق الأشجار المتشابكة، الذي كان يترامى إلى مسامعي من حين إلى آخر هو صوته. كنت أفكر في إعطائه الخطاب، الذي كنت قد كتبته إلى المرأة في الليلة السابقة، بعد معاناة مع الأرق، حتى أنقُض الهدنة بيننا وأستثيرها. لم يكن لي ساع للبريد أفضل منه، فقد مُنح الحق، لسبب واضح معروف، بأن يتجول كما يحلو له، من غرفة الراهبات إلى غرفة الموتى، بين زهور العسلة وورق الغار، في نهاية الدرب الرئيسي للحديقة. أثارت المهمة السرية جل اهتمامه، وأثارته فكرة أن يقوم بدور المتآمر لحساب رجل يكبره في العمر. من جانب آخر، لم تكن فرص كثيرة لمخالفة القواعد لتسنح في «روكّا» لطفل ميؤوس من شفائه مثل «أديلمو»، لم يكن أحد يمنع عنه شيئاً.

انطلق بقبضة يده المضمومة بقوة داخل جيبه الذي كان قد دس فيه، بحرص شديد، المظروف، وهو على أهبة الاستعداد لمضغه وابتلاعه إذا ما ضبطه، على حين غرة، وعذّبه أحد الهنود الحمر، أو أحد حراس محكمة التفتيش، الذين كان يقرأ عنهم في الكتب، لكي يسلِّم الخطاب.

عاد على الفور، وحينما أتاني، راح يلوح بذراعه من بعيد بطريقة دفعتني إلى الخجل، لأن العقيد كان قد خرج فجأة من غرفته مرتدياً بيجامته التي تزينها بطريقة غريبة للغاية شرائط عسكرية قد خيطت في عُرى الأزرار، ورحتُ أشعر به خلف ظهري يسعل وفق إيقاع منتظم ومنضبط كالآلة. في ما بعد، حين قام الآخرون للعب الورق على المنضدة، تمكنت أخيراً من قراءة السطرين اللذين كتبتهما في ذيل الورقة

عقب كلماتي الجليلة. كانت تقول: «شكراً، ولكن، يا له من أسلوب عتيق لما قبل الحرب! سأهبط إلى المدينة يوم الأحد في أول ترام بعد الظهر. إذا كنت ترغب فيمكننا الذهاب إلى السينما؟».

لم نذهب إلى السينما. فعلى عتبة سينما «بيوندو»، وبعد أن صرنا تحت قبتها، جذبت انتباهنا دعوة صادرة من مكبر للصوت فوق إحدى السيارات المكشوفة التي كانت تتقدم، خطوة خطوة، خلف ظهرينا. كان هذا أول مؤتمر شعبي نحضره في حياتنا في ميدان «كاستيل نووفو» غير البعيد. توجهنا إلى الميدان متأبطاً ذراعها، وكنا نبدو وكأننا زوجان شابان. كنا نتوقف بين الحين والآخر، لنتطلع إلى أنفسنا معاً في واجهات صائغي الفضة أكثر منه للحملقة في معروضاتها الفاخرة غير المفيدة.

أصابني الخجل حينما قارنت بين سلوكها الراقي المهذب وبين فظاظة ملامح وجهي وهندامي. بيد أني رحت أتأملها في الزجاج مفتونا برقتها وبأناقتها كراقصة في مسرح «لاسكالا»، بينما كان عنقها الرهيف، وقد زينه على أروع ما يكون عقد من الماس، يبرز من ياقة مطرزة بالدانتيل لقميص يكشف عن صدرها. أما صوتها... ومكرها الرقيق... وحركاتها الحضرية المرهفة التي كانت، كشذرات الذهب، فكانت تضفي جمالاً على الذكريات المتشابكة للسهرات، والحفلات الفخمة الماضية، والثياب الحريرية، والمراوح، وجزر «إيزولي بيلّيه» المسحورة.

كانت خشيتي من شخصيتها الأرستقراطية تلك ستصيبني بالشلل لو لم ألحظ، كل حين، بعض التجعدات النهمة والسوقية التي كانت تشوه

فمها، والتي كانت تجعلني أستنتج عبر حواسي المتنبهة الحادة شيئاً من التوافق بيننا. كان هذا على افتراض أنه لن يصدر منها أي تصرف آخر يثير ريبتي حول شخصيتها، ويزيد سلوكها تعقيداً وغموضاً أمامي جاعلاً الأمر أشبه بمسرحية هزلية لا تنتهي من المواقف الملتبسة والخادعة. لم أكن أنبس بكلمة واحدة تقريباً إزاء تصرفاتها المضطربة والمتباينة التي كنت أراها أمامي: فطوراً كانت تضغط على يدي بيدها الشبيهة بريشة يمامة دافئة قليلاً من أثر الحمى؛ وتارة أخرى كانت تربكني بالعسولة المفرطة واللزجة لكلماتها، وبإيماءتها الصارخة والمصطنعة لممثلة متواضعة، ولا سيما بنظرات الخوف التي كانت تملأ عينيها في كل مرة أرنو إليها.

كنت أسير معها بين الزحام يتنازعني شعور بالتردد بين الريبة والحب. غير أني كنت فخوراً بنفسي، فها أنا أخيراً كنت بصحبة امرأة، تحدثني وأحدثها. لم أكن أعير انتباها لذلك الصوت الخفيض الصادر من قبو متوار في أعماق نفسي، الذي كان لا يكف عن الترديد على مسامعي: «إلى متى؟».

أنصتنا فقط لبضع دقائق للمحامي الذي كان يرتدي نظارات وقميصاً، وهو يصيح دفاعاً عن مستقبل العالم فوق بحر من الرؤوس المشرئبة المنتبهة ذات القبعات الصقلّية الريفية. كان كل شيء يثير المشاعر: اللون الأحمر الناري للأعلام المنتصبة أسفل المنصة بجوار الثياب السوداء، وكأنها في حداد، والوجوه المتصببة عرقاً، البارزة واليقظة، وكل تلك الحماسة الظاهرة عليها وكأنها لأطفال يشعرون بنمو مداركهم. كان سيطيب لي بالتأكيد البقاء بينهم، ليس لزيادة ثقافتي

وحسب، بل لشعوري بوخز الضمير، ولكي تشبع أنفاسي من تلك المشاعر المُتربة والساذجة والمفرطة بالأمل لعمال تلك الأرض الذين كنت قد توهمت بأنهم قادرون على الانتصار وتحرير أنفسهم. غير أنها لم تُرِد البقاء، فقد كانت لا تزال تفكر في صورتها المغايرة والباهتة التي رأتها في زجاج الواجهة، في ذلك الهيكل من العظم واللحم القليل، الذي كانت عيناها تتلهف على عدم الاعتراف به.

اعتذرت لي قائلة: «كلا، لست أنا هذه، فلنقل إنها أختي الشريرة»، بينما كانت تنظر إلي من أخمص قدمي إلى رأسي، ثم زاغت نظراتها بعيداً كما حدث في تلك الليلة في غرفة تبديل الملابس. استطردتْ: «بينما تتحدث إليّ، لا تلق بالاً إلى هذا الوجه، بل إلى هذا» ثم أخرجت من حقيبتها وأعطت لي صورة لها، وهي شبه عارية، وقد اتسخت فخذها بالرمال، بينما تضحك في الفراغ إلى نفسها.

أردفت: «كنت جميلة هكذا بتلك الابتسامة عام 1942. إنه عامي الأجمل».

عارضتها بشيء من البطولة وقلت: «أفضل ابتسامتك العجوز الآنية» ولكي أضفي بعضاً من الصدق على الكلمات عاجلتها مخبراً: «إن المرض يضفي على الوجوه حدساً، ونوراً تعدمه وجوه الأصحاء. إن المريض جميل كالقديس». تلعثمتُ، ثم صححت نفسي سريعاً: «بالتأكيد، كنت أُفضل ألا أكون مريضاً، وأن أكون معافى، وأن نكون معاً كأي اثنين جالسين على أريكة في منتزه «فافوريتا»»[1].

(1) أحد المتنزهات الهامة في مدينة باليرمو. (المترجم)

أجابتني وهي تهز كتفيها: «ولكن لا يمكن أن يحدث هذا».

فقلت لها: «إذن فلنحاول أن نعطي معنى مّا لمصيرنا المحتوم».

قاطعتني: «أي معنى؟ أنعطي معنى لقوة باطشة مثل هذه؟ إني لا أعرف شيئاً آخر سوى أني أعاني من جراء قوة لا وجود لأسوأ منها. كانت لي حياة، ووجه، وها هم ينزعون مني تلك، ويأخذون مني هذا. لقد كان وجهي ألعوبتي المفضلة، كنت ألعب به وبشعري وبأحمر الشفاه. وإلى اليوم أُمضي ساعات في تزيينه، رغم أني أشعر بأنه لم يعد وجهي أنا، بل وجه امرأة أخرى تريد بي شراً، مثلما حدث لي في الثالثة عشرة من العمر حين بدأت أحيض للمرة الأولى. هذه هي حكايتي، ويا لها من حكاية نازفة دامية...! أجل إني أزينه، ولَمَ لا! وأجلس في الشرفة أيضا لكي أتطلع إلى الطريق وراء بوابة الحديقة حيث يمر الرجال. ليتك ترى كم فستان سهرة في خزانتي، حتى أني أبسطها على الفراش حين أكون بمفردي. إنها قشور خاوية أسمع فيها كثيراً حفيف شبح «مارتا» التي كانت تقطنها يوماً مّا».

أكدت لها: «كلا، إنك تروقين لي أكثر هكذا، بهذا اللون الوردي فوق وجنتيك، والذي يبدو زائفاً لفرط جماله. إنه لون وردي يليق ببطلة الأوبرا، «فيوليتا»[1] أو «ميمي»[2]؛ إنه وردي يليق حقاً بالمسرح الأوبرالي» ثم رحت أرنو إليها بعيون مقتنعة.

---

(1) «فيوليتا» هي الشخصية الرئيسية للعمل الأوبرالي «لاترافيتا» للموسيقار الايطالي «جوسيبّي فيردي». (المترجم)

(2) «ميمي» هي الشخصية الرئيسية للعمل الأوبرالي «لابوهيم» للمؤلف الإيطالي «جاكومو بوتشيني». (المترجم)

ضحكتْ: «يا لعقلك الملتوي! أجل، لقد كنت أعمل في مسرح «لاسكالا». لكني لم أكن أغني بل أرقص. لقد بدأت الرقص في طفولتي أمام مرآة كانت تحتويني بأكملي، من رأسي إلى أخمص قدمي. كنت أستعين بغرامفون لأستمع لأغنية اسمها «ميسوري والتز» *Missouri waltz* »

دندنتْ بصوت خفيض نغمات الأغنية، ثم، فجأة قامت فوق الرصيف، حيث كنا نقف نتبادل تلك الكلمات، بالدوران حول نفسها دورة كاملة أنيقة للغاية كشفت ولو قليلاً عن ساقيها، مثيرة التفاتة المارة القريبين لشهوة منهم أو لشفقة، لم أكن أدري. كنت مشوش الذهن، فوبختها قائلاً: «هيا هيا لنمش! لا تحاولي أن تحظي بالتصفيق هنا أيضاً».

أجابتني: «ماذا تقول! لم تكن إلا رغبة مفاجئة انتابتني، ولا تزال تهتز بداخلي وكأنها ذيل قطة هائجة. إننا معشر السيدات كثيراً ما نكون هكذا: نرجسيات وكئيبات. أتعرف -وضعت يدها فوق ذراعي- أن «كروتشيفيسا»، الراهبة الأكبر عمراً بين الممرضات القائمات علينا، طلبت مني يوماً أن أعيرها صدرية من الصوف رخيصة الثمن، بلون أحمر كالكريز، بحجة الاطّلاع على طريقة حياكتها (إنها تعمل بإبر التريكو في أوقات راحتها). بيْد أني رأيتها في ما بعد تدخل خفية في المرحاض، وتغلق الباب على نفسها لأكثر من ساعتين. كان واضحاً إنها كانت ترغب في تجربتها. إنها الراهبة ذات الستين ربيعاً، والتي تفوق تجاعيدها تجاعيد الفيلة».

توقفتْ لبرهة لنعبر الطريق.

أخبرتني بصدق: «عادة ما يروق لي التنكر والكذب. إن كل ما ينطوي على نفاق يغويني».

قالت أشياء أخرى ولكن بصوت لفرط انخفاضه كنت مجبراً على تخمين الكلمات التي كنت أفقدها، وعلى سؤالها في كل دقيقة، بشيء من الحرج، أن تعيد ما قالته. حينما انتبهت للأمر قالت مشيرة بإبهامها إلى صدرها: «إنهما السبب، هذان المنفاخان المتعطلان. إنها أيضاً عادة سيئة لازمتني منذ فترة المراهقة لفرط حديثي الدائم إلى نفسي، همساً، أمام كوخ السكة الحديدية الذي كنت أقيم فيه، بينما كنت أنتظر القطارات ليلاً. كنت كاليتيمة. كان والداي يعيشان في ما وراء البحر، وكنت أعيش مع قريب لنا أرمل عجوز. كان كلما يحتسي الشراب يأتي ليلمسني بخجل، ثم كنت أصطحبه لينام، وأبقى أحرسه عند جسر السكة الحديدية».

سألتها: «أين حدث هذا؟»

ترددتْ لوهلة كانت كافية لأن أرتاب في أنها كانت على وشك أن تمحو أثراً خلّفته وراءها. قالت بنبرة غامضة: «في ما وراء «البو»...»، ثم استأنفت حديثها بسرعة: «ولكيلا يغلبني النعاس، كنت أتحدث إلى نفسي دون انقطاع. كنت أروي لنفسي حكايات أعرفها، وأختلق أخرى، حتى تحين لحظة تمتنع عني فيها الأسماء والكلمات. كان علي أن أغمض عيني لأستمع مجدداً لجلبة الجنادب، وحفيف الأشجار، وصفير قطارات نائية، فقد كانت كلها بمثابة أغنية ما قبل النوم لم يكن لي غيرها لتهدهد سعادتي بوحدتي وانعزالي، كملكة متوّجة في ليلة

طويلة كتلك. أحياناً، نهاراً، كنت أمضي الساعات وأنا أرقد عند سفح أحد التلال، في حفرة صغيرة، بمحاذاة السكة الحديدية، لألعب مع عشب الأرض وساكنيه، أيمكنك تخيل هذا؟ مع النمل، والخشخاش، والبرطمانات الفارغة التي سقطت من عربات الدرجة الثالثة، وانزلقت إلى الأسفل خامدة كجثامين أشياء. في إحدى المرات، رأيت في ورقة ممزقة لجريدة وجه أحد الرجال ذي عينين متوحشتين، فوقعت في غرامه، إن كان هذا يُسمى غراماً. كانت بي رغبة شديدة للرحيل، في صباح مّا، إلى مصير غامض، على متن أحد هذه القطارات. كنت أعرف أن، ما وراء الجبال، ثمة حديقة مستديرة حيث كان ينتظرني بينما يقبض بيديه على مهماز وسوط. كنت أحلم به أحلاماً لم تكن جميلة. كنت غالباً ما أموت في تلك الأحلام بينما قدماي ومعصماي مقيدتان إلى الأرجل الحديدية للفراش، وقد غطاني الوحل، ووطأتني نعول ضخمة كعشب على قضبان السكة الحديدية... أنا ببطني الصغيرة البيضاء تلك، وبعذريتي الطفولية الفاسقة...»[1].

كانت «مارتا» تتكلم وتتكلم، ولكنني لم أقترب قيد خطوة نحو قلب تلك المرأة الغائمة التي أراها أمامي. أو بالأصح، كلما ظننت لوهلة أنني فهمت شيئاً، كنت أتراجع على الفور وكأنني أمام شرك منصوب. كانت تلك التلميحات اللزجة، التي تحمل مذاقاً حلواً ساماً، تبدو لي، بل كانت بالتأكيد، علامات وفتات «عقلة الإصبع»[2]، وقد تركها على

(1) لعلها كانت تلمح إلى موافقتها الضمنية على ممارسات الرجل معها. (الكاتب)

(2) في إشارة إلى أسطورة عقلة الإصبع. (المترجم)

مفترق الطرق في إحدى المتاهات، لكي يزيد من حيرتي؟ أو ليساعدني؟ عاد إلى مخيلتي ما سمعته من أحد الجنود المساعدين لي، الذي كان قد خدم في إفريقيا، عن أنهار هناك تختفي على غير ميعاد تحت الرمال، لتولد من جديد حيث تريد، أنهار لا منبع لها ولا مصب... إنها أيضاً واد لنهر مثل تلك، «مارتا»، شبح لامرأة بعيدة عني وكأنها دمية عمياء، ولكنها، على كل حال، المخلوق الوحيد الذي بقى لي في عالمي الخاوي المهجور.

الآن، كانت قد ازدادت تعلقاً بذراعي، بينما كانت تؤرجح حقيبة يدها المطرزة على هيئة مربعات إلى أعلى وإلى أسفل، على إيقاع أغنية كانت ترددها بصوت خفيض: «واحد... اثنان... ثلاثة». خُيل إلي أن تلك التلقائية والانطلاق اللائقين بطالبة في المدرسة كانا عرضاً تمثيلياً تحاكي به حياة حقيقية. في الوقت ذاته، كنت أقود خطانا، بدهاء، ولكن ظاهرياً بالمصادفة، متجهاً نحو «سانتا زيتا»، الحي الأكثر تعرضاً للقصف خلال الحرب، حيث ظلال الأطلال كانت ستغدو أكثر حنواً وتفهماً لمشاعرنا المتدفقة والموشكة على بلوغ ذروتها، إن كان تعلقها الشديد بي وتوترها يدلان عن رغبتها كما قد فسرتهما أنا. لم أكن مخطئاً. بينما كنا نسير نحو شارع «سكوارشالوبو»، وما إن ظهرت أمامنا فجأة أطلال غير مألوفة -كانت أطلالاً لمنزل من أربعة طوابق، بواجهة متهدمة تماماً، وجوف مكشوف للعيان- تركت «مارتا» ذراعي، وراحت تسير بإصرار بمفردها نحو بقايا جدار، حيث أسندت ظهرها، وأمرتني بشفتيها البيضاوين بأن أقبلها.

وقبل أن أحتسي من شفتيها، تلقيت زفيرها الدافئ ورائحة مرضها داخل رئتي بشعور مضطرب تمتزج فيه السعادة بصرخة ألم صامتة كتلك التي تصاحب القبضة الهاوية لمن يقتل أمه. كانت رغبة في التدمير قاسية وغير مكترثة تصيب يدي بالخدر، بينما أبحث عن السفوح والتلال الرقيقة لجسدها. كنت أشعر بها تشتعل رغبة، وتتأوه بينما تلتصق بي، وكأنها عود حطب يفنى دون لهب، يحترق من داخله، ويتلوى كإنسان حول نفسه في الهواء.

اجتاحتنا فجأة نوبة من الضحك، أعقبها سيل من السباب والصرخات. فتحنا أعيننا ورفعناها، فبدا لنا، فوق الأحجار المتهدمة للمبنى، حيث لم نر أحداً من قبل، رهط من الفقراء البؤساء الودودين جالسين القرفصاء فوق كل لوح وعمود أفْلت من الدمار. كانوا أطفالاً وشباباً وشيوخاً ومعهم أيضاً جندي وحيد. كانوا يحثوننا ضاحكين على الصعود معهم إلى أحد الأماكن المتوارية في الأعلى.

فررنا، رحنا نسير على غير هدى، ثم استقللنا التاكسي لنتخلص من هذه الطرقات، ولكي نتجنب ما تبقى من قصر «سكالفاني»، فلا أحد يعلم ما كان يمكن أن يحدث هناك، حيث اللوحة الجدارية التي تتحدث عنا، والتي نجت من قصف القنابل، والتي تظهر فيها فارسة الموت مجدوعة الأنف ممتطيةً جوادها ومدجّجةً بالسهام بينما تركض منتصرة فوق أشلاء لعظماء ومجهولين[1]. مع حلول المساء، هناك في

(1) يشير المؤلف إلى اللوحة الجدارية المعروفة باسم «انتصار الموت» والمعروضة في «باليرمو» التي تصور فارسة الأمازون وهي تطأ بسنابك فرسها رؤوس بعض من العظماء. (المترجم)

الأسفل أمام البحر، جلستْ تأكل الجيلاتي، وراح صوتها يعلو بالكاد على النغمات المتهادية من جوقة موسيقية صغيرة. استأنفت «مارتا» حديثها: «أتعرف، لقد عثرت على ذلك الرجل في ما بعد». طلبت مني سيجارة، فلم أجرؤ على الرفض، وطفقنا ندخن ونسحب أنفاساً عميقة، بين سعلة وأخرى، وكأن كل سحبة هي إنذار من فحّام متمرد لسلطان مستبد[1]. لَمَسَتْ ذراعي، تحسستْها بإصبعها من الكوع إلى المعصم: «أذكرُ ذراعه السمراء، في صيف مثل هذا، فوق قارب، وهي تتأرجح إلى الخلف وإلى الأمام أمام عيني، وكأنها تحرك مجدافاً لا أراه. كنت جميلة، ورشيقة، ونظيفة؛ يرقد نصفي داخل الزورق بينما تتدلى قدماي في تيار المياه. كنت أتطلع إلى غيمة فوق رأسي، وإلى تلك الذراع التي تدنو وتنأى، لا أدري أين نكون وإلى أين نمضي. كانت مياه البحيرة تتهدهد حول كعبي قدمي، وكأن وحشاً بألف إصبع يداعبني. كان ردائي أسود ومطرزاً بخطاف من خيوط ذهبية فوق صدري. بينما هو يناديني باسم «غارانشي»[2].

توقفتْ ثم سألتني: «من أنتَ؟ ولِمَ أحكي لك عن كل هذا؟ إني لا أعرف حتى اسمك!». بيد أنها أردفت سريعاً متلعثمة بعض الشيء وقد راحت تضع يدها على وجهها لتمنع عنها ضربة وهمية: «لا يهم... عذراً... إن كان حقا علينا أن نموت».

---

(1) يلمح الكاتب هنا إلى رابطة الفحامين الأسطورية المعروفة بجماعة «القديس تيوبالدو» التي كانت تقاوم استبداد السلطان. (المترجم)

(2) «غارانشي» هي الشخصية التي كانت تمثلها الممثلة الفرنسية «أرليتي» في فيلم المخرج «مارسيل كارني» «أطفال الجنة». (الكاتب)

كانت مجرد فتاة صغيرة تتحرك أمام مرآة، ولا شيء آخر أكثر من هذا.

سألتْ وهي ترنو نحوي كما لو أنّ حجاباً من الشاش يفصل بيننا: «ولكن أحقاً سنموت؟ لست أصدق هذا دائماً، ولا سيما في المساء، قبل النوم، حين أعقد سلاماً مع العالم وأودِّعه: تصبحون على خير! أيتها الملابس، والمقاعد، والبقع فوق الجدران! أيتها الأشياء كافة! تصبحين على خير! في تلك اللحظة فقط أدرك أني في أمان، وأوقن أنني، بالتأكيد، سأصحو في اليوم التالي بِرِئَتين جديدتين، نظيفتين، من دون تلك اليرقات التي وضعتموها بداخلهما لتلتهمهما».

ابتسمتْ وابتسمتُ معها، وقد تملكني ولع غرامي جريء وعاصف لها، حتى أنني كدت أنحني فوق منصة الرقص لأشكرها على تلك الأناقة الرائعة والصوت المتهدل المصطنع اللذين كانت تنتحب بهما أثناء أدائها لدورها فوق عتبة الظلام، غير آبهة بتعرضها للسخرية.

أما أنا... فقد قرأت كتباً تفوق عدد الأيام التي عشتها، أثناء مروري المتعجل وغير المؤثر بمحاذاة شوارع الإنسان.

راحت تهمهم كالعصفور، بصوت ممزوج بخيالات، وبرِقّة جياشة تضفي عليها سحراً أصيلاً: «كنت أحبه. من يدري إن كنت أحبه! لقد كان ملكاً والآن لم يعد موجوداً. كثيراً ما ألعب لعبة في الصباح، أذهب عند النافذة، وأنتظره بينما أُزيّن يديّ. أعدُّ إلى الخمسين وحتى إلى المائة. لا يأتي، ولذا أستأنف العد مجدداً. في النهاية يصيبني التعب، وأقول لنفسي: سيأتي غداً. رغم أني أعرف أنها مجرد لعبة، وأنه لن يأتي.

أحياناً، عندما أطالع السماء في ظلمة الليل، تراودني فكرة جميلة بلهاء. يخيل إلي أنه إذا ما استطاع أحد أن يعدو أسرع من ضوء الشمس، فيسبقه، وينتظره عند إحدى المحطات النجمية، فسيكون بوسعه رؤية كل مشاهد شَريط الماضي كاملة ثانية. تواسيني فكرة أنه لا يزال حياً في شعاع من الضوء بينما يُقبلني ويحدثني، وأن أحداً ما في علياء السماء ما زال لا يعرف أنه رحل».

كان الوقت قد تأخر، وكان من الأفضل لنا أن نعود أدراجنا. اتفقنا في طريق العودة بينما كنا جالسين جنباً إلى جنب في عربة الترام أن نتظاهر بعدم معرفة كل منا للآخر. ولكن، عند محطة النزول، حينما قرعنا جرس بوابة «روكا»، أحسسنا من وراء ظهرينا بنظرات الركاب الآخرين وكأنها طعنات رحيمة وقاسية معاً، فتصلبت أعضاؤنا وكأننا زانيان قُبض عليهما في حالة تلبّس.

حينئذ عاجلتني ضاحكة وقالت: «إنه ليس حقيقياً مطلقاً، أتعرف هذا! لقد حكيت لك ذكريات مختلقة، إنها حكاية امرأة أخرى».

—10—

كانت «أديلي» قد وعدته بأنها ستأتي لتراه في الأيام المخصصة للزيارة متظاهرة بأنها قريبة له، غير أنها لم تظهر ثانية بعد أن خرجت من المشفى، وعادت لتعيش من بيع الحليب المُجفف التابع لهيئة إغاثة الأمم المتحدة، والدقيق الأبيض في السوق السوداء في نواحي «أوليفيلا». لم يستطع «الباشا» أن يتقبل الأمر، وكان يسبها كل ربع ساعة لاعنا إياها من بعيد: «العاهرة، الفاجرة، المجرمة». ولما حاولت أن ألتمس، ولو قليلاً، لها العذر على تصرفها أجابني قائلاً: «أجل... أجل، فلتجد لها عذراً، وكأنها لم تخدعك أنت أيضاً بأكاذيبها».

حينها فتحت أذنيّ جيداً على أمل أن أستمع منه لأخبار طيبة، أو لتصحيح لما قيل عن «مارتا». ثم انقضضت عليه للتحقيق معه، وإن اتضح بعد هذا بقليل، أن حديثه لم يكن أكثر من مجرد ثرثرة لا هدف لها سوى إثارة غيظي أو المزاح بالاتساق مع الاسم الذي كان قد أعطاه هو لنفسه (السعيد). على كل حال، لم يمض أكثر من أسبوع واحد على غيظه وثورته، إلا وشاهدناه بصحبة شابة صغيرة أخرى، ثم مع فتاة ثانية. كنا نراه في قاعة الطعام ينتصب واقفاً، ثم ينقلب على رأسه قبل الأكل، في صلوات ضاحكة ساخرة؛ أو كنا نستمع إليه عقب عودته من إحدى نزهاته، بينما يحكي أمام الطباخة العجوز المطلة من نافذة المطبخ الصغيرة عن تحرشاته الأسطورية بمؤخرة فتاة تعمل بائعة في متاجر «بيلاّنس وأمالفي» بعد الظهر في الترام. كنا نضحك دون أن

ننتبه إلى الحرارة المضطرمة على وجه «أديلمو»، ثم كنا نصعد إلى غرفنا، لنختتم سهرتنا بصحبة خمر من «جبال الآلب» بعد أن احتسينا منه طويلاً في الظلام، لنوهم أنفسنا بأن زمناً مفعماً بالسلام قد حل. في النهاية، كان كل منا يشعل سيجارة، ثم يخلو إلى نفسه، فيلفنا الصمت إلى أن يداهمنا النعاس.

بت أصرّ منذ أن تعرفت على الراقصة على أن آوي إلى الفراش متأخراً ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وكان يروق لي أن أفكر فيها بعينين مغمضتين، وأن أوجه لها أسئلة، وأن أستمع إلى أجوبتها. شغفت كثيراً بسهرات الذكريات والخيالات الغرامية تلك. كنت أقضي ساعات بطيئة متلهفة إلى درجة لا يمكن وصفها، بينما كان وجهها وجسدها ماثلين ومطبوعين تحت جفني بلا انقطاع، وأنا أحاصرها، وأغزوها بمداعبات عشوائية، وفق خبراتي التي تعلمتها منذ فترة وجيزة، أثناء غراميات الحرب، مع «سيستا» و«سيلفيا» وأخريات (تُرى أين هن الآن؟). كنت على علم بما حدث لإحداهن، فقد رأيتها يغلقون عليها غطاء أحد النعوش مع بعض الملابس، بعد أن تحولت إلى كومة من فحم وجير في حريق «بيتولا»[1]، واتخذت من باقة من زهور «الحوضية» (إذا كان اسمها هكذا حقاً) علامة على مكان قبرها، بينما كنت أَعُدُّ كم مجرفة تراب أُهيلت عليه. فالابتلاء بالمصائب هو مصيري ومصير من يعرفني دوماً، وكأن قدرنا المحتوم هو شارات سوداء حول أذرعنا،

---

(1) تعرضت مدينة «بيتولا» إلى مذبحة وحريق ضخم خلال الحرب العالمية الثانية جراء قصف القوات النازية. (المترجم)

وعين شريرة وراء ظهورنا، مثلنا مثل أسماك التونة الشابة الحبيسة التي تنطح رؤوسها خيوط الشباك، بينما معاول الصيادين تفتك بها ناثرة في الفضاء رذاذاً من زبد أحمر قان. أما «مارتا»؟ فقد أحببتها بالتأكيد بالقدر نفسه الذي أحببت به في الماضي. بيد أن هذه المرة كان حباً ممزوجاً بالفزع من الاستسلام له... كمن يرعى الغنم في منتصف نهار أحد الأيام الصيفية، فيجتاحه خوف لا أحد يعرف له سبباً، فتستولي عليه رغبة في العودة سريعاً إلى البيت لطلب الغوث، ولكن لا باب يُفتح له، فلا أحد يشفق على من يطرق الأبواب في ساعة ملائمة للصوص كتلك.

ثم كانت تلك النزهة مع «سيباستيانو». كان «سيباستيانو» طالباً قديماً، ومتأخراً في كلية الطب، في ربيعه الثامن والعشرين، ولكنه كان يبدو أكبر عمراً. كان يثير فيّ شيئاً من الرهبة بأنفه القوي، ولحيته الرمادية، وبالتقلب الشديد والفجائي في مزاجه عقب فترات من الهدوء التام. علاوة على أنه كان يعاملني ويعامل الآخرين بخشونة تصل إلى حدّ العداء، مما جعله متفرداً بيننا بطبعه ذاك، ومما أضفى عليه ما يشبه السلطة الضمنية، ولا سيما بعد أن اكتشفنا أنه كان قد فقد كل ذويه، فالهلاك كان ميراثاً عائلياً له. وكانت أخته الأخيرة قد ماتت قبل شهر مضى في «روكا» في الجهة الأخرى من السور.

الآن، وعقب أيام من نطقه عن غير قصد لتلك الجملة التي نمَّت عن ريبته في مصيره، ولخطواته المترددة، ولنظراته الثابتة الجامدة التي كان يحملق بها إلينا دون أن يرانا، ولعلامات أخرى لم تكن ترقى إلى درجة

الدلائل، فقد كانت مجرد هالات وإشارات من التفكير تبدو مرافقة له؛ كل هذا جعل رفقائي يخشون من أن شيئاً عظيماً ومخيفاً كان ينضج بداخله، وجعلهم يفكرون بأنه ينبغي، بل كان علي أنا، لأني كنت أكثر الناس حباً له، أن أطببه بطريقة ما، ولو ببضع كلمات. وهكذا، وبالنيابة عن الجميع، فاجأته بينما كان بمفرده أثناء فترة الضحى. بمعجزة استسلم لي، فأمسكت بذراعه، واقتدته نحو الركن الأكثر انزواء وبرية في الحديقة، حيث كانت شجيرات البرقوق البري وآجمات من الأعشاب الجافة قد امتدت وغطت الدرب مانعة الاقتراب منه، ولكن واعدة زائريه، إن لم يكن براحة الوصول، فبالهدوء والعزلة التامة.

كانت السماء ضبابية أخيراً، وكان الطقس معتدلاً، ولكن لم يكن علينا الوثوق به كثيراً، فالهجير كان سيعود سريعاً بصحبة ذئاب الظهيرة. أما أنا، فخشية منه، وتحسباً له، لففت رأسي بوشاح، ورحت أتصبب عرقاً مبكراً، لعله من أثر الحمى، بينما كنت أشعر بالقميص وقد التصق بجسدي بمجسات ماصة. فماذا كان يفيد تناولي للماء من زمزميتي العسكرية القديمة المعلقة برقبتي؟ كنت سأنضح عرقاً أكثر فقط. وحزّ في نفسي أيضاً أن «سيباستيانو» أفلت مني، وراح يسبقني، وكأن بيننا اتفاقاً مسبقاً على المكان، ماضياً بخطوات رياضية نحو الطريق، التي تصعد إلى الأعلى باتجاه تل أصفر يميل إلى الاحمرار في منتصف الطريق بين كوخ البروفات المسرحية وغرفة الموتى، والتي منها كان يمكن رؤية البحر. كان يمشي في المقدمة فاتحاً الطريق لنفسه بواسطة فرع شجرة على هيئة شوكة بينما يطأ بقدميه -متعمّداً- على ما تبقى من موتى

القيظ: ثمرات صنوبر منزوعة البذور، وفستوكة مُقشرة، وجراد ميت، وأشواك حادة كأنصال السيوف. كان المكان يبدو وكأنه مقبرة مهجورة، وصورة مماثلة لغدنا. كانت تلك الأشلاء تبدو لي نذيراً لا لبس فيه، مما حدا بي إلى الابتعاد عن طريق ذلك البستاني ذي المريول الجلدي العازم على جز العشب بمنجله، رغم علمي أنه لم يكن ليسألني شيئاً آخر زيادة على ما كان يطلبه مني عادة من تبغ ونيران. غير أني مع هذا كنت أخشى من ظلاله المقوسة، وما يبدو عليه من سرعة القصابين.

انتبهت إلى أن تلك كانت المرة الثانية، خلال أيام قليلة فقط، التي استشف في رسم أو مشهد مّا، مررتُ به مصادفة، نبوءة تصيبني بالخوف، مما يدفعني إلى الفرار تجنباً للفأل السيئ. ففي المرة السابقة، وحتى أنجو بنفسي من فارسة الموت، كان كافياً أن أسلّم حالي إلى سائق التاكسي وإلى عدّاده المتصاعد بسرعة جنونية. أما هذه المرة، فقد كلفني الأمر أنفاساً لاهثة، وخطوات إضافية، واتساعاً لفجوة المسافة بيني وبين رفيقي. كان الفراغ والصمت يلفنا. فحتى تلك اللحظة لم نكن تبادلْنا ولو جملة واحدة. لم أكن أعرف ماذا به، أما أنا فمزاجي كان قد توتر بعد أن تحولت من قائد للمسيرة إلى تابع فيها، ولا سيما وأنّه كان ينقصني كالمعتاد الشجاعة والعزم.

وهكذا بدأ هو بالحديث أولاً، حينما لحقت به فوق قمة التل، وجلسنا القرفصاء وراء سور فيه بعض الظل، ولكن أشعة السماء الحارقة كانت تبدو على وشك العودة لتتجه نحونا.

قال لي: «إذن، لمَ جعلتني أصعد معك إلى هنا؟». لم أشعر بأن عليّ

الرد على تلك التهمة البريئة، ولكني سألته برقة عن أحواله، وأخبرته أننا كنا نشعر بالشفقة من أجله، وطلبت منه أن يفضي بما في صدره. تجاهل كلماتي بأكملها، وراح يشير بإصبعه ليعرض علي ضخامة جبل «بيلّيغرينو» في نهاية الأفق، وليريني البحر عند سفحه، الذي كان يرسل لتعرضه للشمس (التي بزغت من وراء السحب وكانت تقصف البحر بعنف وعن قصد من عليائها) بسهام من نور غامض، تشبه إلى حد مّا تلغرافات المرايا العاكسة التي يبعث بها جنود سلاح الإشارة في ما بينهم من تل إلى آخر.

قال لي: «هناك، حين كنت صبياً وكانت لي رئتا غواص، كنت أستحم في مياه البحر. فما زلت أرى أمامي ظلمة قاعه، حيث تشعر على حين غرة أثناء غوصك في أعماقه وكأن شيئاً ما قد بتر ساقيك، فلا تدري إن كانت تلك دوامة متجمدة، أو مخالب أحد السرطانات البحرية. فلتتخيل قليلاً روعة ذلك القبر السُلطاني! هناك بين أربعة جدران من الماء، بعيداً عن مسحوق البارود، والفتيل، وزلزلة الأرض وتراقصها تحت قدميك... أتتخيل؟»). أنهى حديثه موجهاً سؤالاً لي، كانت تلك طريقته في الحديث، رغم أني لم أبادله الحوار، واكتفيت فقط بالابتسام. ففي الحقيقة كان لـ«سيباستيانو» صوت غريب أجش، بنبرات فظة. أحياناً، وبدون سابق إنذار، عند لحظات التوتر الشديد، تنتابه رعشة قوية، ولعثمة سرعان ما تغشى المقاطع الأخيرة لكلماته، فتجعلها تتواثب كالخيل أمام صليب «القديس أندريا»، مما يثير ضحك من يستمع إليه، ويثير فيه هو ارتباكاً في الكلمات، التي تتحول إلى

صيغة استفهام، ما لم تتحرر من فمه عبر رذاذ وسباب عظيم. وحتى أدخر على نفسي هذا، أدرت ظهري له، وتنحّيت عنه بضع خطوات، وانبطحت أرضاً مولياً وجهي للتراب، فأعاد ذلك الوضع إلى ذاكرتي رشاقة جسدي حينما كنت في أوج صحتي أيام خدمتي في سلاح المشاة. أشرت له بإصبعي هذه المرة إلى بناء «روكا» الممتد أمامنا من المخازن إلى المداخن.

قال لي: «إنه بشع، أليس كذلك؟»، ثم استطرد بينما يخلع نظارته: «إنه بيتي، أعرفه عن ظهر قلب. إني أقطنه منذ أربع سنوات بالضبط. إني مريض مزمن بطيء. لقد جئت إلى هنا قادماً من جبهة الحرب مباشرة، وقد كنت هنا حينما قامت قاذفة جوية «بوينغ» بقصف المكان ظناً منها (أريد أن أصدق هذا) أن الصليب الأحمر المرسوم على السطح كان زائفاً. أو لعلها كانت تريد تنظيف المكان من هذا البناء، فلا بد أنه يبدو قبيحاً أيضاً من الأعلى، كزبل بقرة فوق التل».

قلت ساخراً دون اقتناع: «يا له من تشبيه جميل». فقد كان مشفى «روكا» في الحقيقة، عند مشاهدته من على سطح الأرض، بديناً وقصيراً على هذا النحو، خلف سور من النخيل. وكان يلوح لي الآن شيئاً مختلفاً عن دير «الأسكوريال» المضطرم الذي كان قد تراءى لي لأول مرة من خلال قضبان البوابة، حين ألقت بي عربة أمامه في غروب أحد الأيام[1]. فقد كان مشهده يوحي لي بأطلال خربة، أو بجثة حيوان يسيل

(1) يشير الكاتب إلى مبنى مكتبة «الأسكوريال» الشهير في العاصمة الإسبانية «مدريد» الذي تعرض إلى حريق كبير في عام 1671م. (المترجم)

من مسامه خَبَثٌ ذهبي جاعلاً أجزاء هيكله العظمي المفكك تتعرى الواحدة منها تلو الأخرى. أما تلك الشرفات الناتئة، التي كان يراد منها أن تبدو كحدائق معلقة أو تحصينات عسكرية، فقد كانت تبرز الآن من أحجار «المايكا» و«الخفاف» اللامعة، كشرفات متهالكة متداعية، تطل منها هامات سجناء بثياب مخططة من وراء قضبان عمودية سوداء.

وبينما كنت ألوّح بمنديل للأشباح الضئيلة التي أراها في الأفق، على سبيل التسلية الغريبة فقط، ودون انتظار لإجابة، استأنف «سيباستيانو» حديثه: «إنها أربع شمعات لأربع سنوات. أليست تلك مناسبة جديرة بالاحتفال بها؟ فلنُعِدَّ مأدبة للبكتيريا المحتشدة في مَجْمَعها الكنسي، على شرف رئيس الأساقفة والحبر الأعظم، قداسة البكتيريا رقم واحد. حجمها لا يزيد على خمسة على مئة من المليمتر، ولكنها لا تزال في عنفوانها نشطة مثلما كانت حين استنشقتها للمرة الأولى. تُرى كيف وصلت إلي، عبر بصقة من عجوز، أو قبلة من عاهرة، أو على جناح الريح؟ وكيف لي أن أعرف! أكان تلقيحاً بشرياً أو هوائياً...؟ يا لها من وثبة! ولكن، أقفزت من تراب الطريق إلى حلقي المتواطئ مباشرة؟!».

كان على وشك الذوبان من الحرارة، وكان حديثه غريباً وطريفاً بما يكفي لكيلا يُصيبني بالملل. لم تسبب لي نبرته المترعة بالتفخيم والمبالغة الخطابية الإزعاج، فلطالما راقت لي تلك الطريقة في الإلقاء. لكن لم يَرُق لي كثيراً ضحكه المتواصل الذي أعقب حديثه، الذي رحت أُسايره لمجرد المجاملة فقط. في الوقت ذاته كنت أتطلع إليه. لا بد أن الحمى كانت قد داهمته، فزاغت عيناه، ومال لونهما إلى السواد كالعقرب.

أو لعله كان انهياراً عصبياً، فـ«سيباستيانو» كان معرضاً لأن يحدث له هذا. ولم أستثنِ احتمال أن يكون مصاباً بقطرة من المرارة السوداء في دمه منذ أن قرأتُ (قبل أن ينتزعها من يدي) المقدمة الطويلة لرسالته الجامعية للتخرج التي لم تكتمل أبداً عن قرحة الفراش.

استأنف حديثه، وقد توتر مزاجه: «لقد حدثتك عن قُبلة على سبيل المجاز فقط، ولكن إن كان علي أن أصدقك القول، فأنا لم أمارس الجنس أبداً».

حاولت مواساته فوراً: «إنك لم تفقد شيئاً ذا أهمية كبيرة». غير أني تعجبت من نفسي لأني رحت أفكر إن كان اعترافه ذاك المأساوي في رأيه (أُقسِم على هذا)، لم يكن في الحقيقة كذلك. فكرتُ بأنه ما دام موتنا محتوماً، فهل سيكون ألم اشتياقي إلى تلك الملذات القليلة التي تمتعت بها أشد وأوقع من ألم معاناته لأنه حلم بها فقط؟ حينها استطرد قائلاً وسط مشاعر بالحرج والصلف: «فلتتفهم الأمر جيداً. إني لا أرغب أن تكون صديقاً لي؛ إن كنت أحدثك فليس لكي أسمعك تتحدث أنت أيضاً، بل بالأحرى لكي أمنعك من الكلام». لم أقل له، كما كنت أود، إنه كان قد انتظر وقتاً طويلاً جداً لكي يشفق على نفسه. بيد أني التزمت الصمت، وأصابني التوتر، بينما كنت أفكر كيف ساءت أحوالنا لنجد أنفسنا، ونحن شابان في مقتبل العمر، هنا في هذا المكان، تحت ضوء النهار اللافح، وقد أضحينا متفرجين عاجزين على أنفسنا، بعد أن عدمنا الوسيلة والقوة بأن نقاوم انقضاض فكرة الموت علينا، سوى بوضع عصائب من الكبرياء فوق أعيننا. راودني شعور بالتعاطف

الغاضب لكلينا مثله مثل ألم حارق كان يتصاعد من قعر رقبتي ويشبه، بشكل غير مفهوم، الإحساس بالسعادة.

قال «سيباستيانو» في ما بعد: «يا للخسارة!»، وأشار بعينه إلى النور. رفعت كتفي. استأنف حديثه مجدداً: «أود أن يكون لي ابن، ولكن ماذا أقول؟ مجرد ذكرى أظل على قيد الحياة بداخلها. لكن، لا أحد لي في هذه الدنيا. أنتم أيضاً، وأنت شخصياً، إنها مسألة أشهر فقط. أريد أن أبحث لي عن ابن، طفل من الشارع، لأترك له علامة دائمة بين عينيه. سأصفعه، وأسبه ببذيء السباب الذي لن ينساه أبدا. أريد أن أعيش خمسين سنة أخرى بداخله».

كنت أعرف جيداً هذا النحيب، فقد كان أمراً معتاداً في «روكا» أن يأتي الناس لكي يبكوا حالهم على كتفي، ولكني لم أكن أتوقع هذا منه، ولذا أجبته بقسوة شديدة: «امرأة... إنك بحاجة إلى امرأة»، ثم رحت أزهو بنفسي: «إن لدي واحدة، لا يحتاج الأمر إلى الكثير». توقفت قليلاً ثم أردفتُ: «إنها «مارتا»، أتعرف، إنها الفتاة الرائعة الجمال التي كانت ترقص». قلت له هذا لأن الجميع في «روكا» كانوا يعرفون أني قد همت بها حباً، ولكن لم يكن أحد يعرف بعد أني خرجت معها، ولذا كنت أتلهف على البوح بهذا.

نظر إلي بفضول: «إنها كانت صديقة لـ«أسونتّا»»، وكانت هي التي تمسك بيدها حينما وافتها المنية. إن «أسونتّا» أختي كانت تحبني بشدة، وكانت هي أيضاً تقول إن امرأة كانت ستساعدني، وفي كل مرة كنت أذهب لزيارتها كانت تعرض علي إحدى صديقاتها وتقول لي بألا

أقترب من «مارتا»؟».

«وماذا كان رأيك أنت؟».

«كنت أريد فقط امرأة بدينة سليمة ممتلئة بالصحة لتعلمني كل شيء قبل أن أموت، وليست واحدة مثلي لنسعل معاً. من ناحية أخرى، كانت شجاعتي تخذلني. أما الآن فقد بات الوقت متأخراً جداً. فما جدوى كل هذا لرجل امرأته أرملة؟». أنهى حديثه بتلك العبارة الساخرة المعتادة بيننا حينما كان يقع أحدنا في خطأ الحديث عن مستقبلنا وكأننا سنظل على قيد الحياة.

عندئذ تذكرت أنني حتى تلك اللحظة لم أقم بواجبي كرفيق ودود حقيقي، فقلت له متحمساً: «لكننا أحياء! في هذه اللحظة أنت لا تزال حياً. فلتنظر إلى النور كيف يهتف بك في حدقتيك. إنك حي، أليست هذه حقيقة؟ إنك هنا والآن، في هذا التجويف الصغير من الفراغ الذي يملأه جسدك، الذي تمتلكه أنت وحدك في كون الأكوان، أليس من المحتمل أن تكون أنت إلهاً أيضاً؟ هذه هي المعجزة وهذا هو السر...!».

كنت قد تخطيت حدودي فقام بمعاقبتي على الفور منشداً بصوت خفيض: «يا شباب، يا شباب، يا ربيع الحسن الخلاب!»، ثم أردف: «لم أكن أعرف هذه الأبيات الشعرية الخيالية. فلتكتب لي الكلمات، أود غناءها في حفل أعياد الميلاد، عبر مكبر الصوت بينما أرتدي زي الجندي المجهول!».

حينئذ عدت إلى صمتي حزيناً يائساً ومتعباً حتى من رؤيته يلعب لعبة «جوز وفرد» مع نِصفيّ نفسيهما، الأحمق والملعون، كلاهما

مصطنع زائف، ككل شيء آخر، بل وحتى ذاك الصمت الذي كان يلفنا في ما يشبه قاعة الانتظار حيث قادنا المصير لنلتقي. لبثنا هكذا لبرهة، إلى أن سمعته يضحك بمفرده ببلاهة، وانتبهت إلى أن شيئا مّا كان يحيق به. كان قد نهض على ركبتيه، وانحنى فوق جحر للنمل، وأخذ يتقمص معها دور «المصير» (لا أدري في أي جزء بالضبط من أوبرا «الحظ أو القدر»). راح بطرف فرع شجرة صغير يصيب جموع النمل بالجنون تارة، وتارة أخرى يتركها لتهدأ فتعيد ترتيب صفوف جيشها من جديد.

قال لي: «لقد أخبرتني أنت أنني إله»، ثم هوى بقبضة مطبقة قوية فغرسها في التراب مدمراً جحر النمل وسراديبها ومخلِّفاً وراءه تجويفاً أسود امتلأ قعره بأشلاء متداخلة لا حصر لها من أقدام النمل وقرونها.

قال لي: «مرحى... أتشبه مذبحة «دريسدن» تلك أو «نغازاكي»»! والتفتَ في الوقت ذاته نحو دودة سوداء كان قد أمسك بها، وراح يعذبها تحت ظُفره، ويطعنها في بطنها، ويرفعها بطرف عصاه ثم يتركها لتهوي بقوة. وفي النهاية، وبحركة خاطفة فجائية، أخرج عود ثقاب من جيبه، وأشعل النار فيها.

لم أستطع منع نفسي من توجيه لكمة له بينما كنت أستمع إلى طقطقة احتراق جسدها. فانقض عليّ، وأخذ يسحبني على العشب، دون أن يكون لدي لا الرغبة ولا الهواء الكافي في صدري لإيقافه. خلّى سبيلي بعدها من تلقاء نفسه، وبينما كنت أنفض عن ثيابي التراب، كان يعبر عن ألمه الشديد ضارباً برأسه وبقبضته الأرض باكياً بصوت أجش في

مشهد موجع حزين...

لحسن الحظ، في تلك اللحظة، وعلى غير ميعاد، راحت تمطر فوق رأسينا قطرات ثقيلة قليلة، ساخنة كالقطران، مما دفعنا إلى أن نهبط إلى أسفل التل، وأن نبحث في البداية لأنفسنا عن ساتر أسفل سقيفة غرفة الموتى. أجبرتنا بعدها رائحة كريهة لعسل عَطِن تفوح منها، رغم أن ميت الليلة الماضية كان محفوظاً أسفل ألواح من الثلج، على أن نأوي إلى الجهة الأخرى من التل خلف العنبر الذي كان «الماغرو العظيم» يستخدمه كمسرح يعدّ فيه سراً الممثلين لعروضه.

كان الركض تحت المطر قد أنهك قواي تماماً. وبينما كنت أزفر صفيراً كزعيق بوق سيارة كان صداه يتردد في أذني، ارتميت لأستند إلى الباب. انتبه «سيباستيانو» أن الباب لم يكن مغلقاً بإحكام، وأنه كان على وشك السقوط لفرط اتكاء ظهرينا عليه. لم يكن أمامنا شيء آخر سوى الولوج إلى الداخل معاً، وقد تصالحنا بشكل أو بآخر جراء الإنهاك، أو لرغبتنا المفاجئة في الاستكشاف. كان الضوء والظل موزعين بانتظام في جنبات المكان الرحب المكتظ بقطع الديكور المسرحي، وبصناديق الثياب، وبأكياس من الجوت، وبأدوات البستنة. لم يكن هناك أحد، ولكن كان ثمة، في ركن متوار، خلف هرم من الحبال، فراش صغير على الأرض أثار شكوكنا. كانت هيئته تدل على أنه استعمل حديثاً، وكانت به بعض من آثار لمادة لزجة وشعر، وكأنه فراش عرس هجره صاحباه عند الفجر. أومأت إلى «سيباستيانو» حتى أحافظ على هدوئي وثباتي وعدم اكتراثي بالأمر. في اللحظة نفسها كنت أصوّب النظر

في كل اتجاه على غير هدى، بينما شوكة مّا -لا أدري أهي شك أو غيرة- راحت تخز قلبي. كان «سيباستيانو» أسوأ مني حالاً. صار وجهه شاحباً وكأنه ارتدى قناعاً غامضاً لطفل على وشك البكاء. أدار لي كتفيه، وراح يهمهم: «حتى حينما يسلبونني كل ما لدي، أرغب أيضا في أن أُهدي شيئاً».

لم أفهم ماذا كان يريد بقوله هذا، ولكنني وضعت يدي على كتفه، وقلت له في شفقة: «ستتجاوز هذا».

حين عودتنا، وعند عتبة غرفة الطعام، كان «أديلمو» في انتظاري، ومعه خطاب من «مارتا». لقد قررت أن تلتقيني ثانية، وكان موعدنا يوم الأحد التالي.

-11-

كان يوم الأحد ذاك، الثامن عشر من شهر أغسطس، واحداً من ثلاثة أو أربعة أيام في حياتي أُعيد تمثيل أحداثها كاملة حينما أنشد بلوغ نشوة الحياة مجدداً. سأوضح الأمر: إن لي علاقة فاسدة وغريبة بالماضي، فأنا أجمده بداخلي، أداعبه دون توقف، كمن يداعب جثامين أحبائه. هناك وسيلتان معتادتان لاسترجاع الماضي، وأنا أستعمل كليهما. في البداية أزور نفسي كسائح غريب، فأتوقف بهدوء دون عجلة أمام كل قطعة فسيفساء، أمام كل تحفة قديمة؛ وكأني قناص ذكريات حريص على ألا يبث الخوف في طريدته. في ما بعد، أُنحي هذا السلوك المهذب جانباً، فأرجع إلى الخلف، إلى الماضي، داخل أعماق نفسي، بأعين قاسية لا شفقة فيها، متأهبة لأن تخطف وتركض. وحتى لحظات حياتي تلك التي أُفلح في انتزاعها من قبر الذكريات -فكم لحظة عشتها لكي أستطيع تذكرها!- ليس بوسعي أن أستخرِج منها أفكاراً، فليست لي رأس قوية، والأفكار إما تخيفني أو تنهكني. فلا أجد شيئاً آخر سوى ومضات... ومضات من النور والظلال، بقايا قليلة لأحداث ماضية ظلت مختبئة بصحبة ملايين الأمور الأخرى، لسنين وسنين، في تجويف غير مرئي، هنا في أعلى الجبين... أحياناً مّا أشعر أن شيئاً قليلاً يكفيني، بعضاً من القوة، أو شيطاناً وسواساً... وسيكون بوسعي اختراق الجدار، وسأنال، أنا، معجزة إعادة حياتي من جديد. إنه بمثابة بعث رائع لي، أنا يا مَن يثير الموت حنقه، والحياة فزعه.

أكون أو... هذه هي المسألة. وحيث إنه لا عمل أو سحر إلا وخَيب رجائي، بل حتى تلك الأشياء المعدودة التي تفلح في العودة مجدداً من مستودع الذكريات لتراود جفنيّ، ففي اللحظة ذاتها التي تضيء وتتلألأ، تصيبني بالعمى، ولا تترك لي في النهاية سوى كلمات متفرقة. لا يهم إن كانت تلك الكلمات هي ذاتها البدينة الساخنة والرطبة، التي كنتُ وما زلتُ إلى الآن أملأ بها فمي، بين شعور بالغثيان وآخر بالنهم، كمن يقف على خشبة المسرح ليغني لأول مرة. وبينما أتوكأ بكوعي على القضبان الحديدية لسجني، تبرز رأسي شاخصة إلى الأسفل، إلى الحركة الدؤوبة المتوترة والمضطربة، إلى النباح الغاضب والعاشق للحياة، إلى الأفراح، والبذخ، والبيارق، والدموع، والخزي، وإلى حصانة من العقاب غير منتظرة، وإلى العقوبات المفرطة، وكل الحروب، ومحاكمات ألم ضد ألم آخر... لعلها صور مجازية، ربما، لكنني لم أكن أعرف إلى أي شيء ترمز. بل لعل تلك الصور السينمائية للأحداث والذكريات عرضية أيضاً، فلا آلهة أعدتها أو أمرت بها، لأنها لاحت لي واختفت سريعاً كلمح البصر، كرذاذ عاصفة ما لبث أن سقط حتى تلاشى.

لم يكن أمامي مفر إذن من أن أعقد «مزادا»، وأن أعرض نفسي للبيع كثرثار فصيح ونبيل: يا سيدتي ها هو الكتالوج (به كل ما بوسعي فعله. فما زلت قادراً على الشهوة، والجنون، والممارسة. وما زلت قادراً على القتال أيضاً، ولو بقدم أو حتى بكلتيهما عالقتين في حفرة القبر، وحتى لو كان على الحركة معرضاً نفسي لخطر التفاف

القيد الذي صفدوني به حول عنقي ليخنقني)[1].

في ذاك الصباح الجميل ليوم الأحد، كنت أحلق ذقني مرتدياً فانلة، وأتطلع إلى نفسي بشكل أو بآخر في زجاج الشرفة، وأصدر صفيراً لموسيقى «فيردي» بغرض المزاح أو الجنون مسبباً الإزعاج للجميع. لم أستطع تجنب الاستيقاظ ليلاً لعشر مرات، لأرنو إلى الساعة الفوسفورية اللامعة الراقدة فوق الكومودينو. لم أستطع منع نفسي من أن أحلم بها أثناء الفترات المتقطعة لنومي، وأن أراها في أحلامي كما كانت في ليلة العرض المسرحي في مشهد الصعود إلى السماء، الذي يُطلق عليه الراقصون مشهد «المنطاد» لأن الراقص يقفز في الهواء إلى الأعلى وإلى الأسفل.

كان مشهدها المسرحي ذاك يمتزج بسلاسة بمشاهد أخرى لي في عيد الفصح في القرية حين كنت أطالع ممتطياً كتف أبي مناطيد لجِمال ملونة، ونساء حوامل، وبراميل بجوف واسع بينما ترتفع عالياً في الهواء، وكأنها سرب كبير من طائرات من ورق شفاف، تنفخ فيها النيران هواءً، ولا تلبث أن تدفعها رياح واهنة داخل جوف أحد السحب...

كنت أقول لنفسي، ها قد حلقت ذقنك، ليس دون سفك دماء، وأشرطة طبية لاصقة ذكورية رائعة. هممت بالانصراف، وقد شعرت بالكاد برعشة عدم شفقة حين رؤيتي للنعش الضخم ذي المقابض

(1) هو كتالوج أو قائمة مغامرات «دون جوان» التي كتبها خادمه «ليوريلّو» (أوبرا دون جوان لموزار المشهد الخامس من الفصل الأول). (الكاتب)

النحاسية، الذي كانت تدفعه اليدان الناعمتان للراهبة «كازيميرا» فوق إحدى العربات في الردهة. لم يكن المتوفى الذي كان سيشغله من زمرتي، ولذا فقد رحت أسير بهمة لألحق بالمجموعة التي كانت ستخرج من المشفى والمنتظرة أسفل السلم. كنت أخطو بسرعة جعلتني أصطدم اصطداماً مباشراً بالعظام الواهنة لل«ماغرو» فسقطت منه عدستاه اللتان كان ينظفهما بمنديله.

سألني، بينما كان يلتقط إطار العدستين: «أأنت في عجلة من أمرك؟»، ولكنه راح يلح عليّ بعد أن سمع مني همهمة غامضة: «أجل أو كَلاّ؟».

ولأني شعرت بأني قد حوصرت بين إجابتين قاطعتين، اخترت أكثرهما تهذيباً، عن غير رغبة، ومع إصرار مني على ألاّ أدع الطبيب يعطلني أكثر من بضع دقائق أخرى.

قال لي: «هل يمكنك أن تقوم بمهمة لي في المدينة؟ سيكون عليك فقط أن تهبط إلى الميناء» وفي الوقت نفسه أخذ يضبط هندام صدريته الحريرية التي اضطربت جراء التصادم والتي تجعله يشبه المرابين.

«بشرط ألا تأخذ مني وقتاً كثيراً!»، أجبته ببرود رغم سعادتي بغصن الزيتون المسالم الذي كان يبدو أنه يقدمه إلي عقب أسابيع من التحفظ والمشاكسة. وكان بي فضول أيضاً لأن المهمة الأخيرة التي طلب مني أداءها له أثناء خروجي كانت غريبة جداً: فقد كان علي أن أتجسس على زوجته عند خروجها من كنيسة «مارتورانا» بعد قدّاس الأحد، وأن أخبره بما كانت ترتديه، وإن كانت تضحك، أو كانت تتأبط ذراع عشيق لها...

ولكن هذه المرة، لم تكن كذلك، وحينما سألته: «ماذا تريد؟» لم يفعل شيئاً آخر سوى أن أمرني بصوت كان يتقوس عند أذني: «فلتلق بنفسك في البحر!». كان صوته متهكماً أجش وحانقاً به نهم للشجار، ولم يكن بوسعي إلا أن أرد عليه قائلاً: «فلتلق بنفسك أنت فيه!»، بينما كنت أركض سريعاً لموعدي الغرامي ومفلتاً هكذا من قبضة يديه.

عند البوابة الرئيسية قال لي الحارس «كارابيلّو» الذي كان يعشق التحدث بلهجته القديمة: «هيا، هيا، في الحركة بركة، إن الطحالب لا تنمو فوق الحجر المتحرك!». رحت أمضي مبتسماً بينما أقول لنفسي إن الطحلب الصلب الذي احتل صخرة روحي كان بحاجة إلى أكثر من مجرد نزهة أسبوعية في المدينة لكي أقتلعه. وبينما كنت أتوجه نحو محطة الترام، لم يكن بوسعي سوى أن أشعر بالشفقة عند رؤيتي لشاب صغير كان قد هبط تواً من الحافلة، يبدو عليه التردد، فقد كان بالتأكيد أحد النزلاء الجدد في ديرنا، وقد أتى ليحل محل الجثة التي على وشك الخروج. كان يعتصره ألم شديد، وهو يحمل حقيبة مشابهة تماماً لحقيبتي، وعلى كاهليه وطأة شبابه المعتل، كثقل جبل يتهاوى. سألني بصوت رفيع ومتلهف: «هل الدخول من هنا؟». أجبته مؤكداً بإيماءة من ذقني، ثم تركته أمام البوابة، يحمل صندوقاً في يد، وفي اليد الأخرى يمسك ببراءة بمستندات قبوله بالمشفى: مظروف أصفر مكتظ بأوراق لتاريخ حالته المرضية، وتشخيصها، وتوقعات تطورها...

إن انتظار امرأة...! ثمة متعة مّا في عذاب انتظار من لا يصل أبداً. إنه شغف جذاب يشبه مذاق الخسارة في اللعب، قطعة نقدية وراء أخرى،

ودقيقة تلو أخرى. كنت أضيف تلك المتعة وذلك المذاق إلى خيالاتي بينما أتكئ على جدار «من رأى هؤلاء الرجال؟»، والمعلقة عليه صور لجنود فُقدوا في الحرب، بينما الوقت يمر ولا أثر لـ«مارتا»، هناك بجوار كُشك المشروبات والمثلجات الذي كانت وعدتني أنها ستلتقيني عنده.

لم تصل بعدُ، وكنت أنا غارقاً في التفكير، بلهفة ذات طعم حامض بشع لاسع، في أجزاء جسدها التي تفرز أشياء شتى، في بصقها، وعرقها، ودموعها، في فيض نزيفها الدموي الملعون، وفي بصقها الرائع للدماء. يا له من أمر غريب أن تهوى جسداً يأكل، ويفرز، ويُفرغ نفسه، جسداً مغطى بالزغب وبالبثور وبجزر «مالبيغي»[1]. كنت أردّد أسماء ومصطلحات تعود إلى أيام دراستي الثانوية قبل الحرب، وقد رحت أتذكرها رغم صخب السنين عساها تعينني في اكتشاف التركيب الجيولوجي لهذه المقبرة الرطبة من اللحم، متسلحاً بمثابرة القائد الذي ينحني ظهره فوق خارطة لأراضي العدو، في الليلة السابقة على الغزو.

وبينما أنا مستغرق هكذا، اندهشت لرؤيتها فجأة بينما كانت تعبر الطريق، ليس فقط لخطواتها الحريصة للغاية، والتفاتها لمرتين لتنظر خلف ظهرها، بل لأنها كانت تبدو وكأن الأرض انشقت عنها من جهة لم أكن أتوقعها، ومن فتحة جانبية لم أكن أعرف أين أوّلها من آخرها.

اعتذرتْ مازحة: «لقد سلكت مساراً أطول. كان علي أن أبلغ الشرق عبر الغرب»[2]. أردفتْ: «كان معي في القطار الممرض

(1) الطبيب والباحث الإيطالي الذي اكتشف طريقة عمل الرئتين، وأعطى أسماء للعديد من الخصائص والأجزاء الفسيولوجية. (المترجم)

(2) الجملة التي رددها «كريستوفر كولمبوس». (الكاتب)

«بانزيرا»، الروح السوداء للطبيب «غريفيو»، وكان يحدجني بنظراته فظننت أنه يلاحقني».

انتبهتُ سريعاً أنها لم تكن تطلق على الطبيب اسم «الماغرو العظيم»، بينما كنت ألاحظ باهتمام شديد فستانها القصير من قماش الأورجانزا ذي اللون البنفسجي الفاتح والمرقط ببقع بيضاء، والذي كانت تبرز منه ذراعاها الصغيرتان الحاسرتان والشاحبتان، ورقبتها الرفيعة، ووجهها الذي لم أكن أدري أكان يبدو عليه الفخر أم النعاس. كانت حدقتاها كفراشتين ترتجفان، بينما كان كل شيء تنطق به شفتاها المنتفختان والمقوستان يبدو وكأنك تسمع موسيقى رائعة لرقصة قديمة.

فكرت فيها، يا لها من غلاف أنيق فاخر لكتاب من الروث والمستنقعات الموحلة الكريهة! وكم أشعر بالغثيان منه وبالحب نحوه! أمسكتُ بيدها، وسحبتُها ورائي على الرصيف حتى كادت تركض. كانت تحتج، وتضحك، ثم تترك نفسها قليلاً للانقياد لي، حتى انتابتها نوبة سعال شديدة مفاجئة أرغمتني على التوقف، والجلوس بجوارها كالصبية المراهقين فوق درجات سلّم إحدى الكنائس.

انتبهتْ حينئذ أن كعب حذائها كان على وشك الانفصال، فغضبت مني، وسبّتني لهذا، دون أن تستطيع التوقف لا عن السعال ولا عن الضحك، بينما كانت تضع من وقت إلى آخر فوق فمها منديلاً من قماش «البتيستا» طرّز عليه حرف لم يكن بالتأكيد حرف «الميم». حدثتُ نفسي، كقارئ متمرس للقصص البوليسية: إنه ما كان علي التسرع في الحكم، فقد كانت ثمة إشارات عديدة وظاهرة أكثر من

اللازم.

خالجني شك في أنها كانت تبغي، ربما حبّاً للألاعيب أو للغموض، أو لعلها فقط رغبة منها في أن أزداد هياماً بها، أن تثبت لي أنها بطلة للغرائب وللألغاز الغامضة كما كانت تعشق رؤية نفسها في عالمها الخيالي الملائكي إلى وقت قليل مضى. لذا لم أصدق بتاتاً المسحوق الأبيض الذي كانت قد دسته خلسة في فتحتي أنفها بعد أن أخرجته من كيس صغير في حقيبة يدها. لم أكن أصدقها، ولعل ذلك كان أفضل، وإلا لكنتُ مهّدت لها الطريق لتواصل ألاعيبها تلك.

في ذات الوقت، كان من الضروري أن تصلح حذاءها؛ رغم أنها تباهت فوراً باستعدادها للسير حافية في الهواء دون أن تمس الأرض، طائرة فوق بحيرة الأسفلت، مثل «تيتانيا» أو «بيري»[1] (كان عليّ أن أختار). أعلنت لي قائلة: «إني أسير فوق الماء، إني أحلق في الهواء، إني معتادة على الإتيان بالمعجزات!».

طفقتُ أبتعد سيراً على قدمي بهدوء تاركاً إياها جالسة لبضع دقائق، فناديتُ على إسكافي الحي في بيته المتداعي حيث كان محل نومه وعمله، وقد كان سعيداً بربحه للقليل من المال ربّما لأننا كنا في يوم عطلة. وبينما كان يصلح الحذاء، جعل يقدم لنا حكماً فلسفية مجانية إضافية بشيء من الفخر لأنه كان يصبها في أذن امرأة أجنبية جذابة. أضحكتها كثيراً

(1) «تيتانيا» هي ملكة الجنيات في مسرحية شكسبير «حلم ليلة صيف». أما «بيري» فهي الشخصية الرئيسية لعرض موسيقي راقص يحمل الاسم نفسه عُرض للمرة الأولى في عام 1843م في باريس وتظهر فيه البطلة على هيئة حورية طائرة. (الكاتب)

إحدى نوادره، وكانت حكاية «فيراتسانو» أو أحد الحمقى الآخرين (لا أذكر!)، الذي أفلح في أن يجعل الموت يلوذ بالفرار بعيداً عنه واضعاً الملح فوق ذيله[1]. لكن جبينها سرعان ما تقطب لي حين سألت الرجل إن كان معه بعض الملح ليمنحنا إياه. أرادت بعدها أن نذهب -رغم بعد المسافة- لمشاهدة مسرحي «ماسيمو» و«بوليتياما»، الذي داعبتْ بيدها بوابته وكأنها تداعب وجنتها.

جعلتها ترى الأعمدة القائمة في الأعلى، وأخبرتها: «لقد نُحتت من حجر جِيء به من بلدتي. لقد كان لجدّي محجر مشهور في جزيرة صقلية كلها، وكان هو من أحضر إلى هنا القطع الضخمة لكي تُنحت. لقد طوى الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، فوق إحدى الزحافات الخاصة ببناء الأهرامات، المصنوعة من الحبال والعجلات تجرها عشرة خيول. ثم فُتحت أمامه بعدها كل الأبواب...».

راقت لها هذه الحكاية أيضاً، ولكن لمزاجها المتقلب قاطعتني قائلة: «إنك لا تثير دهشتي وإعجابي. لقد التقيت بأدلاء أكثر مهارة منك أمام مسارح أكثر جمالاً من هذا. لم يكونوا يُظهرون في عيونهم تلك النظرات الشهوانية المتلهفة التي أراها في عينيك».

أدركتُ حينها بأنها قد أهانتني، ولذا لفّتْ ذراعها حول ذراعي.

وهكذا جعلنا نسير دون وجهة لساعات، ورغم أنها كانت مصابة بالحمى، لكن يبدو أنها كانت تتحمل عناء التنزه. بل إنها كانت تجد في النزهة طوراً وسيلة لإثارة المرح، وتارة أخرى فرصة لتجتهد كعادتها

---

(1) أحد الحمقى المشهورين في الحكايات الشعبية الصقلية. (الكاتب)

فتحوّل أي شيء، أو مجرد حدث عادي، إلى رمز لشيء مّا. فحدث مثلاً أن انتقت من إحدى الطاولات الموجودة في الطريق كتابين كانا يبدوان لها مناسبين لحالنا معاً، وأهدتْني إياهما. كان أحدهما متفسخاً ومتسخاً لكاتب اسمه «ماتيا نالدي» وكان يتحدث عن مرض الطاعون وعن كيفية تجنبه في عام ألف وستمئة بعد الميلاد. أما الكتاب الآخر الذي احتفظتُ به، وها هو أمامي الآن، فقد كان لكاتب مجهول من القرن التاسع عشر، وكان دليلاً للمشفى الملكي للمرضى النفسيين في «باليرمو»، كتبه مجنون في فترة النقاهة، وطُبع بمطبعة «البناؤون القدماء»...

حان منتصف النهار، فأخذنا نبحث لنا عن مطعم. وأمام أحد الأطباق، وبينما كانت تحملق في الملعقة التي تمسكها يدها، استأنفت «مارتا» حديثها البطيء، الذي كان بين حين وآخر يقطعه السعال:

«أجل، إن التحاليل تطمئنني، ويقولون إنهم يصرحون بالخروج فقط للمعافين. ومع هذا فأنا أشعر، بل أعرف، بأن كل نَفَس أتنفسه هو سُم، وأن كل شيء ألمسه ويلمسني تصيبه العدوى، بل حتى عتبة بوابة مسرح «بوليتياما»، بل وهذه الملعقة أيضاً. أحس وأعرف بأنني أنشر الموت، وأمسح به الأشياء في كل مكان: جص الجدران، والمناديل، وحواف الأطباق. غالباً ما تخطر ببالي فكرة استخدام قدراتي الجبارة كحاضنة وناقلة للمرض، فأرى نفسي قد اقتحمت أحد البيوت السعيدة، وبصقت بحماسة وإصرار على الجدران الأربعة لكل غرفة،

على أكياس الوسادات، وعلى قارورة الرضاعة... تُرى، ما الذي جعل فكرة كهذه، مع ما تحتويه من سذاجة طفولية وشر شنيع، تنمو بداخلي حتى خرجت لترى النور. فمن أي سراديب قبور أو سجون فرت لتأتي إليّ؟ إن دهشتي من نفسي تزداد دائماً».

قاطعتها: «أتعرفين كيف نقول «نقل العدوى» في لهجتي المحلية؟ إننا نقول «أمسيكاري» (المزج)، أي أن تمتزجي مع أحد آخر، أقصد أن تُفرِغي نفسكِ في أحد آخر. لعله تمازج روحي يشبه اندماج الإنسان مع يسوع عبر طقس المناولة؛ وتشابك جسدين عاشقين على الفراش».

وبينما كنت أحدثها قبّلتها أمام الجميع في محاولة مني أن أجعل من مشاعر الحزن التي كانت تجتاحها، وتؤرق أفكارها ضحكاً وإقبالاً على الحياة، فقد كنا هناك سوياً في نهاية الأمر لكي يتحول ذلك الحب إلى شيء ملموس.

أجابتني بينما كانت تجفف بقوة شفتيها بالمنديل: «عن أي عشق تتحدث، إن الأمر في كل مرة يبدو كاختبار صعب مؤلم أعرف نتيجته سلفاً». ثم صاحت بينما تلمع في حدقتيها ذكرى أعرفها: «كان هذا منذ أن كنت في كوخ السكة الحديدية، منذ تلك الليالي التي أمضيتها هناك. أما الآن فإنه يروق لي، بل إني أحبه كثيراً؟». ثم نهضت واقفة فجأة، ووعدتني: «سنفعله في ما بعد... في ما بعد. ولن أطلب منك، كما يفعلون هنا، أن تُبرز لي بطاقة الحصول على المعونات الغذائية! ولكن دعني الآن ألعب. أرغب في لعب «سوليتير» خاص بي بصحبتك هنا في المدينة. ليس هذا «سوليتير» للعب جلوساً على الطاولة، بل سيراً.

لقد اخترعته أنا في الشهور الأولى لمجيئي إلى المدينة حين كنت وحيدة، بلا أصدقاء أو صديقات. كنت أخرج من البيت يوم الأحد لكي أغرق في الزحام، ثم أحملق في أحد الرجال، أولئك فقط الذين كانت تروقني رؤيتهم من الخلف، وتروقني تؤدة خطواتهم، ويا حبّذا لو كان رجلاً فقيراً أو عجوزاً. كنت أتفحصه بدقة دون أن أبدي رأياً، فتزداد معرفتي به وبمصيره، بينما أنا فرحة بمهمتي اليسيرة كمشاهدة غير مرئية، ومزهوة بقدرتي على التحكم به عن بعد، بينما هو واقف بلا حيلة، لا يدري، بين صفين من المارة الصم والبكم. بلغ بي الأمر مرة أن اقتربت من مسكن أحدهم لأتحقق منه. كان عامل قطارات متقاعد. صعدت حيث كان يسكن متظاهرة بأنني عرافة جوالة تقرأ الكف. لعله كان أحد سائقي القطارات الذين كنت أراهم يمرقون ليلاً كالسهم بقطار الساعة الواحدة... أتصدق أن غرفته كانت مطابقة للصورة التي كنت قد رسمتها لها في عقلي عبر ملاحقتي له ومراقبته – كانت مزينة بخطوط وردية باهتة، وبأرضية من القطران وأطباق متسخة في الحوض...».

ولما كان علي أن أُرضيها، أخذت أشاركها لعبتها أنا أيضاً، ورحنا نلاحق رجلاً اقتادنا وراءه، عبر أزقة وشوارع، إلى الميناء، وكأنه كان يريد أن يذكرني بالأمنية المشؤومة لل«ماغرو العظيم»، رغم أنني لم أفكر بتاتاً فيها، ولم يكن ذلك الرجل يبدو لي بأي حال سفيراً بعث به الطبيب لإغوائي. بل بالعكس، كان من الواضح أنه سمسار في الميناء، تتنازع ملامحه مشاعر الحذر والغرور في الوقت ذاته، وكان يرتدي صدرية بحارة مخططة، وبنطالاً يكشف عن كعبين بُنيّ اللون من أثر الشمس،

ويمشي بخطوات تشبه قفزات حيوان. في النهاية فقدناه في زحام سوق السمك. كان قد أصابها الإجهاد، على أي حال، فقعدتْ على الحافة الحديدية لمربط حبال السفن على رصيف الميناء، دون أن تتوقف عن الكلام. كانت تتحدث كمن يروي أحلامه أو رؤية رآها.

ورغم أني أعاني من هذه العادة الذميمة نفسها، ولكني لا أحتمل من يقصّون على الناس أحلامهم. أما معها، فقد كان الأمر مختلفاً تماماً، فكنت أنصت لها بحب وشغف. كانت وكأنها تهذي بجوارك، مبعوثة من عالم آخر، وفي هذيانها الرائع هذا كانت تمطر قدراً هائلاً من الحوارات الأحادية الجذابة والملفقة، مثل مقاطع الأغاني الخفيفة، ومثل مناجاة الشعراء. كانت أحاديثها كرقائق الذهب الزائف، كريش طائر يتساقط، أو كغبار حبات اللؤلؤ لملكة قلوب ورق الكوتشينة التي اُنتزع منها عرشها، بينما تتراءى تحته -بشكل غير واضح ولكنها مرئية- العظام البشعة للموت التي كنت أصبو إلى الوصول إليها، ولم يكن ثمة طريق آخر يحملني إليها غير السيف الغريب للجنس...

أَعَلَيّ أن أضيف أن حركات جسدها هي التي أغوتني بشكل خاص؟ ولما كنت أظن أن تلك الحركات كانت تتراقص على إيقاع موسيقى غامضة، فقد رحت أمد أذني دون جدوى لأستمع إليها، فهل كان تلقائياً مني إذن أن أطلق عليها اسم رقصة تَخَيُلية؟ لكن ما إن رأيت مشهد البحر وراء كتفيها بلونه الأزرق الأسطوري حتى قفزت إلى عقلي صورة حورية البحر، المرأة السمكة، المرأة العصفور، المختبئة أسفل صخور الشاطئ، التي كنت قد قصصت أسطورتها

على رفاقي الريفيين في التجنيد حينما كنا على متن الباخرة. حتى أني لفرط سذاجتهم أخبرتهم بأن الحورية كان قد تم صيدها، وأنها كانت تعيش في نابولي في حوض مائي كبير. أكانت حورية حقاً! أم كانت «كاريبديس»، الغولة ذات القشور والأشواك، الغولة البحرية القاتلة؟ كلا، إنها مخلوقة مسكينة منبوذة يُرثى لها، مجرد عُزلة نهمة مفترسة تسعل بجانبي.

رفعت عينيّ. كانت عربة شرطة الضرائب تسير ببطء بمحاذاة رصيف الميناء، وكأنها تريد تجنب حفر كبيرة في الطريق. عندما مرت من أمامنا، رأيت قبعة حمراء رائعة من القش فوق رأس رجل يقف منتصباً في أعلى العربة وبيديه الأغلال. كانت قبعة غريبة بين القبعات العسكرية الأخرى، ولكن كان لها الحضور القوي نفسه والغبطة لزهرة من الزهور. صاحبته «مارتا» بنظرات بها شيء من الحسد، فبادلها السجين النظر، وقد التفت إليها، وراح يحملق فيها بشيء من الوقاحة والتوهم، إلى أن اختفت السيارة عند منحنى الصوامع مُخلفةً وراءها رائحة نفط كريهة.

علقّت قائلة: «لقد أمسكوا بأحد المهربين. بينما نحن الذين نعيش على تهريب الموت ونشره لا أحد يفتشنا!». راحت تسعل مجدداً جراء تلك الرائحة، ولكنها وافقتْ على أنها كانت أفضل حالاً من الرائحة العفنة للمواد المستحلبة وللقبور التي تشمها حين خلعها لثيابها وراء الساتر في غرفة الأشعة في «روكا».

-12-

أخيراً مضيناً إلى إحدى الغرف التي تُؤجر بالساعة.

اضطجع كل منا بجوار الآخر بعد نشوة الجماع (بدا لي أنني وحدي من راق له الأمر). كان ثمة ضوء خافت يتساقط كقطرات المطر من مصباح الغرفة المحاط بإطار من ورق الجرائد، فيتشتت فوق أجسادنا إلى هالات من الخيط المتشابك والمرتعش كأضواء مصباح سحري تكفي حركة واحدة من يدي لبعثرته.

نهضت بحرص، وتجاوزت كتلة جسدها المنكفئة الضئيلة، حتى بلغت المذياع العسكري القائم بين الجدار والفراش، الذي قد يكون عربوناً دفعه لصاحبة الغرفة جندي أمريكي مفلس. كانت الأغنية الصادرة منه باللغة الفرنسية (فقد كان المؤشر ثابتاً عند محطة إذاعية تونسية). كان صوت خفيض جداً لفتاة سعيدة في البقعة المواجهة لنا في ما وراء ذلك الجيب الصغير من البحر، تطل علينا من مستطيل المذياع المنوّر بالأرقام والأسماء وتنادي علينا لنشاركها الشباب والصحة والأمل:

يا سيّداً أجهله

يحضنني مساء بين ذراعيه...

تطلعت إلى «مارتا». كانت راقدة والملاءة تغشى عينيها: أكانت غريمة مستترة أم كانت غائبة. عدت لأضطجع بجوارها، ورحت

أستسلم للنوم. بين اليقظة والغفلة أحسست بها تنهض فجأة لتسعل، ثم رقدتْ ثانية فوقي وهي تلهث برقة جعلتني أظن أنها ربما كانت تريد أن تخبرني بشيء، ولكن خانتها الجرأة. بينما كان واضحاً أن اضطجاعها هذا كان آخر وأقصى شيء بوسعها عمله.

تلقيت زفيرها فوق جبهتي كريح دافئة متعجلة هزتني قليلاً دون أن تستطيع انتزاعي من قاع تلك الهوة حيث وجه رجل عجوز، كأنه كومة من التجاعيد الثعبانية الكثيفة بين طرفي ياقة قميصه؛ يحملق في، ويومئ لي بالانصراف، بينما ينحني ليلتقط بيد كسولة أحد الأحجار أسفل قدميه. سألته في عقلي: «من أنت؟ وماذا تريد؟». ودون أن أنتظر جواباً منه فتحت عيني لأستعيد اسمي، وجسدي، وزمني، وهوائي داخل تلك الغرفة. كانت الموسيقى تبعث بآخر نغماتها، فلم يكن قد مر إذن أكثر من دقيقة.

حينها كانت قد عادت لتضطجع فوق ظهرها، ويبدو أنها كانت تنظر بإصرار إلى نقطة مّا في ملاءة الفراش عند قدميها، حيث كان يبرز بشكل مضحك، من فتحة فيها، إبهام قدمها ذو اللون الشمعي. كان ذلك هو الجزء الوحيد المكشوف منها إضافة إلى وجهها وعنقها وذراعيها المفتوحتين كذراعي الصليب.

قالت لي في ما بعد: «فليُقبِّل كلانا شفتي الآخر دون خوف، أنستطيع ذلك؟». اكتفيت بالالتصاق بها قليلاً، ورحت أتلمس خلسة بيدي جسدها باحثاً عن فخذيها، وعن النتوءات الخجولة لبطنها ونهديها، عسى أن أستطيع شق طريق لأنتزع قلب الداء المختبئ تحت

تلك النتوءات. قالت: «منذ زمن طويل لم يمسسني رجل. أذكر فقط أُذن الطبيب الباردة تستمع لأضلعي في صباح يوم وصولي إلى «روكا»».

أكانت تقول الحقيقة؟ أظلت بمنأى عن الرجال طوال كل تلك الشهور؟ هي نفسها التي استسلمت لي بكل تلك السهولة واليسر؟ ترددت في تصديقها، ولكني لم أُضِع وقتاً طويلاً في التفكير في الأمر بعد أن باتت عازمة على التحدث، وبت أنا على أهبة الاستعداد للإنصات إليها.

وبينما كانت حواسي في حالة استسلام واطمئنان مثلما يحدث عادة عقب الجماع، حينما تكون وكأنك على متن قارب تُرك ليبحر الهوينى مع تيار النهر، فيما تنصت إلى قلبك، وقد راح خفقانه المضطرب تحت قميصك يهدأ شيئاً فشيئاً. كان يروق لي الاستسلام لإغواء صوتها، رغم استيائي من المكان المزدحم بأشياء دخيلة، بدءاً من خزانات خشبية رديئة أتت عليها السنون، ومرايا ورسومات غرامية فاحشة على الجدران، وانتهاء بمقعد من نبات الحلفاء المبروم على هيئة ضفائر، حيث كانت ثيابنا الملقاة فوقه تضطرب أطرافها مع هواء المروحة، وكأنها ترغب في محاكاة شبح خيال المآتة وهو يرفرف وسط الحقول.

قالت: «لهذا أتيت معك هذا المساء. كنت أودّ الرحيل عن هذا العالم ومعي ذكرى لمسة يد شابة فوق جسدي، بعد مداعبات عجوز كثيرة».

كانت تحاول قليلاً ألا تناقض كلامها. ولأني كنت قد ارتبت بعض الشيء، في ما قالته عن عدم معاشرتها للرجال منذ وقت طويل، لذا فلم

يدهشني سماعها وهي تعترف، حتى ولو عبر كلمات غامضة، بالشيء الذي كنت قد اقتنعت به منذ البداية. لقد عاشرتْ «الماغرو»، سواء أكان هذا لضعف منها أو بقصد الحصول منه على شيء مّا، فوق ذلك الفراش في الكوخ، أو في مكان آخر.

عموماً، لم أكترث للأمر، ولم أعد أبالي بأي شيء في «روكا»، ولا حتى برفاقي الطيبين؛ فقد كان كل منهم برأس فوق كتفيه منتظراً أو مهموماً بالحصول على شفرات الحلاقة والحبال ليحاول الانتحار بطريقة خرقاء في دورات المياه. ولم يعد يهمني ذلك العجوز الأعمى الغضوب، ذلك الحبر المزيف الدجال ببرطله المصنوع من الرماد، والقابع في جوف «روكا»، مثله مثل جراثيمه المزروعة في قطع الجيلاتين في المختبر. كان مجرد التفكير في أني قد خنته يمنحني شعوراً بالرضا، بينما كنت أتحسس ببطء بيدي شعر «مارتا» القصير للغاية.

سألتها: «وشعرك هذا؟».

أجابت: «لقد كان طويلاً فوق كتفي حين وصلت إلى المدينة في فصل الشتاء القارس، ولكن سرعان ما كرهت المدينة، والطاولات المصنوعة من الزنك لمتاجر الحليب، والأدراج الحلزونية لفنادقها الصغيرة، والزجاج الغائم ببخار الرطوبة الذي يشبه سبورة ترسم الأظافر عليها خطوطاً فتمحوها بصبر الكفوف. وحتى اليوم ما زالت الكتابة على الضباب رياضةً تساعدني على تخفيف توتري. بيد أن ثمة نقصاً في المادة الخام للكتابة هنا، ولذا فعلي أن أخلق أنا بزفيري الواهن ذاك القدر الكبير من الغيوم والضباب، إن أردت كتابة اسمي بداخلها

محاطاً بصلبان صغيرة».

كان واضحاً أنها تحب الرثاء لحالها، ولكن دون أن يمنعها هذا من محاولة تشتيت أفكاري باسترسالها وانحرافها عن الموضوع. لذا، فقد كنت منتبهاً لها على قناعة مني بأنها كانت ستعاود اختلاق بعض القصص. لم يكن يزعجني هذا، بل على العكس، فقد بت أعشق حكايتها المسجوعة عن حيوات مفترضة.

قالت لي: «إن اسمي لا يروق لي. أُفضل «إيزادورا» أو «فانّي»، مثل «فانّي إيسلر» نجمَتِي المفضلة، أو حتى «بيرتا»[1]. إنه اسم إحدى السيدات في رواية استعرتُها من المكتبة. فلقد وُلِدتُ لمصير مثل مصيرها، مترع بالحزن وبالاعتداد بالنفس. كان زوجي الأرستقراطي ذو الجنسية البروسية وذو الياقة المصنوعة من جلد ثعلب الماء يمضي يوم السبت في المسرح، والأحد في الصيد في المنتزه. كان بوسعي أن أخونه، ولكن هذا كان سيصيبني بالتعاسة. كانت تلك رواية جميلة لـ«كورميندي»». ثم راحت تصيح بثقة، لم أستطع أمامها أن أصحح لها خطأها[2]».

في تلك اللحظة أخذت تبكي بحرقة: «هل سأموت، يا إلهي، سأرحل! لن أشهد بعد اليوم صيفاً أو رقصات صيفية! لن يتبقى شيء... أي شيء من خطواتي خارج باب غرفة تبديل الملابس في المسرح، من باقات الزهور، ومن القبلات، ومن الأسرار التي أعرفها أنا وحدي... لا شيء... لا شيء...! معذرة! إنه ذنب تلك الأغنية التي سمعناها

(1) «إيزادورا» و«فانّي» راقصتان مشهورتان في القرن الثامن عشر. (الكاتب)

(2) في الحقيقة «بيرتا» هي بطلة إحدى روايات الكاتب النمساوي «أرثر شنيتزلر» وليس «كورميندي». (الكاتب)

منذ قليل. في مساء أحد الأيام سيأتي رجل لا أعرفه بعد ليحملني بين ذراعيه... إنها كلمات لم تعد تعني لي شيئاً، ولكنها تُلْمِح إلى رجل يرتدي ثياب الحداد السوداء».

ذهبت لأغلق المذياع، فقد أعقب الموسيقى حديث غاضب باللغة العربية.

حينما رجعت إليها أردت المزاح معها قائلاً: «ليس الموت رجلاً، بل إنه امرأة ميتة مجدوعة الأنف، وقد وارتها الثرى القنابل الملقاة من الطائرات الإنجليزية في فناء قصر قديم مواجه لفيلا «بونانّو»، حيث رسمتها يد فنان مجهول فوق أحد الجدران منذ خمسة قرون مضت».

هزّتْ رأسها: «إنك تعرف جيداً أن اللوحة الجدارية نجت من القصف. لقد قرأتُ هذا في الجريدة، ولقد رأيتُ أيضاً الصور. إنها لم تمت، بل «مارتا» هي من ماتت. لقد ماتت «مارتا»، يا له من جناس يليق بركن الألغاز في جرائد الكلمات المتقاطعة! إني أموت، الجزء تلو الجزء. لن يتبقى مني سوى زفير هواء، نسمة باردة، حفنة من الهواء القصي مثل الذي كان يعود به الجنود الصليبيون من بيت المقدس محفوظاً في قارورة زجاجية: إنه عَدم مغلف بعدم. أترغب في معرفة مَن أُشبِه وأنا على قيد الحياة في أيامي هذه؟ أُشبه طائر الغُرة وقد أُصيب بطلق ناري، حتى أن ساقيه الخضراوين المبتورتين لا تكفان عن النزف. لكنني سأجد، على كل حال، طريقة للاستسلام، سترى! مثلما كنت أصحو كل صباح في الشتاء عند كوخ السكة الحديدية».

عدت لأسألها بإلحاح: «ولكن ماذا عن شعرك؟».

قاطعتني، ولبثتُ لفترة غير مدرك عمّا كانت تتحدث: «لقد رأيته وهو يموت. فقد أمسكونا معاً في قبو في بيت ريفي محفور خلف حظيرة لتقطير خمر من نوع الـ«جرابّا» بشكل سري. كانوا يبحثون في القبو عن خمر العام المنصرم، فعثروا علينا. أخرجوه رافعاً ذراعيه إلى الأعلى، بينما كان يجر إحدى قدميه لإصابة قديمة بالريوماتيزم أو في حادث صيد، لا أذكر. رأيته يرتقي السلم الترابي بينما أتبعه من خلفه. كان يرتدي بنطالاً فضفاضاً يصل إلى تحت ركبتيه بقليل، وقميصاً من القطن الخشن بياقة ضيقة حول الرقبة، وكان شعره ملتصقاً بمؤخرة رأسه جراء العرق. كان يصعد نحو الضوء يكز على قدمه، ويرتعد، ولكنه يبدي جرأة مصطنعة كالأبطال. كان مضطراً لفرط طوله إلى الانحناء حتى يخرج من فتحة القبو، بينما كان يحرك ذراعيه بشكل عشوائي ليستند في خروجه إلى السقف، وكأنه يقيس حجم الهواء المحيط برأسه. أذكر جيداً رائحة الثعلب الكريهة التي كانت تنضح من إبطه من أثر الخوف بينما بقعة صفراء لعرقه مطبوعة على قميصه. كان، في تلك اللحظة، كالثعلب الذي تحاصره البنادق والكلاب، ولم يكن أمامه خيار آخر سوى الموت. كان يصعد منهكاً، حتى أنه، في لحظة مّا، بدا لي وكأنه يبغي النوم فقط، وأنه كان ينتقي في الأرض العشبية مكاناً مريحاً يلائم قوامه الطويل الفارع. كنت أتقدم من خلفه يحيط بي رجلان يمسكان بمعصمي في البداية، ثم تركاني لاحقاً، وراحا يبتعدان عني تدريجياً، إلى أن رجع أحدهما وصاح في بغضب: انصرفي ولا تعودي ثانية. بيد أني كنت مستسلمة لصبري المجنون، ولحفحفة ثيابهم بينما يشقون

طريقهم بين سنابل القمح الوليدة. رحت أتعقبهم ولكن من بعيد.

اجتزنا جسر الطاحونة القديمة. راودتْ عقلي لوهلة فكرة أنه لم يكن ليروق له أن أراه وهو يموت مثلما لم يكن يحب رؤيتي إياه وهو يخلع ثيابه. في الوقت ذاته، كان الجمع يزداد عدداً، فكان الناس يخرجون من الحظائر والمزارع ليطلقوا لعناتهم باتجاهه. تقدمت طفلة صغيرة ترتدي تنورة قصيرة لتقف بجواري بنظرات نهمة. سألتني من أكون، لا أذكر كم مرة أعادت سؤالها هذا، حتى يئستْ من الإجابة، فلزمتْ الصمت، وطفقتْ تمشي بجواري غاضبة، وقد شعرت بالإهانة وكأنها عجوز ذات جوارب طويلة. كنا نتصبب عرقاً تحت وهج الشمس، وكنا لا نزال نرتدي الثياب الثقيلة. حدثتُ نفسي بأن الأمر كان وكأننا في جنازة من جنازات الفقراء حين يسرع المشيعون الخطى فيتخلف أحدهم في المؤخرة ونفقده إلى الأبد - رغم أن الميت كان هناك حياً قائماً على قدميه أمام الجميع، طويلاً ومرتعشاً.

علا نباح كلب صادر من غدير في الجوار، فوق حافته كانت تقف عربة تُوَلّي ذراعيها شطر السماء، بينما أسفلها، في ذلك الجيب من الظلال، كان ينام رجل. فتح عينيه ثم أغمضهما على الفور. لم يزعج مرورنا حتى الحصان الذي كان مقيداً بشجرة ليست ببعيدة. بينما كنا نمضي في طريقنا، استدار إلى الخلف، لكنه لم يرني. كانت حركاته وإيماءاته تنم عن تسرع وتوتر، وقد مضى عنه الخوف. كان وكأنه قد نسي شيئاً مّا، وقد عاد لاسترداده في غير مكانه، بينما كان القطار يزعق بصفيره، والفجر على وشك البزوغ، وقد آن وقت الرحيل.

فكرت أنه، بعد كل هذا، كان سيطيب لي البقاء بجواره، وقد قيدوا يدي بيده، لننتظر الرصاصة النارية بين أعيننا، وليغشانا الظلام بعدها، وليتسرب البلسم البارد إلى دمائنا إلى الأبد. فكرت أنه كان محاطاً بجماعة من الأشرار واللئام. كلا، ليسوا أشراراً، بل زائفين، حتى أن بنادقهم زائفة كلعب الأطفال، وأنهم لم يكونوا ليطلقوا رصاصاً حياً عليه، بل في الفراغ. جعلنا نواصل سيرنا دون أن يتوقف أو يستنكر أحد. إنه إنسان، ولكن ماذا يعني لهم هذا؟ إن حلوقهم جافة كورق الصنفرة، والنعاس يثقل أجفانهم، وكان عليهم الانتهاء من الأمر والخلود إلى النوم، ليبدأوا الكرّة من جديد في الغد. أقدامهم، كأقدام المسيح، مجهدة ومتربة، أحذيتهم تقضم، وقد غطى الجلد أظافرهم المتقيحة، ولحاهم تخز رقابهم. ها هم يسيرون مجدداً، وها أنا صرت بمفردي أقف خلفهم بعشرة أمتار، ازدادت إلى عشرين في ما بعد، بصحبة تلك الطفلة النهمة التي تتقافز راكضة بجواري. ماذا تريد أن ترى؟ رجلاً ميتاً أو رجلاً عارياً؟ أتعرف أن رؤية رجل يموت لأكثر أهمية من الاضطجاع معه؟

توقفوا عند حافة الغابة. أبصرت القائد يصدر أوامره بالتوقف والاستعداد، ثم تنحى جانباً ليستظل بشجرة كستناء. حينها تطلعت إلى وجهه. كان شاباً ولكن بلحية وشعر شيخ عجوز، وبرأسه بعض البقع الصلعاء الملساء لعلها دليل، على مرض مّا، أو على إحدى الشعائر، التي تُحلق فيها رؤوس القساوسة الجدد. كان يخطو لا ينظر إلى أحد، أمام كتيبة الجنود، محركاً شفتيه بغير حديث. في تلك اللحظة كان «أندريا» واقفاً لا يتحرك، بعد أن عصبوا عينيه بعصابة بيضاء فغدت الشيء

الوحيد النظيف الذي يرتديه. لم تكن منديلاً، بل ضمادة طبية، نظيفة وباردة وهادئة، حتى يغطوا عينيه وكأنهما جرح متقيح.

هبت ريح فأثارت العشب حول حذائه الحضري. لا بد أنه أحس بنعومتها على يديه، فأغلق بالكاد شفتيه ليقبّلها وليرتشف هواءها. مرت بضع دقائق، وعم الصمت المكان، حتى ذلك الكلب الذي كان ينبح عند الغدير. بدا أن صبره قد نفد، فكان يرفع رأسه كما يفعل فاقدو البصر، فلم يكن يرى شيئاً عبر الضمادة. أخيراً، حسم الضابط أمره، التفت إليهم، وبعث بإيماءة بدا عليها الإجهاد. رفعوا بنادقهم، وصوبوا أنابيبها اللامعة. لم يكن يعتري وجوههم العريضة والمجهدة من شمس الظهيرة سوى السأم والشفقة.

كانوا يطرقون الباب بإلحاح، فزمن استئجار الغرفة قد نفد. بيد أن «مارتا» واصلت حديثها بنبرات متسارعة بينما كانت تعيد ارتداء ثيابها: «أجل، لقد قصوا شعري بعد أيام قليلة من ذلك في المدينة، لأني بقيت بجواره إلى النهاية. قالوا إنه قد اقترف شيئاً، وإنه كان ثمة سبب بالتأكيد وراء إنقاذه لي من المحرقة. عليك ألا تسألني إن كان هذا حقيقياً وأنا سأوافق على هذا. إنني لا أعرف شيئا آخر، فثمة ستار لا نهاية له قد أُسدِل ليفصل بيني وبين تلك الأيام. أذكر فقط الشهر الذي أعقب تلك الأحداث. كنت أعيش في أحد الفنادق الفخمة، وكان لدي مال كثير. لكنّ، خروجي من الفندق أضحى مغامرة مميتة منذ أن رأيت على عمود في الطريق صورة لي في عرض راقص اسمه «جيزيلا أو كوبيلا»، كانت

قد نشرتها إحدى الصحف. أدركت ساعتها من صياح باعة الجرائد أنهم كانوا قد عدلوا عن قرارهم السابق، وعادوا للبحث عني. حينئذ بدأت رحلة الهروب. كان الشيء الأكثر إثارة ومتعة في الدنيا. بدلتُ ثيابي وعنواني وعاداتي. كنت أتنقل باستمرار من سكن إلى آخر، ولم أكن أمكث في مكان واحد لأكثر من ليلة، مثلما يحدث عادة حينما يكون الخطر في بدايته والحقيبة مُعدّة دوماً. في ما بعد، أدركت بأني لن أفلح أبداً في النجاة، وأن مساحات مهجورة مقفرة كالقطب الشمالي تتكاثر، خطوة بعد خطوة، لتباعد بيني وبين الحرية، مما جعلني أشعر بالراحة لذلك. كنت بحاجة إلى خطوات عازمة فرحة ومهارة وخفة كنت قد فقدتهما لكي أتمكن من عبور تلك القفار. غير أني واصلت المسير، كما هو واضح، بحثاً عن أناس يمدون لي يد العون لأجتازها، عن حراس للحدود، أو أدلاء جبليين، أو صيادين في البحيرات. بيد أن كل منافذ الهروب والقوارب التي وعدوني إياها كانت مجرد كلمات، وبعض المواعيد، والأرقام، والأسماء المحددة عديمة الفائدة التي قيلت بصوت هامس في مخزن أحد المحال في مساء مّا.

كانت محض أشباح، وقد كان علي، في ما بعد، فور خروجي إلى الطريق، أن أنحيها عني دافعة إياها نحو آفاق بعيدة المنال، نحو غد لن تشرق شمسه أبداً. ففي الحقيقة، لم يعد بوسعي العيش دون ذلك الإحساس بأني حبيسة داخل مصيدة، ودون الهاجس بأن ثمة أصفاداً تنتظر عودتي إلى البيت، ودون رنين الهاتف الذي يشبه صهيل خيل يوم القيامة. فإلى هذه الدرجة، يمكن لأي شيء، حتى المصائب، أن يصبح

أمراً عادياً مألوفاً بداخلي.

«بات السير بين الناس مثل التعذيب بمقطرة التشهير الشنيعة والمبهجة في الوقت ذاته. كنت أسير متلصصة، خرقاء، وقد بثّ مرغمة على تقليص تحركاتي، وكأني حاوٍ هرّمه الدهر. في أحيان كثيرة، أثناء انتظاري لتغير لون إشارة المرور، كان يكفيني أن أندس بين أذرع الناس وظهورهم، وجسدي لا يكف عن الارتجاف، رغم براءة تلك العيون التي كانت ترنو إلى شعري القصير وتكشف عن ظهوري الجريء المتهور. وذات يوم، وعند عودتي إلى المنزل، وجدت «أندريا»، جالساً على الدرج وهو يمصمص شفتيه، ويحركهما مثلما كان يفعل في ذلك اليوم. كان جالساً ملتصقاً بالجدار لكي يفسح لي طريقاً للمرور، ولكن كان يبدو عليه بعض التردد، وكأن شيئاً مّا، في آخر لحظة، لعله خجل مفاجئ، منعه من الكلام. فقط حينما رحت أدير المفتاح في ثقب الباب أفلحت في إقناع نفسي بأنني لم أره، ورغم هذا لم أمنع نفسي من الاستدارة لأبحث عن أثر له فوق الدرج. في تلك الليالي كنت أخلد إلى النوم في وقت متأخر مع شعور بالاستسلام الانهزامي. كنت على يقين أنهم كانوا سيأتون ليقبضوا عليّ أثناء نومي. كنت سعيدة لأني على يقين بأني سأرى الباب يفتح ببطء، كما في أفلام كثيرة شاهدتها، وألمح رجالاً يشبهون الطهاة يدلفون عندي في صمت وأيديهم ذات القفازات الحمراء تحمل فؤوساً. لم يكن أحد يأتي، ولكني كنت أقول لنفسي عند استيقاظي: كفى؛ سأخرج مبكراً في الغد، وألقي بنفسي على الأرض صارخة باسمي. إلا أن الانتحار في مكان ناء، من دون ثياب ملطخة

بالدماء، ودون أن أترك ورائي أي رسالة في حقيبة يدي، وبعد أن أكون قد أودعت أمتعتي في مخزن الحقائب، كان أفضل حالاً بكثير، وكانت تلك هي الطريقة الأسرع للتلاشي، وإصابة الجميع بخيبة الأمل:

«في الختام رحت أبصق دماً، وبدأت النهاية تكتب نفسها».

-13-

كانت تلك تقريباً كلمات «مارتا». لعلي أضفت إليها بعض المؤثرات الموسيقية كعادتي دائماً، ولكن كانت تلك نبراتها الدافئة، والحنونة، والبهية. كانت كغناء منفرد جميل يدعو الجميع إلى التصفيق له وإلى الشعور بالشفقة من أجله في الوقت نفسه. كانت كراوي الحكايات، الذي يرتدي ثياباً مخملية، ويأتي إلى الجزيرة في الأعياد ليقف أمام خلفية من القماش الملون، ويعرض أمام الجمهور المحيط به الحكايات الحزينة للبارونة «كاريني»؛ أو كمُنشد الكنيسة الذي يغني بصوت حزين لكل جرح من الجراح السبعة لمريم المكلومة أثناء قدّاس الجنازة طاعناً سيفه في صدورنا لسبع مرات. بيد أن المشاعر الفياضة لـ«مارتا» المريضة، والتي تمتزج فيها بقدر متساو حسرة حقيقية شديدة مع شيء من التمثيل المسرحي، كانت هي ما تدفعها لهذا. ولكنّ مشاعرها تلك ما كانت لتجعلني أنخدع وأظن أنها كانت تقفز من حبل إلى آخر في عرض الترابيز البهلواني هذا دون دهاء وحيطة منها، بل إنني أرجح أنها لم تكن لتعرّض نفسها أبداً لخطر السقوط. لقد كانت ترغب فقط في أن أظل مصدقاً، وإلى اللحظة الأخيرة، أن توازنها اختل، وأنها كانت على وشك الوقوع.

الآن، أعرف جيداً، وقد ماتت «مارتا»، وبات اسمها مجرد ندبة في عقلي، أن كلامي هذا هو أمر سيئ بحقها بما يكفي، وأن الفائدة من تنكرها ومن حيلها كانت ضئيلة جداً.

ولكنه حقيقي أيضاً أنها كانت تقتطع من ماضيها (الثروة الوحيدة التي كانت تمتلكها فعلاً، فلم تكن مرهونة لحساب أحد آخر، ولم يفسد حالها) دون أن تقصد الأجزاء المفضلة لديها، في الوقت الذي كانت تلقي بعيداً، وبكلتا يديها، داخل قبو في أعماق وعيها، ما قبل وما بعد تلك الأجزاء. كان يجتاحها لذلك حزن دائم بين أقاويلها الكاذبة والناقصة وغير المحبوكة جيداً، حزن كاف ليضفي على أسرارها وهجاً متقطعاً وماكراً كضوء منار رابض في مياه ضحلة يتحكم فيه رجل خائن للسفن. أما أنا، فقد كنت أشعر، منذ فترة، بأني قد ارتقيت درجة، وصرت شخصية رئيسية في أحداث لا تقل أهمية. كنت أنصت بنهم شديد ممزوج بفضول بوليسي إلى أدائها التمثيلي وحواراتها الآحادية المطابقة لنَصّها المسرحي، الذي كان من المتوقع أن يمتزج مع نصي الخاص ليصلا إلى المشهد الختامي معاً.

لا شكّ أنّي اكتشفت مع مرور السنين، أن في كل حياة، حتى أقلها عرضة للتأثُّر، ثمة قدراً ولو ضئيلاً من الادعاء والمبالغات المجازية. أجل، كنت أعلم هذا، ولكني كنت قد قرأت عنه فقط في الكتب عندما كنت شاباً صغيراً. حينها كنت أخوض حياتي بغير دراية، بيدين كفيفتين، كمن ينقطع عنه التيار الكهربائي، فيهب ليبحث سدى داخل أدراج كثيرة في خزانة مّا عن بقايا شمعة منسية. لذا فقد كنت أنصت إليها بينما يتملكني حرج يزداد يوماً بعد يوم، ولم أكن أغفر لها بداخلي أياً من تناقضاتها العديدة. كنت أسأل نفسي، في كل آن، أي خيالات مراهقة تلك التي كانت تجعلها تصر على تبجيل رجل القبو ذاك،

وتقليده بالأوسمة والنياشين، ولم كانت تشعر نحوه بتلك الشفقة! لم تقنعني فكرة مؤداها أن وطناً غاضباً وعملاً بشعاً كانا وراء استشهاده غير المقدس. كنت أسأل نفسي أكانت كلمة «محرقة»، التي سرعان ما ظهرت واختفت في سيل من آلاف الحكايات لها، تبث فيها ألماً حقيقياً فعلا أم كانت مجرد أكذوبة؟.

كنت أطرد عني الأسئلة المجدية والمحرجة لها التي كانت تراود شفتي، ولعلي كنت مخطئاً في هذا. كنت أقول لنفسي: إن ثمن إهانتي لها هو فقدانها. لذا، فقد التزمت الصمت. ولكن، منذ تلك اللحظة، كان علي أن أكون أكثر يقظة، وكنت سأرقب مغالطاتها بريبة واحترام معاً. كان الأمر وكأني في مباراة شطرنج كان يهمني على الأقل أن أتعادل فيها.

حينئذ، ودون أن أعرف السبب، رَفَضَتْ أن تلتقي بي ثانية. حتى أنها رَدَّت لي هدية من العطور الفرنسية دون أن تفتحها كنتُ قد جننت وابتعتها من المدينة، وبعثتُ بها إليها مع الصبي. لم أتلق أيضاً جواباً على أي من الخطابات اللاحقة التي أرسلتها إليها. في النهاية مات «أديلمو»، وقد أسلفت الحديث عن هذا، وفُقد معه كل خط اتصال بيننا.

استقصيت بمكر عن الأمر من رئيسة الجناح، وعرفت أنها لم تكن بحال أسوأ، ولكنها لم تكن تخرج حتى من غرفتها. أثارت عزلتها الإضافية تلك فضولي، رغم أنها خففت من شعوري بالحزن، لأني رحت أُرجع عدم اكتراثها بي إلى سبب أعظم وهو رغبتها في أن تنأى بنفسها عن العالم أجمع، وعن مراسم حياتنا البائسة معاً، أعني كلنا، هنا في «روكا».

من ناحية أخرى، كان شيء آخر قد بدأ يستثيرني في هذه الفترة. ذهبت عني الحمى فجأة، ذلك الدفء والغبن، والإنذار بدنو النهاية. كنت أشعر بأني أُبعث من جديد بشكل عجيب، رغم أن «الماغرو»، في كل مرة كان يطرق فيها بفقرات أصابعه على صدري، كان وجهه يكتسي برداء من الهيبة والوجوم، وكان يحاول التلاعب بي عبر صمته (وهكذا بدأت أصدق ما يحدث) رغبة منه في بث الذعر فيّ فقط. فمنذ ليلة العرض المسرحي كان قد فقد أي تعاطف معي، وكان يحاول بقدر استطاعته أن يؤذيني، ورغم ذلك لم أفلح في أن أجد تبريراً لمشاكساته لي الأقرب إلى مشاكسات شاب له عمري نفسه. كنت أأبى أن أُصدق ظاهر الأمور، وأن أُرجع سلوكه هذا إلى سبب تافه كالغيرة. الغيرة مما؟ فقد كنت أنا وقرة عينه (أو رفيقته في الفراش، أياً مَن كانت) قد اجتهدنا كثيراً لكيلا يصل إلى مسامعه أي خبر عن لقاءاتنا؛ وكانت هي قابعة في الأعلى، أربع عظام في كفن قطني، محاصرة بالسعال وبالأدوية، في انتظار أن يتخثر جسدها.. أي إزعاج كان يمكن أن يسببه له هيامي المعلن وربما الأفلاطوني بتلك الفتاة؟ ألم يكن بوسعه إدراك أن هذا كان بمثابة وسيلة لملْء فقاعة أيامي الخاوية؛ لكي أعيشها ببعض الإرادة والعزم وقد انتفضت عروقي دفعة واحدة؟ كان هيامي هذا رمزاً مجازياً لكي أصرخ قائلاً «كلا» للموت عبر تلك المغامرات الساخنة المتمردة؛ كنت أبحث عن ترياق سماوي في كيمياء المشاعر والأحاسيس بعد أن فقدت كل أمل في العون. ولسوء الحظ، لم يكن بوسعي أن أجعل «الماغرو» يعرف أو يصدق أن حبي لـ«مارتا»، مع مرور الأيام، ونتيجة

لفراقي لها، راح يغيض ويخفت تدريجياً حتى صار مجرد مزيج من الشعور بالشفقة والغضب: من ناحية لامتناعها عني دون عذر؛ ومن ناحية أخرى، لأنها، عقب اللقاء الأخير، باتت تبدو لي كلوحة زائفة صارخة تجسد كل ما ينطوي عليه الزمن من قيح وبلاهة. أَعَلَيّ أن أقول هذا؟ فكلما كنت أعاود التشبث بالحياة، وكلما ترعرعت بداخلي آمال جوفية واهنة، كنت أشعر بشيء من الانزعاج، إن كان يمكنني أن أفسر بهذا تلك الرغبة في الطهارة العقلية التي كانت تدفعني لأطرد من عقلي كل إحساس أو عاطفة لأدعه ساكناً وخاوياً. تُرى، إذا كانت الأمور على هذا النحو، فلمَ كان يؤلمني كثيراً عدم رؤيتي لها، وعدم قدرتي الإنصات لها أثناء خروجنا معاً في المدينة. فحتى تلك الساعات لم تك كلها سعيدة، وقد خلفت وراءها في فمي مذاقاً معسولاً ومتخماً مثلما يحدث حين تشم وردة لوقت طويل. وأضحى مسرح المشاعر الذي أحيا بين أركانه عبثياً ومعقداً، حتى بالنسبة إلي، لذا لم يكن أمامي سوى أن تتملكني الدهشة، إن لم يكن الغضب، حينما عدت من قاعة الترفيه في أحد الأيام، فوجدت على طاولة الطعام ورقة لوصفة طبية ثُبتت تحت كأس مقلوب، وقد كُتبت عليها هذه الكلمات:

«يا جحا البائس لِتعُد إلى صوابك
وإن فقدت شيئاً فلا تنتظر أن يعود
لقد غنمت أياماً جميلة وربما ليالِيَ أيضاً
إنها لم تعد تريدك أما أنت يا جحا فما زلت

فلتهتم بشأنك ولا تعش تعيساً
إن حالة «ليسبيا» تتردى وحالتك أنت لا تتحسن[1]
إنك بين الأحياء سجين
فلتحذر! فلعبة الحب لا تفيد داء صدرك
ولا تدفع اليرقة القاتلة عنك
أفهمت قصدي؟ إنه القاتل الضئيل الرحال
(فلتطالع أوبرا ««الملك الدب»»، دار نشر « أونيفيرسال كادّيو »)[2]
كفاك ولتدعها وشأنها، وإلا سينفد صبري
وسيحل عليك، من أمامك ومن خلفك، غضبي».

لم يكن ثمة توقيع على الورقة، وكان الجزء الأعلى الذي يحمل اسم الطبيب منزوعاً، ولكن الخط والتهكم البذيء لم يكونا لأحد آخر غيره. لذا، ودون أن آبه لتحذير الراهبة التي كانت تراقب الأرضية المبللة بعد تنظيفها، اجتزت الردهة، وسعيت بخطوات حثيثة ومنتقمة نحو غرفة «الماغرو» التي كانت تفوح منها رائحة مطهر الليزول.

كان راقداً مستسلماً على أحد المقاعد، ولمعرفتي بطبيعته المعتادة على المشي والحركة، فقد اندهشت لهذا. أدهشني أيضاً تحرره من

(1) «ليسبيا» هي حبيبة «كاتولوس» الشاعر الروماني الكبير والأبيات المذكورة هي معارضة ساخرة لأشعار «كاتولوس». (الكاتب)
(2) «الملك الدب» أحد الأعمال الأوبرالية الهامة للشاعر والمؤلف الإيطالي «أرّيغو بويتو» وتلعب دور البطولة في العمل يرقة قاتلة ومنتقمة. (الكاتب)

ثيابه الطبية، والهالات الزرقاء حول عينيه البادية أسفل النظارة، والعدد الكبير لقوارير مكدسة فوق منضدة صغيرة كان يستخدمها كمكتب. كان كل شيء في مظهره يجعله يبدو كشبح مُتقطب وطاعن يضع الزائر الفضولي في حرج، حتى أني لم أستطع أن أبادل تحيته لي غير الودودة بسيل السباب الذي كان على طرف لساني، بل رددت عليه التحية ذاتها بشكل يكاد يكون طيعاً.

استهل الكلام بطريقته المملة دون أن يغير من ندائه المعتاد لي: «آه يا مريضي المتلهف! لا عليك! لا ينبغي أن تغضب كثيراً من تلك الأبيات التي لا معنى لها ولا غاية. لم تكن تهديداً شريراً بل مجرد دعابة من دعاباتي، مجرد مبرر لأستهل كتاباتي في الشعر الحر. لقد كانت تلك دعوة لنتصالح. ثم كيف لك أن تكون متيقنا هكذا من أنك أنت المقصود بالأحمق جحا؟ ألا يمكن أن أكون أنا المقصود به؟ فلتنصت:

«يا «ماريانو» التعيس فلتكف عن جنونك

إن كان شيء قد انتهى فلتقنع بهذا نفسك...»

راح يضحك: «أليس هذا البيت أكثر وضوحاً»

ثم أردف بصوت خفيض:

«إن «ماريانو» قد انتهى بسبب «ليسبيا» اليهودية المتعاونة»

كنت حريصاً على ألا أتجاوب معه، فمع شخص مثله كان من الأجدى الانتظار. وحتى لو لم يكن ثمة سبب آخر لامتناعي عن الإجابة، فأنا غالباً ما ارتبت في العجائز.

بيد أنه قال لي: «كان يمكنك على الأقل التبسم، أليس هذا صحيحاً؟ ألا أُثير ضحكك؟» ثم أردف بعد قليل: «فلتذهب هناك! ستنسى كل شيء حينما تلعب. فلتنحِ جانباً تلك الأدوية، ورتب قطع الشطرنج! فلتقم أنت بالحركة الأولى، إني أمنحك إياها هدية مني».

فعلت ما أراده، فهدأت حدة غضبي، وحل مكانه فضول مر يدفعني إلى معرفة مغزى تلك القصة، وعلاقتها بذلك المثلث الذي يمثل ثلاثتنا أضلاعه: أنا، وهو، و«مارتا». كان ذلك الخاطر السريع كافياً لكي أشرد قليلاً عن المباراة؛ فثرت بعدها غضباً حينما رأيت ملكته بصحبة أحد الفيلة يقتربان من مؤخرة صفوفي، ويقتحمان داخل الممرات الهادئة لدفاعاتي، حتى وصلا بجرأة إلى صف الملك لتضحي الملكة بنفسها، ولكن بعد أن أحكمت الخناق عليه، ممهدة الطريق للحصان ليوجه له أقصى الضربات ألماً وإذلالاً. مات الملك مختنقاً.

بينما كنت أرفع مَلِكي، صاح منافسي كعادته قائلاً: «يا للروعة!!»، ثم أردف وهو غارق في التفكير: «تُرى لِمَ تمنح التضحية بالملكة شعوراً غامضاً بنشوة لا تختلف كثيراً عن نشوة هزة الجماع؟». بعد لحظات قليلة راح يجيب نفسه: «لعلها تشبه نشوة القط العتابي، القط المخادع القاتل، الذي يتلذذ بإيهام الفأر بأنه يداعبه وأنه لن يمسسه بأذى، ثم يغدر به على حين غرة موجهاً إليه ضربة مخلب قاتلة. يتظاهر بالشفقة، وفي الوقت نفسه يرتدي القناع الأسود للقتلة».

قاطعت حديثه بينما كنت أفكر في نفسي، وفي الراهب «فيتوريو»، وفي محاولاتنا الناجحة والفاشلة في محاكاة عذابات المسيح: «أحسبُ أن

الأمر ينطوي على مغزى أكثر من هذا. الفكرة الجليلة والقديمة للفداء، والتي من أجلها هبط ابن الرب من السماء على الأرض ليدفع بمفرده ثمن خلاص الجميع. بل إن بعض المتنبئين العلمانيين ما زال في يومنا هذا يَعِد على صفحات الجرائد بخلاص أبدي للإنسانية بشرط أن يحيق الهلاك بجيلنا فقط فِداء وقرباناً للجميع».

راح الضحك بالكاد يحرك شفتيه ووجنتيه الرماديتين. لكنه، على أي حال، قد ضحك، ولو ضحكة خبيثة وعابرة. قال متعجباً: «ابن الرب!!!». ثم طفق يصدر صفيراً لموسيقى أغنية «زيكي باكي»[1].

كنت معتاداً على أقواله البذيئة تلك. كانت آيات مما كنا نطلق عليه «إنجيل ماريانو»، وأخجل أن أُقرّ أنني تملقته بضحكة غير مدركة. زاد حبوره على الفور، وبتعبيرات متبرمة، استأنف حديثه ليزيد الطين بلة مردّداً أنشودة «في يوم ما سنرى»[2]، ثم أضاف: «أجل، إنه ليس إلا واحداً منا، إنه رسول تقي، ودعني أعترف لك بأنه نال ميتة جيدة دون أن يتألم كثيراً. إنه أعلى من قيمة التضحية والفداء من أجل الآخرين. حتى إننا يمكننا أن نطلق اسمه على أحد المجمعات العلمية مثل ذلك الذي تلقيت به تعليمي في «فيينا»، ليصبح اسمه «مجمع المسيح» «*Der Christuscomple*». يا له من اسم جميل! يبدو وكأنه اسم لأحد أنواع الفيتامينات. فليكن مباركاً إذن الحَمَل المقدس للفصح، أياً كان في السماء أو في الغابة، حيث ينتظر سكّين الأضحية مقيداً إلى أحد

(1) أغنية تعود إلى فترة الثلاثينيات من القرن العشرين. (الكاتب)

(2) عنوان أحد المقاطع المهمة في أوبرا مدام «بترفلاي» لـ«جاكومو بتشيني». (المترجم)

الأعمدة. ولكن، فلتقل لي، أتعرف حكاية اللصوص الثلاثة والقبعات الخمس؟».

أجبت بكلاّ، رغم أن تلك كانت المرة الثالثة التي يداعبني فيها بكلماته الغامضة. وحتى أُثبطه وأُثنيه عن هذا، أخذت أول أسطوانة وقعت يدي عليها مصادفة، ووضعتها في الغرامفون. وبينما كانت أصوات كثيرة متناغمة تردد بقوة أنشودة «*Peccantem me cotidie*» (أنا يا من أرتكب المعاصي كل يوم)[1]، جعل يواصل حديثه غير آبه بالموسيقى، أو على الأكثر مُبدياً بعض إيماءات الموافقة والرضا عنها: «حَكَمَ ملك جبار من أزمنة سحيقة بالموت على لصوص ثلاثة. ولكن، أتفضل أن تجري الأحداث في آسيا أو أوروبا؟».

«أيهم هذا؟».

«كلا، لا يهم، ولكنه أمر جيد أن تعبر عن رأيك. إنه سيضيف بعض الإيضاحات للحكاية».

أجبته لكي أرضيه: «أفضل إذن شيخ الجبل على رئيس محكمة التفتيش»[2].

قال: «فليكن ما تريد، ولكني كنت أنتظر منك شخصاً مثل «بيلاطس البنطي»»[3]. ثم أردف قائلاً:

(1) أحد أعمال المؤلف الموسيقي الإيطالي «جيوفاني بيرلويجي دي باليسترينا» الذي يعد الممثل الأشهر للمدرسة الرومانية للتأليف الموسيقي في عصر النهضة. (المترجم)

(2) عجوز الجبل أو سيد القتلة هو قائد الحشاشين الذي تحدث عنه «ماركو بولو» في رحلته إلى الشرق. (الكاتب)

(3) الحاكم الروماني لمقاطعة «اليهودية» ووفق الأناجيل الأربعة كان هو من تولى محاكمة المسيح وأصدر الحكم بصلبه. (المترجم)

«إن سيد الحشاشين قد منحهم فرصة للخلاص. سيكون على كل منهم أن يضع عصابة على عينيه، ثم ينتقي قبعة ليرتديها من بين ثلاث قبعات بيضاء واثنتين سوداوين مكدسة فوق إحدى الطاولات. سينجو منهم من سيستطيع عقب تفكير طويل وتبرير منطقي معرفة لون قبعته. ولكن، يحدث أن يختار ثلاثتهم دون أن يدروا اللون الأبيض نفسه. ثم يخلع كل منهم عصابته، ويتطلع ثلاثتهم إلى بعضهم البعض. عندئذ يبدو جليا أن النجاة ستكون فقط من نصيب من يستطيع أن يرى على رأسي رفيقيه قبعتين سوداوين، فيستنتج ساعتها لون قبعته. بيد أن كلاً منهم يكتشف أن لون قبعتي الاثنين الآخَرين هو اللون الأبيض الناصع...».

«وحينئذ؟».

«يفكر الأول والثاني ملياً ثم ينسحبان، فتُنزع عنهما قبعتاهما ويُعدمان. بيد أن الثالث يخمن بطريقة صحيحة. فلتخبرني إذن كيف ولماذا؟».

سألتُ بنبرة جادة بينما كان يساورني شك في أن تكون تلك الأحجية حكاية مجازية: «وإن خمنتُ أيمكنني أن آمل أنا أيضاً في نيل نصيبي من الحظ السعيد؟» ثم أضفت: «إن نسبة نجاة اللص هي نسبة نجاتي نفسها من دائي، إن إحصائياتكم تؤكد هذا».

(كانت هذه معلومة حقيقية قرأتها في رسالة تخرج «سيباستيانو»، وتحدثت عنها معه ومع «أنجيلو». قلت لهم إن النسبة هي «واحد إلى ثلاثة» فتفاجأ ثلاثتنا بأننا كنا نتبادل النظرات والضحكات الحزينة، بينما نفكر في الشيء ذاته).

أجابني بطريقة سبّبت لي بعض الاضطراب مما جعلني أنسى تجاهله لسؤالي الأول: «إنها ليست نسبة ضئيلة، فلتقنع بها! لقد كانت نسبة نجاة «ديوكاليون»[1] أو «دون بلاسكو» أكثر انخفاضاً منها».

سألته: «دون بلاسكو؟».

«إنه أحد أجدادي القدماء من مدينة «طراغونة». كان قائداً بحرياً في الجيش الإسباني الذي لا يقهر. سبح لثلاثة أيام وليال. بوسعك أن تجده خلفك على الفرع الخامس على يمين الشجرة...».

عندئذ أغمض جفنيه الثقيلتين على عينيه، وبدا وكأنه غط في النوم غير مبال. كانت الموسيقى قد صمتت، وكنت أحاول دون جدوى أن أحل طلاسم الأحجية. رغم هذا، لم أرغب في الانصراف. كنت متيقناً أنه لم يكن نائماً، وأنه كان يراقبني من ظلمته منتظراً. عندئذ، أصابني الشرود، أخذت أهيم بين جنبات الغرفة، أفتش، وأرنو تارة إلى اسم «دون بلاسكو» في شجرة العائلة، وتارة أخرى إلى صورة زوجته المطعونة عند قلبها بعدد من الإبر، وتارة ثالثة إلى الملفات الضخمة المخطوطة بيده والمكدسة فوق رف المدفأة، والتي يلتف حولها شريط مطاطي يمسك بها بحيث لا تنفرط. غير أني، كنت ألتفت في كل لحظة ورائي فجأة،

(1) وفق الأساطير الإغريقية بعد أن أغرق «زيوس» زعيم الآلهة الأرض بالماء لم ينجُ من البشر سوى «ديكاليون» وزوجته «بيرا». (الكاتب)

حتى رأيتُ حدقتيه وقد صوبهما لوهلة نحو ظهري بعدها عادتا من جديد لتختبئا في غُشهما الهادئ.

قلت له متظاهراً: «أأيقظتك؟» بينما كانت تراود عقلي فكرة أنني لم أسأله عما كان به، أو إن كانت حالته سيئة فعلاً كما كانت تبدو. كان تقريباً قد قرأ ما يدور بخلدي، قال: «إنه تليف كبدي. ستوافيني المنية قبلك».

ومرة أخرى، بين زفير، وخشخشة، وطَرقَات كنقرات «الكمنجة»، ندَّ من مؤخرة حنجرته صرير أشبه بالضحك، بينما كانت ابتسامته المتهكمة المعتادة تبدل من تعبيرات فمه.

كان قد انتصب واقفاً فوق قدميه، وبعد أن حاول سدى أن يعقد رباطي حذائه العالي، أدخل قدميه الحافيتين في جرموق مهترئ، وألقى فوطة على كتفيه العاريتين وعلى فانلته الملتصقة بجسده من أثر العرق، والتي كانت شعيرات جسده الحادة الصلبة تحدث بها ثقوباً. راح يجتاز الغرفة بهيئته الغريبة تلك ضارباً بقدميه على الأرض، ومتكئاً على عصا، حتى وصل إلى جانبي أمام المكتبة. كانت تلك المرة الأولى حقاً التي أشعر فيها بالاشمئزاز منه، ومن ضحكته، ومن تلك البقعة البنية الشاحبة أسفل قلنسوته الحريرية، ومن رائحته الأقرب إلى رائحة القرد، التي لم يفلح في التخفيف منها الزيت المعطر الذي كان قد بلل به شعره حديثاً. كان كل شيء فيه يوحي بالتعفن وبالموت الحقير.

قال العجوز بينما كان يشير بإصبعه إلى حزمة من الأوراق

تقبع أسفل عمود من كتب لـ«تستوت»[1]: «أيها الشاب، هناك ترقد القصة الوحيدة الحقيقية لـ«مارتا»: ما قيل عنها، الشهادات الطبية، والتحقيقات، واختبارات الصحة النفسية لها، وقائمة بأعراضها. كل ما تصبو إلى معرفته عن قلبها، وعقلها، ورئتيها. كل تلك الأوراق مصحوبة بتعليقات وتأملات مني عليها، وستكون بمثابة طعنة سيف ماكرة في صدرك، وزرنيخ سام بطيء المفعول يسري في دمك. سيمكنك الاطلاع عليها بعد بضعة أسابيع، فستكون أنت الوحيد على قيد الحياة من بيننا نحن الثلاثة».

لم أستطع أن أخفي تعجبي، فأردف قائلاً: «إنك ستشفى وستنجو».

أنصتُ إليه، وقد طغت علي الريبة أكثر من الفرحة، وعادت إلى خاطري مجدداً حكاية اللصوص الثلاثة. كان خوف من الطالع قد داخلني في تلك اللحظة، حينما تطلعت إلى نفسي في مرآة منخفضة قائمة على منضدة صغيرة خلف ظهره، ورأيت رقبتي فيها بلا جسد. غير أنه بادر بالقول:

«فلتعِ جيداً أن احتمالات نجاة الثلاثة ليست بالقدرنفسه. بل على العكس، إن نسبة نجاة الاثنين الأولين صفر. بيد أن هزيمتهما هي التي تمنح الثالث فرصة حل اللغز. ولذا فعلينا أن نتساءل إن كانا يدركان هذا؟ هل يدركان حقاً أن انسحابهما

(1) أحد المؤلفين الهامين في علم التشريح. (الكاتب)

وموتهما يصبان في مصلحة من يعقبهما؟ أليس هذا ما يسميه رجال اللاهوت الفداء بالنفس لإنقاذ الآخرين؟ إن الروعة في تفكير اللص الأخير تكمن في مراهنته بحياته على ما استنتجه من تضحية اللصين اللذين سبقاه. إن فكّر فقط بهذه الطريقة سيستطيع إسقاط قناني «البولينغ»، وستهوي كرة الجولف في حفرتها. أهذا واضح؟».

أومأت برأسي مبدياً عدم فهمي، فلم تصبه خيبة الأمل.

استأنف حديثه: «فلنفترض أنك بقيت وحدك وعلى رأسك القبعة التي لا تعرف لونها، بينما ترقد بجوار قدميك الرأسان المقطوعتان بلونهما الأبيض. فلتجرب أن تسأل نفسكك: ماذا كان ليحدث لو كانت قبعتك سوداء. فلتضع نفسك في مكان الآخَرَين، ولتفكر بعقليهما!».

ساعتها بدأت ألمح شعاع ضوء: «إن كانت قبعتي سوداء، ففي هذه الحالة كان الثاني لـ...».

«كان الثاني سينجو. كان سيدرك أن قبعته لا يمكن إلا أن تكون بيضاء. لأنه إن كانت لقبعته ولقبعتكَ اللون الأسود نفسه، كان الأول سـ...».

«هذا صحيح، كان الأول حال رؤيته لقبعتين سوداوين...».

عندئذ أطلق «الماغرو» ضحكة مدوية وصلفة: «إنك تبتعد عن الحل، بل إنك تقترب قليلاً، أكثر، فأكثر!».

ثم صاح تقريباً، وختم حديثه: «كما ترى، إن كل لغز له حكاية

تشبهه. وفي كل ثالوث هناك دوماً زوج من الشهداء وثالث، ابن آوى، ينجو بجلده نتيجة تضحيتهما. إنه أنت، فلترتدِ ثيابك! إن الصليب الثالث المغروس في «جلجلة» تلّ «روكا» ليس من أجلك أنت... والآن كفى! فلتغرب عن وجهي! وإلا سأستخدم عصاي».

وراح يصوب عصاه نحوي مازحاً.

-14-

أيها القارئ، هل صادفك أن وقفت يوماً على السلالم المتحركة الكهربائية في أحد المتاجر الضخمة، وأن رأيت درجاتها التي تفصلك عن قمة السلم تتآكل الواحدة منها تلو الأخرى حتى تتلاشى كلها تماماً في قوقعتها؟ كانت أيام ذلك الصيف على هذا النحو. كان فصلاً بائساً على أقل تقدير، شمسه بلا غروب وكأنها دائرة من الوهج المضطرم، أشعتها سفافيد تلاحق حدقتي كما تتلهف شقفة حجر صوان مصقول على جَرْحِ قدم حافية.

بيد أن الأيام كانت تمر سريعاً. ورغم أن مرورها السريع هذا كف نظرياً عن جرّي إلى النهاية المشؤومة، ولكنها لم تكف أبداً عن إثارة فزعي. كان المشهد وكأن سخاماً أسود من غربان الشؤم يحوم كل حين ليغشى بظلامه صفحة السماء. أجل، كان صحيحاً أنني أمام هبة النجاة غير المنتظرة التي كان يبدو أن جسدي يمنحني إياها -كثروة شخصية خارجة عن بنود العقد- لم أفلح في تجنب ذلك الشعور بالانزعاج وبالذنب الذي كان يلاحقني كلما فكرت في رفاقي الذين لم يكن لهم أن ينالوا حصانة مثيلة؛ ورحت أفكر في نفسي، وفي المهمة التي كانت تنتظرني. فوفقاً لكلمات «الماغرو»، كان علي إعادة حساباتي كلها، والعودة إلى حب ذاتي من جديد. وسواء كانت تلك الهِبة هدنةً أو عفوا، كنت أدرك أنني سأبذل جهداً مضنياً للعودة إلى الحياة بصلفها، وإلى الاضطراب المزعج للعلاقات فيها. ومثلما كان يحدث لنهر «البو»

حينما يُغِير الشتاء القاسي على مجراه فيسعى باحثاً له عن درب آخر في الغرين، كنت أشعر بكل دمائي التي كانت قد سلكت مجرى مصبه المحتوم، قد فاضت عن عروقها متفرقة في آلاف الفروع والشقوق والقنوات الهشة كالشرايين الرقيقة للعين. ولهذا، كان غَدي يبدو لي مزروعاً بالأشواك، ولو بشكل مختلف. فبأي جسد وبأي روح كان لي أن أواجه عدوان المستقبل، إذا كان كل شيء فيّ ما زال يكابد ذاك الجرح المزدوج، الحرب والداء اللدود؟ أين كان لي أن أعثر على صباي، وأن أبرئه من علته، ومن هاجس الموت الذي اخترق ذلك القلب البريء؟ فإن لم يكن الطبيب يكذب، فثمة وديعة غير محددة من دينارات السنين كانت ستضاف في حسابي إلى دراهم الأيام المعدودة التي كنت أقبض بيدي عليها. غير أني لم أكن أعرف كيف أنفقها، مثلما يحدث عادة لحديثي النعمة والثروة.

وبينما كنا جالسين في الشرفة، عند الغروب، داهمتنا فجأة رجفة رقيقة من الهواء ونحن نرتدي ثيابنا الكتانية الخفيفة. كانت هبة واحدة فقط. جعل العقيد يقول بنبرة حكيمة باللهجة المحلية بشكل لا يصدق: «إن شهر أغسطس هو أول الشتاء»، وكأنه قد عثر أخيراً، في تلك اللحظة، بعد زمن طويل من خيلاء العروض العسكرية وصرامة حياة الجندية، على قسمات ريفية أصيلة بريئة لم يكتشفها من قبل أسفل خوذته البيضاء وقَصّة شعره العسكرية.

كنا مضطجعين معاً، نحن الخمسة الأحياء، أنا والعقيد و«سيباستيانو» والرفيقان «لويجي» (السعيد والشارد) اللَذان تبدل

سلوكهما ومزاجهما كثيراً عن الماضي. التفتُ إلى «لويجي السعيد»، الصديق السابق لـ«أديلي» الذي كثيراً ما ساعدتني حماسته (أكثر من كآبة «لويجي الشارد») على التغلب على رتابة الملل، وسألته بصوت هامس أن يعينني في حكايتي مع «مارتا». عاودتني الرغبة فيها مجدداً، وطفقت أكتب لها خطابات كنت أعرف أنني لم أكن أستطيع إرسالها، باحثاً عمن يسمعني ويواسيني ككهنة الاعتراف في الكنيسة. عزمتُ على رؤيتها، ولم أكن أدري كيف لي بهذا إن لم يساعدني هو وفتاته الجديدة. أو ربما كانت هناك طريقة أخرى لإعادة الاتصال بها؟ وكيف لي أن أعرف! ربما كان ينبغي علي أن أكتب رسالة لها على حائط غرفة الأشعة، أو كانت ثمة فرصة للقائها أثناء القداس، أو عند متجر المشفى... ومن كان ليخطر بعقله هذا؟

لم يحتمل «الباشا» همهمتي، وصاح بصوته ليشرك الرفاق الآخرين في الأمر. في البداية حاول «لويجي» الآخر تفادي الحديث، ثم أخذ يبحث دون جدوى عن نصائح في كتابه المعتاد «عظام الحبّار»[1]، بينما كان «سيباستيانو» صامتاً يتطلع إلى الأفق ببلاهة. كان العقيد فقط، وقد خلع عنه حلة الكبر الوظيفي البارد، هو من تنازل وقَبِل بمناقشة الأمر، وجعل يرفع يده في الهواء وكأنه يقود عزفا موسيقيا، وينفعل، ويقنع نفسه بخطة مدنية لا تقل تعقيداً عن المناورة الكبرى للجيش الإيطالي. انتهى الأمر بأني قبلتُ باقتراحه، الذي كان يشبه

---

(1) أحد الدواوين الشعرية الأولى للشاعر الإيطالي «مونتالي». (المترجم)

قليلاً خطة الجنرال «سكليفين»[1].

كان علي أن أحصل على تصريح للخروج، وأن أرتدي الملابس العادية، وأخرج في أول يوم عطلة. ثم كان ينبغي أن أنتظر وصول الترام، وهبوط زائري المستشفى منه، فأرجع لأندس بينهم، وأجتاز معهم البوابة، ثم حين انقسامهم إلى فريقين، كنت سأتبع الفريق المتوجه إلى الجناح النسائي، على أمل أن أستغل الجلبة والألوان الكثيرة للزائرين، وأتمكن من التحايل على راهبات المراقبة اللائي لم يكن أغلبهن قد رأينني من قبل. أفلحت بهذه الطريقة في الوصول حتى فراش «مارتا» في الغرفة التي كانت تتقاسمها مع فتاة أخرى لم تكن رغبتها في التعرف على زائر رفيقتها المتكبرة، وهي تحملق فيّ بنظرات براقة، بأقل من ولع أصابعها الرفيعة المدببة بالتلاعب بحمالات قميصها. لكنها (ها هي جميلتي شهرزاد الثرثارة لليلة واحدة فقط) حدّقت فيّ بنظرات لامعة حينما مثلتُ بجانب الفراش الذي كانت ترقد فيه مرتدية كامل ثيابها.

بينما كنت أهم بالجلوس على أحد المقاعد الحديدية نبهتني قائلة: «ليس على هذا المقعد، بل هنا بجواري»، وأفسحت لي مكاناً بجوارها وهي تداعبني على غير ما كنت أتوقع.

ثم برهافة وحنان أخذت يدي بين يديها مما بدّد من لساني كلمات اللوم والتوبيخ لصمتها السابق عني، ومحا من نفسي كل ريبة فيها وغيظ منها. لم أجرؤ على كل حال من أن أبوح لها عن آمالي التي تجددت في

---

(1) الجنرال الألماني الذي أعد خطة الهجوم على فرنسا في اليوم السابق على اندلاع الحرب العالمية الأولى. (الكاتب)

الشفاء خشية من أن يستولي عليها شعور بالحسد، ولأني كنت أشعر أيضاً، ولو بطريقة غامضة، بأن الخيط الذي كان يربط بيننا هو توافق مصيرينا، ولم يكن من مصلحتي قطع ذلك الخيط. لم يكن ثمة ما أندم عليه حين سمعتها تقترح عليّ بين الإصرار والتوسل أن نهرب معاً لأسباب ووفق خطة لا تخطر على بال إلا تلاميذ أو يائسين. فما دام كل شيء قد ضاع منا، فكان من الأحرى إذن لنا أن نفر، ونتجوّل خارج المدينة لتشبع أعيننا للمرة الأخيرة من رؤية السماء والأرض والبحر. كنا سنستأجر دراجة نارية بعربة جانبية أو أخرى قديمة بمكان لنفرين، كانت هي تعرف أنه بالإمكان الحصول عليها. كان علي أنا أن أختلق سبباً طارئاً لطلب الرجوع إلى البيت، أما هي فكانت ستخرج ببساطة دون أن تخبر أحداً مستغلة الزحام والاضطراب المعهودين في الأيام المخصصة للزيارة. ولِمَ كان علينا، في ظروفنا هذه، أن نبالي بغضب «الماغرو»؟

كان أول خاطر راودني يدفعني إلى الرفض. أنمضي نحن الاثنان معاً خارج المدينة؟ بين كل تلك السرقات وحوادث القتل، وكل تلك الأشياء البشعة على الطريق؟ نحن الاثنان بمظهرنا غير المألوف هذا، ولا سيما هي التي تبدو وكأنها صورة نُزعت من أحد الكتب... كنت أرغب في أن أقول لها هذا. ولكن، لا أدري لِم، لضعف مني، أو لغياب الرشد عن عقلي، ودون أن أنبس ببنت شفة، قمت بنزع قطعة من ورق غلاف علبة العطور التي كنت اصطحبتها معي، وكتبت فوقها كلمة «نعم» فَرِحة وطفولية وضخمة، ثم أدرتها وملأت كل مساحة خالية

في ظهر الورقة بتلك الكلمة، بعد أن رسمت عليها سيارة «بوغاتي» وأنا وهي على متنها في سباق مع الريح.

في صباح اليوم المتفق عليه، كنت أنتظرها عند محطة «كوبا»، على متن سيارة مفتوحة متداعية ذات واقيين من الطين مختلفين. كانت حمراء بقدر الـ«بوغاتي» نفسها، ولكنها كانت تنتمي إلى جيل أقل نبلا. كم كانت تبدو جميلة عند هبوطها من الترام، وحينما راحت تتقدم نحوي بخطوات متلهفة، جاعلة تنورتها ترفرف كطاحونة الهواء حول ساقيها الرقيقتين الأنيقتين! صفعتني بود بقفازها المصنوع من الدانتيل بينما كانت تحمل باليد الأخرى حقيبة كبيرة مملوءة بالحاجيات الصغيرة الخاصة بالنساء. وأثناء جلوسها بجواري أخرجت منها نظارات شمسية، ووشاحاً طويلاً من الحرير، وانطلقنا نبتعد عن المدينة، وعن «روكا» وعن كل ما يربض بداخلها من أوبئة وأوجاع قاتلة.

خرجنا من «باليرمو» قاصدين جسر «بونتي ديل أمّيراليو»، بيد أننا سرعان ما ابتعدنا عن طريق البحر، لنهيم على غير هدى عبر طرق ريفية ملتوية وضيقة بين جدارين صخريين خلفهما نمت شجيرات الآس والزيتون وقد قضمتها البهائم. بدت لنا فجأة شجيرة «أغاف» على حافة الطريق بهية مزدانة بزهورها كشموع فوق مذبح الكنيسة، فتوقفنا. قامت «مارتا» برَشْم إشارة الصليب، لا أعرف لِم، وقالت: «يقولون إنها تزهر مرة واحدة كل عشر سنوات، لتموت بعدها في الحال. هناك إذن مغزى بالتأكيد من وراء ظهورها لنا بهذه الطريقة».

غطت رأسها بالوشاح لتحتمي من هواء الطريق وإن أمكن من

التراب، وكانت تبدو راضية مثلي أيضاً من التبدل السريع للمناظر وللمشاهد خلال الرحلة. وبينما كنا في طريقنا، وبعد أن قطعنا بعض الكيلومترات، لم يصبنا الهلع إذ وجدنا أنفسنا، وكما كانت تشير علامات إرشادية كبيرة على الطريق، وسط حشد من الفلاحين والفلاحات يسيرون في طريقهم لاحتلال بعض الأراضي من مزرعة البارون «بازيليو تريغونا»[1].

كان موكب العربات، والفلاحين، والبغال يمتد لمسافة طويلة، ويتقدم بتؤدة فوق طريق بين الحقول، بغلاً تلو بغل، ووجهاً تلو وجه وقد أحرقها هجير الصيف، خلف ناظر المزرعة الممتطي فرسه والذي كان يرتدي ثياباً أشبه بالزي العسكري. كانت حركاتهم قليلة، ولكنها مصحوبة بحماسة خَجِل مثل الذي يشعر به طلائع جنود منتصرين حينما يقتحمون قاعة عرش مكدسة بالمرايا بينما أياديهم تقبض على المعاول. لكن، كان هناك الكثير من الصبية الأشقياء، لصوص العنب، ملائكة بشعر أشعث وبأياد تحمل مسدسات زائفة. كانوا يظهرون، ويختفون، ولكن دون جلبة أصوات أو ضحكات، تارة فوق أحد القنوات اليابسة، وتارة أخرى في الحقل يطاردون تيساً بفم بارز قد استطال ليلتقط عشباً وقشاً نصف محترق. كنا نسمع فقط أصوات الأمهات تهتف بهم، وقد جمعن وعقدن شعرهن خلف رؤوسهن.

اجتزنا الموكب ونحن نحيّيهم بود، ولكن دون أن نتلقى في المقابل

(1) يلمح الكاتب إلى قيام المزارعين في جزيرة صقلية عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة باحتلال بعض أراضي الإقطاعيات للاحتجاج على توزيع الأراضي والظروف الاقتصادية. (المترجم) .

سوى تحية جادة بإصبعين ممتدتين فوق القبعة، مصحوبة بضحكة مظلمة، يمتزج فيها العداء والاحترام بالقدر نفسه، علاوة على شعور بالمفاجأة والذهول لرؤية وجوه غير مألوفة من المدينة تطل من نافذتي سيارة.

سألتْ «مارتا» حينما ابتعدنا تاركين إياهم خلف ظهرينا وسط تراب الطريق: «أنحن الزائفون، أم هم؟».

أجبتها: «ما هذا السؤال! يكفينا أن نجوع لنصبح حقيقيين، بل أكثر حقيقة من الجميع. بالعكس، إنما نحن مَن نشبه سمك الزينة داخل الحوض. إن الأمر جلي كالشمس».

همهمتْ: «كنت أظن أن كوننا قريبين من الموت... فماذا يعرفون هم عن الموت؟».

وبَّختُها: «إنهم يعرفونه أكثر من كلينا معا. بل إنهم ينظرون إليه نظرة صحيحة، بينما نحن محنطون داخل عبق الكلمات، لا نفعل شيئاً آخر سوى مداعبة احتضارنا الصلف، ودون أن ندري إن كنا نحمل فوق رؤوسنا تاجاً من الشوك أو قبعات للاحتفال في الكرنفال».

قالت: «أنا...».

«أجل، وأنت أيضاً، بوشاحك هذا الذي يجعلك تشبهين «إيزادورا دونكان»[1]، وبأشربة السعال اللزجة المكدسة في حقيبتك. إنهم حقيقيون، إن عرقهم هو التاريخ، وحتى رائحتهم الكريهة هي تاريخ

---

(1) هي الراقصة الأمريكية «إيزادورا دونكان» (1878–1927) التي تُعدُّ إحدى الرائدات الشهيرات للرقص الحديث. (المترجم)

أيضاً. إنه التاريخ نفسه الذي نحاول نحن الاثنان، باستمرار، وبجهد مضن، محوه بممحاة رخيصة...».

كنت أرغب في أن أكمل حديثي غير أن «مارتا» قاطعتني كالعادة بسعالها، وحينما هدأت حدته، وضعت يدها أمام وجهها بحركة كنت قد رأيتها تفعلها مرات عديدة.

قالت لي: «لِمَ توبخني على ذنب أنت نفسك تعترف باقترافه»، ثم أردفت بنبرة جادة صارمة: «فلتنصت لي، ولتتذكر أن الإنسان الحقيقي الوحيد هنا هو أنا، وسأظل هكذا ما حييت. أما أنت والآخرون فما أنتم إلا بصيص من الضوء الشاحب، وأشياء زائفة أشعر بها تتنفس وتتكلم بجواري. أما مسألة أن التاريخ لا يعتد إلا بكم، فإني لا أفهم معنى هذا. فلتفهمني، إني لا أجد شيئاً في بلايين القرون السابقة واللاحقة أكثر أهمية من موتي. إن كل المذابح والمحارق، وكل تحركات الصفائح القارية، وانفجارات النجوم ليست إلا أغنية قصيرة عابرة مقارنة بهذا الطوفان الكارثي الضئيل والفريد ألا وهو موت «مارتا». فماذا عليّ أن أفعل حتى أرجئ وقوعه ولو للحظة واحدة؟ أعليّ أن ألعب دور العاهرة، أو الجاسوسة، أو السجانة! ومن يدري، فلعلي أديت هذه الأدوار فعلاً».

صاحبتنا تلك الحوارات، وأخرى شبيهة، حتى بلغنا البلدة القريبة الجاثمة فوق تل صخري مخروطي يقع عند تخوم الجبال الداخلية، ولكنها مع هذا تظل قريبة من البحر. فكرنا في النوم فيها فقد كنا

منهكين. في الحقيقة لم أكن متعباً كثيراً عكسها هي. ورغم هذا أرادت أن نصعد مترجلين فوق قمة عالية، لنرنو من عليها إلى الوادي، وإلى الأشرعة التي كانت تتأرجح في ضباب الأفق.

قالت: «إنهم يبحثون عني في «روكا» في هذه اللحظة».

أجبتُها: «اختفاء غامض لراقصة سابقة...!». رحت أقلد صياح صبي الجرائد مفلحاً بهذا في رسم الابتسامة على شفتيها. استدركتُ: «أتصدقين أن الاختفاء والهرب كانا في الماضي دليلاً على تمتعك بوضع خاص متميز. لقد كان الملوك فقط من يختفون في الليالي العاصفة المظلمة».

أخذت تمزح هي أيضاً: «أتظن أني ملكة إذن؟ جلالة البائسة «مارتا» الأولى. رعاياها فرد أو اثنان، على الأكثر، يتلاعبان بها كملكة الشطرنج».

ابتعدت عني، ركضت إلى الأسفل، وجدتْ عند منتصف المنحدر بعضاً من النساء قد انحنين فوق أحواض أرضية للغسيل تحمل الأحرف الأولى لمالكيها لينظفن بعض الأزياء الكرنفالية، وهن يرددن الأغاني. قلن لنا حينما بلغتهن معها إنها كانت مخصصة للاحتفال بعيد القديس الذي كان سيُعقد في صباح اليوم التالي. أخذنا نتبادل معهن الحديث الهادئ والسعيد بشكل مّا، ونحن جالسون على حافة أحد تلك الأحواض. عدنَ من جديد لترديد الأغاني، وانصرفنا يلاحقنا صدى صوتهن.

ورغم أن اليوم دنا من نهايته، لكن الهواء كان لا يزال مشدوهاً

بالضوء. ليس فقط ضوء الشمس التي كان وهجها الأحمر القاني في الغرب لا يزال ممتداً محاطاً بزبد بخاري بين جمرات محترقة رمادية، ولكن كان ثمة ضوء آخر ذو لون وردي مغاير يبدو بازغاً من جفن أو من تويج سماوي مفتوح فوق رأسينا، وراح يصحبنا بمحاذاة الطريق وكأنه سيف أو نجمة شمال ترشدنا.

كان ذلك الضوء يتأرجح فوق قمم الجبال وبين صخور التلال المحيطة، ويتسرب داخل الشقوق المزدحمة بالشوك؛ ويتشتت فوق الجسور حيث كانت بعض شجيرات الكرم تصارع حتى تنتزع جزءاً ولو ضئيلاً من الأرض بين جدارين من الصبار. حينها رحت أفكر في موكب صغار ملاكي الأراضي وفي زعماء الفلاحين والقرى مع بغالهم وخيولهم البنية اللون؛ وفي أحذيتهم القماشية التي كانت تضرب أقدامهم الأرض بها؛ وفي صياتهم الحادة الرشيقة؛ وفي لفائف الحبال والفؤوس التي كانوا يحملونها فوق أكتافهم. فأي محصول جاف وأي أرض كانوا يريدون وضع حد لها؟ أي دار كانوا يبغون تشييدها فوق تلك الأرض، وأي نُصب مشابه للحياة يبتغون؟ أكانت خطواتهم إذن بلا جدوى كخطواتنا؟ مثل دخان سنواتنا المهدورة؟ وأخذت أتأمل تلك الشمس، الشبيهة بالغليون الشراعي القديم لملك إسبانيا، التي كانت تبحر في الفضاء مسومة أطنابها المشتعلة فوق صفحة البحر؛ وتلك الأدراج، والمسلات، والأروقة المتداعية من سحب السماء التي كانت تتدلى منها كما يبدو كؤوس الفوز في مسابقة للصيد على هيئة جثامين حيوان «ابن عرس» وبقايا زهور أصابها التحلل والتعفن...

أكان كل شيء خيالياً حقاً عدا موتنا كما كانت تقول «مارتا»؟

أجبت نفسي في صمت: «فلتصدق ما تراه عيناك فقط! وإن كُتبت لك النجاة فعليك أن تحاول أن تتشبه بهؤلاء الرجال».

لكني كنت أعرف أني لم أكن لأفعل هذا.

حينما انطفأت آخر شظية من الضوء، وغشى الليل رؤوسنا، وكأنه ثنايا عباءة ضخمة، كان لزاماً علينا الرجوع. كانت غرفة الفندق أكثر رحابة مما كنا ننتظره، وكانت بها شرفة مفتوحة على همهمات الريف وعلى البحر البعيد الذي كانت مياهه تتلألأ كالعلامات الفوسفورية.

ظلت «مارتا» تطل من الشرفة لوقت طويل بينما كنت أخلع عني ثيابي، صائمةً أذنيها عن سماع مطالبتي لها بألا تعرض نفسها للرطوبة التي كانت آخذة في الارتفاع. كانت في الحقيقة نداءات غير مقنعة منذ أن صرت أشعر بأنه لم يعد بوسعي أن ألعب دور المُربي لها أو الحارس عليها في تلك المغامرة، وأني لم أكن أكثر من مجرد شاهد عيان ومدون للأحداث. كان من غير المجدي أن تتشبث بإصبعها بحافة الحياة بينما يتدلى جسدها بأكمله في هوة الموت. وفي اللحظة التي أخذت فيها الهالات القاتمة للعينين والصيحات المشؤومة للسعال تنبئ عن دنو الانهيار النهائي، بينما القدر قد كتب لي النجاة والفرار من مصير كهذا عبر شق ضيق كسُمك الشعرة، أدركت ساعتها أن الثمن الذي كان علي أن أدفعه لهذا هو أن أتجاوز خلف ظهري، بعد أن التفتُ عنها للحظة واحدة، كل أثر أو ظل لا يمكن إنقاذه لـ«سيستا»، أو «مارتا»، أو «أيوريديتشه»، أو ماذا كان اسمها بحق الجحيم؟

لم تكن «مارتا» تتحرك من أمام النافذة التي كانت تطل على البحر. قالت لي فقط «نعم» لمرتين دون أن أدري ماذا كانت تعني بهذه الكلمة.

في ما بعد، حينما كانت بجواري، في الظلام، راحت تبحث عن يديّ، أرادت أن تضعهما فوق بطنها، وقد أمسكتْ بهما حتى تشعرا بانحناءة خفيفة حول جزء بارز منتفخ قليلاً.

قالت: «إن كان طفلاً...»، ضحكتْ، ثم، فجأة، بدلتْ من نبرتها ومن الموضوع: «فلتُذكِّرني غداً أن نأخذ معنا الملاءة الملوثة بالجراثيم. سندفع من أجلها، فلدي مال وفير».

ورغم أني بيني وبين نفسي كنت أرى الحق معها، لكني لم أستطع أن أفعل شيئاً آخر غير السخرية منها: « فكرة رائعة... رائعة، سأضعها ضمن حاجيات عُرسي. ولكن أليس من الأيسر أن نضع جرساً حول كعوب أقدامنا؟ سيكون أكثر توفيراً للمال أيضاً».

لكنها وضعت إصبعاً فوق شفتي لتُسكتني، احتضنتني بقوة، عضتني، صدتني، زفرت في أذني سعير الحمى. كانت كلها دعوات صامتة لكي أحبها، ولم يمنعني حزني عن تلبيتها.

لم تكن ترِدُ من النافذة أية جلبة سوى صوت عجلات إحدى العربات من حين إلى آخر فوق أحجار الطريق. غير أن نسمة خفيفة من ضوء شاحب كانت تتسلل إلينا كتلك التي يبعث بها القمر قبل بزوغه من وراء التلال. وعلى شحوب ذاك الضوء إلاّ أنه كان كافياً ليعكس على جبينها المحاط بهالة من شعرها القصير بقعةً من النور في حلكة

الليل. حينئذ، رحتُ، بفم منهك، أُقبل عنقها مما جدد لها ذكرى قديمة مؤلمة، فسمعتها تتكلم بمفردها بشيء من الخيلاء، كما كانت تفعل في طفولتها: «آمين! فليكن الأمر هكذا هذه المرة أيضاً يا عزيزتي «مارتا»! ومنذ الغد سيكون عليك أن تقبعي في هدوء في جحرك لتموتي».

حينها لم تعد تستطيع كبح دموعها.

-15-

بين الغفوة واليقظة، بدا لي أني استمعت لبعض أصوات انفجارات ألعاب نارية وبعض الأجراس البعيدة، ولكن ما أيقظني فعلا، هي الأصوات الموسيقية والمشاغبة أسفل الشرفة للباعة المعلنين عن ألعاب التصويب النارية. تذكرت ساعتها، أنني حين مروري بالبلدة، في المساء، كنت قد رأيت الزينة وأعمدة الألعاب النارية قائمة في الشارع الرئيسي، ورأيت في إحدى الساحات ألعاب الملاهي ساكنة ومهجورة مؤقتاً.

لقد كان يوم عيد إذن. كنت أنتظر منذ وقت طويل لكي أقارن سلوكي بسلوك الآخرين أثناء وجودي وسط الناس، وأن تسعَدَ عيني برؤية أناس يرتدون ألواناً مختلفة بعد ردح وتخمة من الزيّ الموحد. من ناحية أخرى، ألم يكن علي العودة إلى الناس، ومشاركتهم جلبة الحياة تلك؟ ألم يكن من المناسب إذن أن أمرّن نفسي على هذا؟

إلا إذا... ها هي شوكة جديدة من الحزن والشؤم راحت تؤرق مضجعي لساعات، عقب الجماع؛ منذ أن أصابني الأرق جراء شعور بالسخونة في جنبات رأسي. رحت أَعُد ضربات قلبي بإصبعي، لأكتشف أنه لم يكن يَخفُق سريعاً بل كان أكثر اعتدالاً مما كنت أتوقع. كان قد ساورني شك بأن «الماغرو»، لنشوته المريضة، أراد فقط أن يتلاعب بي عبر طمأنتي، وكأنه يقلد القط القاتل الذي كان قد أفرط في الثناء عليه. لعله أراد أن يصطنع فرقاً بيني وبينها، يدمر به توافقنا،

فيجعلني أبتعد عنها كما حدث بالفعل جزئياً.

رغم هذا نهضت من الفراش. بيد أني لم أرد أن أيقظها من الجُحر الذي كانت قد انكفأت بداخله، وقد غطت رأسها بالملاءة، وكأنها ضحية تنتظر الضربة القاضية. بل على العكس، حرصت على ألا أحْدِث أي جلبة، وخرجت من الغرفة بعد أن تركت لها على الطاولة رسالة أخبرها فيها بمقصدي، ومضيت في هذه الساعة المبكرة إلى قلب البلدة.

كانت تبدو لي بلدة مأهولة بالسكان، ولا تشي بالحزن، ولم تكن أكثر فقراً من بقية البلدات الأخرى القصيّة في الإقليم حيث كان يسيطر على الأمور فيها ببشاعة وسخرية في الوقت ذاته قاطع الطريق «جوليانو». كانت بيوتها ملونة بلون الميثيلين الأزرق، وكانت تزين البوابة البائسة لكل منها عريشة ياسمين ذات عطر فواح. وجوه سمراء، لكنها ترتع في السعادة وكأنها غسلت بصابون جديد، كانت تطل منها بين قوارير الريحان، وتتطلع إليّ أثناء مروري بها. وفي تلك الساعة المبكرة، كانت الفتيات يخرجن لحضور القداس الأول وكأنهن أفراس سُرِّجت للاحتفال بمولد القديس. كن يخطون كالسيدات، ويلتفتن يمنة ويسرة لينثرن نظرات تنم عن الأناقة والكبرياء، وقد أحطن خصرهن بشريط من القطيفة، وارتدين تنورات من خيوط القش المعقود، وجوارب فيروزية اللون، ملابس كنت أحسبها قد انقرضت منذ زمن. حتى أن الحارة الفقيرة، التي كن يتقدمن منها، بين أقفاص الدجاج وبقع الطين المتناثرة، لم تنتقص من خيلاء خطواتهن، بل أضْفَت على المشهد

جلالاً وفخامة. ظل الأمر هكذا إلى أن انطلقت من مكبر صوت ألعاب الملاهي أغنية «*boogie—woogie*» لتحل محل أغنية الموكب الشعبية المحلية «*U sàbbatu si chiama alleria cori / bbiatu cu avi bedda la muggheri*»[1]، فتلألأت في عيون الفتيات نظرات ماكرة، وكدن يرقصن على وقع موسيقى «الروك» بمفردهن.

رحت أشاهد وأستمع في سعادة بينما كنت أقف تحت إحدى الشرفات المزينة بالرايات، أو بينما كنت أصعد وأهبط بمحاذاة «الشارع»، إن كان بوسعنا أن نطلق عليه هذا الاسم. لمحت بين الطريْقات المجاورة صوراً أخرى مضيئة بحياة حقيقية: يدا امرأة ممدودتان تحملان طبقاً تقليدياً من مدينة «كالتاجيروني» كان أحد الباعة ينثر فوقه سيلاً من الترمس الأصفر؛ وفي الجوار ومن خلال زجاج أحد المقاهي رأيت رؤوساً مجعدة بقبعات حداد سوداء، وقد انحنت فوق سجادة بلون أخضر زاهٍ حيث كرات البلياردو تطارد بعضها ببطء.

فكرت حينها: «ها هي الحياة الحقيقية، مهترئة صاخبة، كتلة من الدم واللحم. وها أنا ألتهمها، أتحسسها وأشمها. ولكن «مارتا»...». كنت أمام الكنيسة، وسط زحام المنتظرين لخروج نُصُب القديس. وعندئذ، وبينما كانت جلبة عالية من الطبول والصنوج تدوي لتستقبل الحدث، وبالونات تنطلق في السماء، وزهور تتساقط كالمطر من الشرفات، أحسست بيد ضئيلة تلتف حول ذراعي، وسمعت صوتها يتضرع إلي

---

(1) أغنية شعبية صقلية تعني كلماتها «في يوم السبت تسعد القلوب وطوبى لمن له زوجة جميلة». (المترجم)

بنبرة محتدة: «لا تتركني وحدي أبداً!».

كانت «مارتا» قد لحقت بي، وضمتني إليها بقوة مسندة رأسها على رقبتي بينما يعتريها غضب الحمائم. سريعاً، رفعتُ ذقنها بإصبعيّ لمواساتها حتى عادت الابتسامة لبثري حدقتيها. وسرعان ما تحولت البسمة في ما بعد إلى ضحكة في أحد أكواخ اللعب، حينما دفعتْ دون جدوى طارة حديدية تسير عجلاتها فوق قضبان نحو جرس بعيد المنال، فارتدّت إليها ثانية دون أن تبلغ هدفها.

سألتني «مارتا» وهي غارقة في أفكارها بينما كنا نأكل بعض الحلوى والمقليات التي ابتعناها من إحدى عربات بيع الطعام: «والآن ماذا علينا أن نفعل؟». ودون أن تنتظر إجابة مني، وبينما كانت تشير إلى طوفان من المارة، سألتني: «كيف هي بلدتك؟ أتشبه هذه البلدة؟».

أجبتها مزهواً: «إن بلدتي مثل صقلية بأكملها. تتدفق بها أغادير تحمل أسماء قديمة محاطة بخضرة الريف، وفتياتها يشبهن الفتيات المرسومات على المزهريات. هناك اكتست العظام الصلدة للجزيرة بطبقة رقيقة من الجبال. وحينما تعلو ثلوج بركان «إيتنا» صوب زرقة السماء يغدو المشهد أشبه بإحدى اللوحات الشرقية التي تعود إلى القرن الماضي، مثل لوحة جبل «فوجياما» الحريري[1]. ولأني وُلدت في الجزء اليوناني لصقلية، لم أفلح ربما في اكتساب المزاج الكئيب والمأساوي للناس هنا، ببنادقهم ونظراتهم».

أجابت: «إني لا أفهمك. إني أراكم كلكم متساوين: ضئالاً،

---

(1) أحد الجبال اليابانية المشهورة. (الكاتب)

شهوانيين، ومخادعين. لن أستطيع أن أعيش لفترة طويلة مع أحدكم، ولا أرغب أن يكون لي طفل منه». وأخذت تتلمس بطنها بيدها.

لم تكن كلماتها ودودة، بيد أني لم أستطع أن أغضب منها كثيراً. بل على العكس، خطرت لي فكرة أن الأمر كان سيسوء أكثر لو بادلتني المشاعر نفسها، وكانت أغرقتني معها في عالمها المختنق والضائع. ولما كنت أنا فقط من يشعر بالحب، وبتلك الطريقة الخائفة والمتقلبة، كان يكفيني القليل فقط من الوقت لكي يتكفل موتها بإغلاق تلك القضية، موارياً إياها تحت الثرى وفوق أرفف أرشيف حياتي.

ولذا فقد استسلمت طوعاً للتحقيقات التي كانت تُجريها معي ونحن جالسان حول طاولة خارج أحد المقاهي أثناء فترة توقف العزف الموسيقي لجوقة البلدية. وأخذنا نتبادل الحوار بيننا وسط دائرة من الأعين النهمة والكئيبة.

سألتني، وكانت تلك المرة الأولى التي تبدي فيها فضولاً لمعرفة أخبار عني وعن طفولتي في بلدتنا.

أطلقت العنان لنفسي. فلا شيء أجمل لي من الحديث عن نفسي بصوت عال.

رحت أقول ناظماً: «في ذلك الوقت كنت أحب الجزيرة مثلما نحب شخصاً أكبر منا يلعب معنا. إني أعرف أنه أمر مذكور في كتب كثيرة، غير أني لا أستطيع منع نفسي من التأثر أمام الجنان السندسية الخضراء الخالدة. كنت أحب النوم في الغرفة العلوية في البيت الريفي، تظللني أكاليل البصل وثمرات الشمام المحفوظة في الجوارب؛

والاستحمام في مياه الطواحين والسواقي؛ وأن أحطم بضربة من قبضتي عش دبابير عنقودي يتدلى بين عضادة الباب وأسكفيته. أتعرفين كيف يبدو فتى من الجنوب عند منتصف النهار؟ حين يضطجع مسنداً رأسه فوق إحدى الصخور ليراقب التحليق الملتوي للطيور المتشابكة في السماء؛ أو حينما يهبط في غدير ليصطاد ديدان العلق الطبي لبيعها إلى المشعوذة المعالجة، ثم يتدحرج فوق العشب لتجفيف جسده ...؟ ما أكثر التعاويذ السحرية والحيل التي كنت أعرفها آنذاك! كان يكفي أن أذكر واحدة منها فقط، وأنا أتلاعب بالسكين بحركات بهلوانية، لكي أجز رأس العاصفة البحرية ريثما أراها تتلوى في الأفق بلونها القاتم. بيد أني لم أرد أبداً إفشاء سر تلك التعويذة، والآن ونحن بحاجة لها، فها أنا قد نسيتها».

كنت أحاول بخيالاتي هذه ملء الفراغ الذي كان يبدو أنه صار يباعد بيننا، وأخذ يتسع وكأنه شق في الأرض السمراء الجافة أثناء شهر يوليو. وقد كان ثمة دوار حلو يداخلني وأنا أستمع لنفسي بينما أمنح جسداً وصوتاً لمتحف الظلال الذي كنت أحمله داخل رأسي منذ زمن طويل.

سألتني «مارتا»: «كنت تعرف نساء إذن؟ وكيف عرفتهن؟».

«أجل كنت أعرفهن، ولكني كنت أعتد أكثر بالأصدقاء، كلهم جميعاً وإلا فأي نوع من الأصدقاء كنا! فكلما كان العالم يدفعنا لنشعر نحوه بالغثيان وبالهلع حتى من مجرد الاقتراب من حجر، كنا نزداد إخلاصاً واتحاداً في ما بيننا. كان ميثاق روحي يربط بيننا بأن يظل

جميعنا معاً إلى الأبد على وجه البسيطة، كفرسان المائدة المستديرة. كان بمثابة وسيلة نتّقي بها غدر السنين، وذريعة ثمينة ليغدو كل منا شبيهاً برفيقه. فقد كنا ننشد خداع المصير وتجنب سهامه، فلا يستطيع إصابة أي منا، لذا جعلنا أجسادنا تتشابه وأسماءنا تتبادل؛ فكان أمراً جميلاً حقاً أن تطالع وجه إنسان آخر، وأن تحب نفسك فيه.

إلى أن أتى يوم، أثناء مسابقة في الركض، وحدث أن وقعت على العشب بيدين مرتجفتين. ما زلت أشعر بتلك الرياح الجنوبية الحارة تلفح وجنتي، وتبعثر وريقات شعري. كنت أضحك، بعيون مغمضة وبفم جاف، إذ لم أكن أعرف ماذا يحدث لي. كنت أنصت لدمي وسيلانه السريع المفاجئ. ثم وثب قلبي كثعلب أسفل يدي، فصرخت، وأدركت أني كنت فوق الأرض بصحبة رائحتي وموتي. هتف بي رفاقي، فطفقت أركض عبر الحقول الخضراء ماحياً بقدمي خطوطاً طويلة من قطرات الدماء الشبيهة بصفوف من النمل.

تبدل الحال بعدها تماماً. رحت أفقد الأصحاب الواحد تلو الآخر. تعلمت أن أصحب الفلاحين إلى الحقول لجمع الخردل، والزيتون، والليمون لكي أُنهك يدي فقط، وحتى أستطيع النوم في المساء من الإجهاد. تعلمت متعة السير لمسافات طويلة ليلاً حينما يغشى ضوء القمر الوادي حتى حافته ويعشق صحبة الظلال التي تخلفها أشعته. لم أعد أمضي الساعات والساعات في الشرفة لأتخيل في السحب صوراً لمحفات تجرها أزواج من البغال لأعنّتها أجراس ذات رنين لا يتوقف. بل كنت أسير الهوينى بين حافتي درب مردداً اسمي بتؤدة

حتى يشبع منه فمي. منذ ذلك الحين، وُلد بداخلي ذلك الشعور بجنون حواسي، وبالهلع كمن عليه الفرار فور حلول فصل الصيف. عندها، كان يخيل إلي أن رجلاً مّا، جباراً طاغوتاً بلا رحمة، كان يعمد إلى بث الاضطراب في طريقي ناثراً ومبعثراً فوقها لحظات تمتزج فيها الحقيقة بالخيال. هكذا، غدوت كمن يلعب لعبة «الغميضة» ويبحث مترنحاً بأعين معصوبة بين رفاق لا يعرفهم، وبت لا ألمس بأصابعي خائبة الرجاء سوى وجوه لوحوش.

غير أن «مارتا» لم تكن تصغي إلي. في المساء، في مسرح العرائس، جلسنا في قاعة مكشوفة فوق أرائك طويلة لنحضر عرضاً غير مألوف كانت إحدى اللوحات الإعلانية تعلن عنه. لم يكن عرض «غويرينو التعيس» ولا حتى «الصديق توريدّو»، بل كان عرض «نهاية طروادة وموت الملك أجاممنون»[1]. وبينما كان مُحرِّك العرائس يتقدم ليأخذ مكانه في بيته الخشبي مر بيننا جاذباً النظر إليه لما كان يشي به من كآبة سوداء، ولشعره الأبيض الذي كان يكلل وجهه القاتم المنهَك والأشبه بوجه عرّاف.

كنا نفضل الظن أنه رجل غريب أتى من مكان آخر: لعله كان ألبانياً أو عرّافاً غجرياً. بينما كان رفيقه، عازف آلة الماندولين، الذي كان

(1) تتناول المسرحية قصة غزو طروادة التي ذُكرت في إلياذة «هوميروس». وفي القصة ينجح «أجاممنون» في غزو طروادة بعد أن أصيب في المعركة، وتقع «كاسندرا» ابنة ملك المدينة، التي كانت تمتلك هبة التنبؤ في يد «أجاممنون». لكن عند عودة «أجاممنون» إلى اليونان تتآمر زوجته «كلتمنسترا» عليه مع عشيقها «إيجسثوس» ويقتلانه ويقتلان «كاسندرا». (المترجم)

سيعزف الموسيقى المصاحبة للعرض، يبدو إنساناً عادياً، وكان يجلس برأس محنية قليلاً إلى الأمام، يتطلع إلى ما حوله حيناً، وحيناً آخر يداعب أو يتململ ملامساً أوتار آلاته بريشته المصنوعة من أصداف السلاحف. ولكننا، ومنذ أن بدأ العرض، ومنذ جعل الذهب الزائف لدروع الجنود يلمع فوق القلعة المصنوعة من عجينة الورق، داخلنا خاطر واحد، وأخذنا نتبادله بيننا بأعيننا: إن ما يُعرض أمامنا كان يتناول حكايتنا، وكان ثمة من يهتف باسمينا، هناك في مواجهتنا، لنجيب نداءه. وبمجرد أن شرعت «كاساندرا» في التأوه بصوت مُحرك العرائس الذي يشبه عواء الذئب؛ وطفقت ريح الأشجار تعبث بشعرها الأشقر الفاتح فوق جبينها؛ وأدرك الملك دنو نهايته: «يا إلهي لقد قُتلت بطعنة خنجر» «أجاممنون» الذي كان قد عاد مثلنا من الداء ومن الحرب؛ لم يعد هناك سبيل للشك أن ثمة علاقة، لعلها متعمدة، بين تلك الأساطير التي تعلمناها في المدرسة وبين حاضرنا وماضينا القاسيين والمخزيين. كانت تلك الحكاية المجازية تعنينا نحن.

كان يخيل إلي أن الكلمات التي كنت أسمعها، والتي كانت تدوّي في أذني بنبرات وبلهجة محليتين صعْبَتي الفهم، تزلزل وتوقظ في أعماقي نبوءة قديمة ومألوفة لي. فلقد كان الموت شراً ضرورياً، وكانت ثمة واقعة خيانة في حكاية كل منا، وخنجر دُهن بالثوم لتغدو طعناته أكثر إيلاماً، وحذاء مّا لسحق مؤخرة رؤوسنا. كان الأمرُ وكأنك تمضي مسنداً سترتك على ذراعك، فتدخل غابة من أشجار البلوط لتشترك في مبارزة ريفية أبدية لا طائل من ورائها، ولم يكن لنا أن نرى أبداً وجه عدونا

الذي كان سينقضّ علينا في كل مرة من وراء ظهورنا. كان صوت محرك العرائس يردد في الخفاء: «آه من مصائر البشر، فمجرد قطعة إسفنج مبللة كافية لمحوها وكأنها لوحة مرسومة».

لم أستدر في الضوء الخافت لأرقب المتفرجين، الذين كنت قد رأيتهم في البداية يدخلون في صمت، ويجلسون في الصفوف خلفنا. كنت أعرف ما ينتظرني، حشد لم يكن غريباً علي من الأشباح الرمادية، ومن الظلال ذات الثياب البيضاء الشبيهة بسترات المطر. لا أعرف إن كانت لرجال أو نساء. كلا، بل كانت لرجال ونساء معاً، هيئة مليونية من المُحلّفين تقف على شفا هوة سحيقة لا قاع لها. كانوا يدينونني، ويبرؤونني، ويصرخون في بأعين منطفئة: فلتغرب عن هنا، فلتنج أنت على الأقل بنفسك!

حينها أدركت، أو حسبت ذلك، قدر التشابك الذي يربط بين رغبتيَّ المتصارعتين وبين الحلم الذي أراه كل يوم في نومي.

في الفصل الأخير خلَدَت النساء الباخوسيات إلى النوم، وتعافى العالم أمام محكمة «أريوس باغوس»[1]. وبدلاً من ذلك الغضب العارم أخذت الرحمة تينع وكأنها قوس قزح للسلام. ورغم أن الشمس كانت قد دنت من غروبها، فقد ظلت مداعبتها البعيدة فوق يدي. فكرت

---

(1) «الباكوسيات» أو «الباخوسيات» هي دراما كتبها الشاعر الإغريقي «يوربيديس»، وتتناول أسطورة النساء الباكوسيات اللائي يرتدين جلد الحيوانات ويقدسن الإله باكوس بالغناء والرقص والتجول كالحيوانات بين الجبال والغابات. (المترجم)

«أريوس باغوس» هو تل في مدينة أثينا حيث مقر محكمة أثينا العليا القديمة التي كانت تتمتع بقدسية وهيبة. (المترجم)

حينها: «ما أروع هذه اللحظة!». رفعت عيني إلى السماء كصبي صغير لأمتطي غيمة لها هيئة ثور ولون يزداد شحوباً في زرقة المساء الذي كان يمتد في السماء. بدا لي في تلك اللحظة أن العلة الكامنة في عروقي لم تكن سوى بقايا من ظلال ودخان، حفنة من الحروف العالقة من اسم إحدى محطات السكك الحديدية لمحتها عين ليلاً، كلمح البصر، من نافذة قطار، ونسيتها بعدها بوهلة. أكان لا يزال هناك أمل في النجاة؟ أيمكننا أن ننال العفو؟ وأن نرى كل ما حل بنا من غضب وتعاسة وقد أمسيا سلسلة من الذنوب السعيدة؟[1] وأن يخلد الحنق والضغينة اللذان كانا ينهكان قوانا إلى النوم والراحة بعد زمن طويل من الركض؟ قلت هذا لمارتا، من دون صوت، واضعاً يدي فقط على كتفها. غير أنها تلقت هذا النبأ، هذا الأمل أو الهِبة، التي كان المساء يبدو أنه يمنحنا إياها باستسلام وخمول، مثلها مثل رجل ينصت بعدم اكتراث لطفل يزهو أمامه بصدفته البحرية.

وهكذا، حينما أُسدل الستار، وتفرق الجمع، ولم يتبق في الطريق سوى الأضواء الوحيدة المتراقصة للعربات، ورجال يمضون مبتعدين، انفصلت عني «مارتا» متوجهة بمفردها نحو السيارة، تاركة إياي وحيداً، لبضع دقائق، في حمرة الشفق، لأحرس ذلك الأمل في البراءة والخلاص وكأني عود ثقاب. أتى بعض الفتيان، وفككوا خشبة المسرح، وحملوا بعيداً الأرائك الخشبية؛ وهبّ من فوهات الكهوف القريبة

(1) يؤمن بعض الكاثوليك أن ذنب معصية آدم كان ذنباً سعيداً لأنه جعل الرب يبعث بابنه على الأرض لخلاص البشر. (المترجم)

هواء فاسد لأرض عطنة ولزهور ذابلة؛ وطفق القمر ينشر ومضاته الياسمينية بين النجوم. هبطنا بالسيارة بتمهل، وبأضواء منطفئة نحو البحر، حتى أمسى الاحتفال خلف ظهورنا عراكاً قصياً بين أضواء وامضة متسارعة.

-16-

كانت تلك آخر جرعة ضوء لـ«مارتا». بينما كنا في طريقنا تحسستها مصادفة، وأدركت أن جسدها مستعر من الحمى. باتت حشرجة سعالها الجاف والشديد الذي غاب عنها طوال اليوم بلا سبب مفهوم، أكثر حدة ودون انقطاع. بحثت عن مكان أتوقف فيه، لأن عطل إضاءة السيارة لم يكن ليسمح لي أن أبلغ المدينة حتى ولو استعنت بضوء القمر. كنت أرغب، على كل حال، في بلوغ الساحل حيث توجد الكثير من المنتجعات السياحية، وحيث كانت ثمة فرصة أكبر في الحصول على العون. تقدمت سريعاً باتجاه البحر، ثم أخبرني أحد الفتيان، الذي خرج إليّ من وراء أحد الأبواب بوجه ينطق بالريبة حينما هتفت به، أن البحر كان قريباً جداً، وراء تلك البقعة من أشجار الزيتون. لم نلبث أن رأينا أحد طيور النورس التائهة، بريش أبيض وأسود كالسنونو، وهو يحلق فوق كثبان من الرمال في مواجهتنا. حينئذ أصرّت «مارتا» بعصبية أن تترك السيارة، وأن تقف على قدميها في الهواء الطلق المنعش للمساء لتتطلع إلى البحر.

كان المساء قد هبط. أما البحر الذي بدا لي في الماضي لآلاف المرات يبزغ من وراء التلال المتعرجة طيّعاً وديعاً كما نراه في صور البطاقات البريدية، فقد كان عازماً على ألا يحول عنا ولو واحداً فقط من سمومه: الصرير الأجش لكمنجاته؛ أو رتابة أمواجه الهادرة المرتطمة بالشاطئ؛ أو الرائحة الكريهة العتيقة لجلفطة السفن وللمصائب. وبينما كنا ندلف

إلى المرسى الصغير، زاد من هلعي رؤيتي، عبر بعض الأبواب المواربة، لثلة من النساء اللائي تحلقن جالسات على أرضية مطلية بالقار، ليحِكْن، بأياد خالدة، وعلى ضوء الشموع، شباك الصيد.

ابتسمتُ عن غير رغبة قائلاً: «(«أتروبوس» و«لاخستيز»... آه... كثيرا ما أنسى اسم الربة الثالثة... »[1]. ولكن لم يكن يبدو على «مارتا» أنها تعي ما كنت أقوله، وكانت مستغرقة في التطلع إلى الشاطئ، وكأنها تتفحص عدواً.

كانت تلك بالتأكيد ساعة شاحبة تعيسة مثلها مثل أمسيات أخرى في نهاية شهر سبتمبر المحتضر فوق شاطئ متسخ بالطحالب وبصفحات جرائد شهر أغسطس. لم نُضِع وقتاً في مكابدتها، فأغلقت السيارة، ومضينا نطبع على الرمال آثار أقدامنا جنباً إلى جنب نبحث عن مأوى لنا.

تدثرت «مارتا» بوشاح، وراحت تسير بصعوبة متكئة على كتفي ومتأوهة بصوت خفيض. أما أنا فكنت على عكسها أشعر بأني قد تحررت من هواجسي الصباحية، ومن الإشارات والرسائل المتناقضة التي بثها في خاطري عرض العرائس، وراحت فكرة مندفعة جديدة تسيطر علي. فقد باتت حركاتي المتصلبة أكثر هدوءاً وانسياباً، وصرت منتعشاً قليلاً من الرذاذ الرقيق الذي كانت النسمات البحرية تبعث به إلى فتحات أنفي. وأخيراً، كنت في تلك اللحظة متيقناً أني أمتطي تياراً

(1) «كلوتو» و«لاخستيز» و«أتروبوس» هنّ ربات القضاء الإغريقية. الأولى تنسج خيوط الحياة، والثانية تبرم الخيوط لتتحمل أهوال الزمن، والثالثة تنهي الحياة بقطع الخيط المنسوج. (المترجم)

هوائياً صديقاً يحملني بمعجزة بعيداً عن قلب الهوة المخروطية السحيقة والدوامة العاصفة المظلمة. كان يداخلني، من لحظة إلى أخرى، شعور بالغرور الأبله شبيه بالزهو البدني حين كنت أقارن حالي بحال تلك المخلوقة التي كنت أسير بجانبها مصطحباً إياها إلى نهايتها، والتي كان سرعان ما يجتاحني من أجلها إحساس بالشفقة يتدفق من أقصى أعماق دمائي، فيمتزج بسعادتي لحالي محولاً إياها، بلا هوادة، إلى شعور طاغ بالخجل من نفسي.

كان الفندق الرابض فوق تل صخري مطل على البحر، والشاغر من النزلاء، يبدو لنا هيكلاً لمخبأ حربي مهجور من مخلفات التحصينات العسكرية، وقد أخبرنا الفتى أنه كان بوسعنا أن نجد بين جدرانه الخرسانية مأوى وسكناً قبل أن نعود في اليوم التالي إلى «روكا». كانت أشباح قليلة تُرى، وأصوات نادرة تُسمع من نوافذه الشبيهة بكوّات القلاع، مما شجعنا على أن نواصل السير نحوه. غير أن «مارتا» باتت غير قادرة إطلاقاً على الحركة. فلم يعد بوسعي إلا أن أحملها بين ذراعي، وأن أجعلها تتكئ عليّ لنقطع بضعة أمتار لا نهاية لها تفصلنا عن الفراش وكأنها هوات عميقة شاسعة بين نجوم نائية.

ألقت بنفسها وبكامل ثيابها فوق الفراش بحركة رشيقة لراقصة سابقة. بيد أنها لم تتناول شيئاً سوى قطعة من الخوخ من الوجبة الباردة التي طلبت هي مني أن آمر بتجهيزها لها. كانت تتطلع إلي بوشاحها الكشميري المُلقى على كتفيها بينما كنت أتناول طعامي. وحينما سمعت سعلتها القوية رفعت عيني لأطمئن عليها، ولكنها أمرتني بألا

أنظر إليها، لكنني رأيت على منديلها الذي دسته في عجالة في كيس الوسادة لون الدم المنذر بالخطر.

عمَّ سكونٌ مطبق الغرفة وكأن لا أحد فيها. كان بالأحرى هدوءاً مثل الذي يصاحب كمائن الظهيرة، حينما يلمح القاتل في ضحيته شيئاً من الدعة والسكينة على خلاف الأشياء الأخرى المحيطة. تُرى لِمَ تنتفض العنزة أثناء نومها؛ وأي آفة تجعل الكَرْم يتورم وكأنه جبين مصاب بالجذام؛ ولِمَ تصيب السماء الطيور بالخوف فتراها تهوي فجأة من علاها حتى تكاد تلمس عشب الأرض؟ نهضتُ، وتقدمت نحوها دون أن أدري ما الذي يمكنني فعله لها. كان جلياً من عينيها المذعورتين ومن شحوب وجهها أن شيئاً ما كان على وشك الحدوث لها، وأنه كان يطرق من وراء أحد الجدران. كان جداراً رقيقاً للغاية أراه بداخلها لا يزال صامداً في مواجهة فيضان جامح غير مرئي، ولكن، لم يكن هناك أي أمل في ألا ينهار بين لحظة وأخرى. أثناء هذا كان لهاثها يتصاعد، في ما باتت بصقاتها الدموية أكثر احمراراً وتردداً. وجدت نفسي أحمل رأسها بين يدي، كما يفعلون مع الشاربين الجدد المخمورين في مسابقات احتساء النبيذ في أحد الأعياد، بينما كنت أشعر برذاذ ثائر مندفع من زبد أحمر ومن الموت يتدفق من فمها. وها هو قد تفجر من صدرها سيل طنان صريح وبشع من دم أحمر مختلط بفقاعات هوائية فأغرق ملاءة الفراش.

صرختُ بها بلا معنى: «(«مارتا») ساعديني!»، بينما كنت أحمل في يدي بلا فائدة طُسوت وفُوطات. لم تمكث فترة طويلة، حينما عدت

لأراها كانت قد ماتت. كان المكان معبأ بعلامات على حدوث مذبحة بشعة، حتى أن خاطراً مفاجئاً قد راودني بأن أبحث عن السكين.

كانت ميتة، وقد كان هذا وضعها الطبيعي المسالم، وكأنها لم تك شيئاً آخر قبل هذا. تحولت في لمح البصر إلى حجر، قتيلة بلا حيلة، محض جماد.

انحنيت فوقها، ورحت أمسح بطرف الملاءة عن شفتيها الدم الذي كان لا يزال يتدفق منها. جلست بجوارها على الفراش. ليس بوسعي الآن أن أتخيل لِم! كنت أدرك أنه كان علي الصراخ، والنحيب، واستدعاء أحد مّا. بيد أنه كان يكمن بداخلي فقط شعور بالإنهاك الفضولي، تشابك في المشاعر، مثل إحساس بين الشبع والجوع، أو مثل الألم الافتراضي الزائف الذي يخيل إليك أنك تشعر به في مكان ذراعك المبتورة. غير أني عثرت بداخلي على قوة كافية لأغمض عينيها، وهمهمت حينها بكلمات، لم تكن دعاء أو صلاة، فلم أكن أعرف شيئاً منها، بل مجرد آية من التوراة، وجدتها بين أوراق القس «فيتّوريو»، وكان صداها يتردد في مسمعيّ في تلك اللحظة. ورغم أن طوفان الرب كان يدوي هادراً ومنشداً بلا ريب في تلك الملاءة الملطخة، لم تَلُح لنا ولو حمامة واحدة تحمل إلينا بشرى النجاة والخلاص.

في النهاية، أدرت ظهري لها، أطللت من النافذة لأرنو إلى الشاطئ، حيث لا أحد هناك، سوى ذلك الفتى الذي رأيته بالأمس (تُرى لِم لم ينم!) وكان منتصباً هناك يداعب ظلال قارب قابع فوق الشاطئ. رفعت جبيني إلى السماء. يا له من قمر أشبه بقطعة نقود! كانت أشعته

وظلاله الساقطة على الأرض بلون أبيض وأسود لفيلم سينمائي قديم صامت تعطي انطباعاً زائفاً وكأنه مشهد لجليد خيالي في حلم. إلا أن ريحاً وردت من الأفق راحت تبث في هدير الأمواج، التي كانت ساكنة إلى وقت قليل مضى، صوتاً رتيباً عالياً من النحيب القاسي المتناغم مع حزني عليها. حينها حلّ دمعي أخيراً عقدة صدري، وردّ إلى شفتي النواح وتأوهات الحداد القديمة التي تعلمتها في طفولتي من نساء فلاحات جليلات متسربلات بالسواد.

طفقت أردد: «(«مارتا»...«مارتا» اسمعيني! أين أنت الآن يا «مارتا»؟ أين تدب خطاك؟ في أي ليل أنت؟ بأي اسم تهتفين بي؟ بأي اسم أناديك؟ أهناك أنهار حيث تقطنين؟ أعليك أن تجتازيها سباحة؟ أو فوق ألواح ترتعش عند مرورك عليها؟ أأنت بمفردك؟ أأنتم كثيرون؟ أما زلت تذكرينني؟ فلتزوريني في أحلامي يا «مارتا»، حتى وإن آلَمَ الهواء قدميك الحافيتين، وإن لم تجدي شفتين لتخبريني بما تشائين! فلتنظري كيف تتركينني وحيداً في منتصف الطريق: بذرة فاسدة، مادة دنِسة، حفنة من تراب يتساقط فوقه المطر...)».

وهكذا، وكما كان ينبغي، عبر خاتمة من الكلمات المحفوظة عن ظهر قلب، انتهت قصة فوق خشبة المسرح، أساء غناءها قليلاً وبالتساوي مُحتضران قليلا الخبرة. أحدهما كان الآن يشكو حاله ويبكي إلى الليل مازجاً، إلى النهاية، وفي الإناء نفسه، بين الكذب والألم؛ بينما كانت الثانية (وما أكثر الدماء التي كان ذلك الجسد الشاحب يحتويها) تواجه ذلك النحيب بعبوس طفولي لا يتبدل، وبقيئها الأحمر القاني الجليل،

ولا شيء آخر. أطفأتُ الأنوار لكيلا أرى الدم، وعاودتُ البحث عنها في الغرفة بعيني على ضوء القمر. كانت تبدو نائمة وكأنها تتهدهد في سلام في مهد؛ وكان شعرها القصير أشبه بخوذة يبدو وكأنه هالة من الثعابين المسالمة حول وجهها الرقيق الراقد فوق الوسادة دون أن يترك فيها ولو أثراً لخفته.

خطرت بذهني لعبة الكلمات الصعبة النطق التي كنت أداعب بها «أديلمو»: «إريبو»، «إيروس»، «إيريني»...». فقد بت أحذو حذو «الماغرو» وصرت أنزع إلى الذوق الكلاسيكي القديم.

لم يتبق في عقلي (إن العقل غربال غريب له طريقته الخاصة في انتقاء ذكرياته) من الساعات التالية على هذا سوى بعض الصور المتقطعة، أشبه بألبوم صور محترق. لم أرها بعد هذا، ثمة ستار من نسيج مُشَّمَع ينسدل بيني وبين وجهها، بينما هي ترقد فوق منضدة بلياردو محاطة بأربع شمعات تعاني سكرات الموت البطيئة اللزجة مثل ذباب آخر أيام الصيف. بيد أنه بقيت بداخلي، وستظل تلاحقني، بعض الذكريات المفعمة بالحيوية والسخرية: مثل لعثمة طبيب العيادة المحلية الذي هرع إلى الفندق لتوثيق الوفاة؛ والدمل المتورم والملتهب في عنق بائع النعوش والمُغطى بشكل سيئ بقطعة من الوبر. سأظل أشعر بالظمأ نفسه الذي لا يرتوي أبداً، الذي تملكني في تلك الليلة في صمت الليل البحري، وظل مصاحباً لي حتى اليوم التالي، بينما كنت أنتظر من «الماغرو»، الذي تلقى النبأ على الهاتف بهدوء وسكينة يدعوان إلى الريبة، أن يرسل أحداً

من «روكا» ليعيدنا إلى البيت، أنا والمُتوفية. في ما بعد، وحينما سألني صاحب الفندق، الذي كانت ملامحه تنم عن توتر تقليدي رسمي، عن لقبها، فتشت في حقيبتها، وأدركت فجأة أنني لم آخذ أبداً على محمل الصدق اسم «بلوندو» الذي كانت قد سُجلت به في «روكا». وكانت الإجابة التي كنت أخشاها منذ زمن، ولم يعد بوسعي تفاديها أكثر من هذا، التي كشف لي عنها جواز سفرها الذي عثرت عليه بين أصابع أحمر الشفاه، ومبرد الأظافر، ورزم من الدولارات، ومن ليرات الجيش الأمريكي المكدسة في حقيبتها، هو اسم «ليفي». كان اسماً يهودياً ينبغي نطقه سراً وبصوت خفيض. لم أتساءل إلى أي درجة كان هذا الاسم يتسق مع قصاصات حكايتها، التي كنت أعرفها، أو كنت أظن معرفتها؛ وكم كان وميض نجمة داوود الصفراء تلك يمكن للأسف أن يغير من أحداث تلك الحكاية. لم يكن ذلك وقتاً لتحريات الشرطة بل للرحمة والشفقة، وقد كانوا ساعتها يهتفون بي من الأسفل.

كانت رحلة العودة إلى المدينة على متن سيارة نقل الموتى في ساعة الغروب جميلة. أخذت مكاني بجوار قائد السيارة، بعد أن تركت سيارتي ليقودها خلفنا معاونه، وراح موكبنا الصغير يشق طريقه الهوينى بمحاذاة البحر وكأننا في نزهة تحيط بنا أسراب السنونو البحري بتحليقها المتموج والسريع، وأشعة الشمس الساقطة في أعيننا. حدثني قائد السيارة، الحوذي السابق، عن شبابه، وعن زمن العربات التي تجرها الخيول، وكيف كان سقفها الأسود يخفي تحته أسراراً تفوق أسرار

غرفة الاعتراف بالكنيسة. رحت مستسلماً أحكي له عن «مارتا» وعن سرها الساذج. مع اقتراب المساء، وما إن بدأت بعض منازل الضاحية تلوح لنا، حتى داهمنا ضباب كثيف. كانت أرائك رقيقة من قطع قطنية بيضاء تصطدم بمقدمة السيارة فتتهشم كأمواج نهر «أخيرون» اللَبني اللون[1]. أبطأ هذا مسيرنا، وكان الظلام قد هبط علينا حينما شممنا عن قرب عند المنعطف المألوف رائحة «روكا». كانت تشبه رائحة محلول «الفورمالين» والتعفن السُكري حتى أنه كان بوسعي التعرف عليها من بين آلاف الروائح الأخرى.

رأيت، أخيراً، عند المدخل، بجوار غرفة حراسة البوابة، «الماغرو» واقفاً ينتظرني. تلقّاني بلمسة أبوية، فقد كانت إيماءة واحدة مني كافية له لكي يُنحّي عن قلبه بعيداً ذكرى فراري المجنون مع الراقصة.

قال لي: «ليس عليك أن تبرر شيئاً يا فتى. فعلى كل حال كان هذا أفضل لها. فقد تأخر موتها كثيراً. ولكن، لا أحد له آذان ليصغي بها إلى موسيقى وجوده وحياته، فيوقفها في اللحظة المناسبة. ولقد حانت تلك اللحظة لها مرتين».

أدرك من النهم الذي كنت أحتسي به كلماته أنني كنت راغباً في معرفة المزيد، فراح يستطرد:

«ليس الآن، عليك بالصبر! من ناحية أخرى لم يتبق الكثير. فلقد أوشكت موسيقاي نفسها على نهايتها. إن الأمر من بدايته إلى نهايته

(1) أحد أنهار الجحيم في الأساطير الإغريقية. (المترجم)

أشبه بفرار متواصل. لقد ركضت عبر الحياة دون أن أفهم منها شيئاً. غير أني، خلال فرسخ أو اثنين[1]، سأرى أخيراً البحر. إن سهام «أرسيس» لم تعد تصيبني»[2].

لم أرغب في حضور جنازة «مارتا»، ولكنني كنت موجوداً حينما حرقوا متعلقاتها الشخصية في محرقة «روكا». كان «الماغرو» يقف بجواري، وتابعنا سوياً بنظراتنا ثياب نومها، وخِفافها، وبزات الرقص بينما كانوا يخرجونها من صندوق ملابسها، فيدفع بها أحد الممرضين إلى قعر المحرقة بواسطة قضيب حديدي فتشتعل مصدرة طقطقات، متحولة بعدها إلى رماد. كانت هناك حزمة من صورها انتهت إلى المصير نفسه أيضاً، رغم أني كنت أرغب في الاحتفاظ بها. كانت من بينها صورة لها تجلس فيها على ركبتي ملازم ألماني يرتدي بزته العسكرية، مع بعض كلمات الإهداء في خلفيتها: إلى «غرانشي» بتوقيع «فون تيتسيو» و«فون كايو». بينما كانت الصورة تتلوى بين ألسنة اللهب كنت أشعر وكأن حربة بندقية قد طعنتني في بطني. أما «الماغرو» فراح يعلق عليها (فأي شيء يتعلق به، نعمة كانت أو نقمة، كان محكوماً عليه أن ينتهي إلى اقتباس من أحد الكتب) مستشهداً بكلمات بدا لي في ما

---

(1) الفرسخ هو وحدة قياس فارسية الأصل يعادل ستة كيلومترات. (الكاتب)

(2) يلمّح الكاتب إلى قصة المؤرخ والفيلسوف اليوناني «كسينوفون» في كتابه «الأناباسيس» الذي يروي فيه حملته العسكرية في أرض فارس في القرن الرابع الميلادي لمساعدة «قورش الأصغر» في قتاله ضد أخيه الإمبراطور الفارسي «أرتحشتا الثاني» أو «أرسيس». لكن قوات «كسينوفون» تعرضت لوابل من السهام مما أدى إلى هزيمة الجنود الإغريق وعودتهم إلى أراضيهم. (المترجم)

بعد أني أدركت مغزاها: «وهكذا حل عليهم العقاب»[1].

عند عودتي إلى غرفتي ألقيت بنفسي فوق الفراش لأفكر، فغشاني النوم فجأة واضعاً ذراعي على عينيّ. كانت الغرفة معتمة ورطبة حين استيقظت. تطلعت إلى الخارج، فرأيت سماء سوداء قاتمة دون أن أدرك سبباً لذلك. حينها فاحت رائحة، كانت قد تسللت إليّ أثناء نعاسي دون أن أعي معناها، وأدركت فجأة كينونتها. كانت رائحة زخات المطر فوق العشب، رائحة الغيم والضباب، ريحاً خفيفة لعاصفة نائية. حينها خرجت إلى الشرفة، ورحت أرنو إلى الحديقة، التي تعرفت فيها رغم ظلمتها، على بريق مقص بَسْتَنة منسي بين العشب، وأحسست بسعادة الجذور في جوف الأرض السمراء المبللة. ها هي قد أمطرت وقد آن أوان الخريف. قلت لنفسي إنّ عليّ الرحيل، فقد أضعت زمناً طويلاً بين الأموات، أحاكي موتهم، غافلاً وناسياً سخرية القدر. تذكرت رجلاً عجوزاً من بلدتي اسمه السيد «إيتشيه هومو، رَجُل الجمعة المقدسة»، والذي كان الناس يدفعون له المال في كل عام لكي يمثل مشهد صلب المسيح وموته في فناء الكنيسة. بعد العرض، كان يحب الزهو بنفسه قليلاً بين الجمهور مرتدياً ثيابه المقدسة، ثم يعود لاحتساء الخمر ولحياته المعتادة كإنسان خَطّاء. تساءلت إن كانت المنيّة قد وافته، وما إذا كان دوره ذاك قد أصبح شاغراً.

في الأثناء، وببطء شديد، راحت تمطر من جديد. لبثت واقفاً أطلُّ من النافذة يتساقط الماء فوقي من سقف الغرفة، ويسيطر عليّ بغرابة

(1) البيت 142 من الأنشودة 28 في جحيم «دانتي أليغييري». (الكاتب)

شعور بالحبور. أو لعلي كنت أشعر بالرضا فقط بينما كنت أتأمل الأرض الخضراء في الحديقة، وهي لا تزال تمتص قطرات المطر، التي كانت تتساقط على المقاعد الحديدية المقلوبة، وأوراق الشجر مصدرة نقرات وخريراً كنطق الحروف.

كنت أردد لنفسي أن الصيف قد آل إلى نهايته، وقد انتهى معه مجدي أيضاً. فلن يمر وقت طويل وستكون كل ذكرياتي عن الحمى، والثرثرة، والمناديل الغارقة بالدماء، والدموع قد تلاشت، وكأنها مجرد رحلة، حالة عابرة من الضعف اعترت قلباً أراد تعلم الموت. وكأي طاعون آخر، بلغ هذا الوباء المشؤوم أجله مع هطول المطر. فمع قطرات الماء التي كانت تسيح من شعر رأسي، وتسيل خطوطاً فوق وجنتيّ كان الداء ينسلخ عن جسدي ليرحل بعيداً سالباً معه كل بقية لي من كبرياء، وربما شبابي أيضاً.

كانت طرق أخرى، هينة، وصاخبة، ورتيبة، في انتظاري في الغد، إيمان فاتر، ورايات زائفة. كنت، بالطبع، سأسلم أمري لها، فماذا كان عساي أن أفعل؟ لقد بات إغواء العدم لي لا طائل من ورائه، فقلبي قد رفض عبر إشارات عديدة الإصغاء إلى ندائه. أما التعاسة بشهدها المر فلم أعد بحاجة إليها بعد الآن.

-17-

في هذه الليلة أيضاً، الخامس من نوفمبر لعام 1961، في السنة الخامسة والعشرين بعد خروجي من «روكا»، استيقظت في منتصف نومي على مذاق الدم في حلقي. أضأت المصباح، بصقت بفظاظة في راحة يدي، مثلما كنت أفعل ذات يوم، كي أفحص سريعاً وعن كثب كل قطرة. لا داعيَ للقلق، إنه مجرد لعاب نقي طاهر. فقد شفيت حقاً، رغم أنه ما زال يصعب علي تصديق هذا، وما زالت الذاكرة تصر على أن تبعث في حلقي عقب كل تلك السنوات بهاجس ذلك المذاق السكري المميت. كان «الماغرو»، الذي تلقى تعليمه في النمسا حيث نشأ «فرويد»، سيقول لي إنه نوع من التكرار القهري. إنه ميل نفسي مريض ونزوع فطري نحو بصق الدم.

حينها كان ينبغي قرع الجرس لاستدعاء راهبة الدوام الليلي لكي تساعدني في رفع رأسي ببطء؛ ولتضع تحت كتفي وسادة أخرى أو أكثر؛ في انتظار أن تتولى حقيبة ثلجية حماية صدري كدرع واق، وتصد، كأحد المتاريس، الطريق إلى «ترموبيل» أمام العدو[1]، فتحبط غزوه وطوفانه الصامت الزاحف نحوي. في الأثناء كان المورفين سيصل ليشعل أمامي دوائر من الضوء تزداد اتساعاً باضطراد في سعيها للتلاشي في نقطة مضيئة، فتبدو وكأنها بتلات زهرية برتقالية اللون تتساقط أبد

(1) وقعت معركة «ترموبيل» بين الفرس بقيادة «أحشويرش الأول» والإغريق بقيادة «ليونيداس» ملك إسبرطة في عام 480 قبل الميلاد، وأسفرت المعركة عن هزيمة الإغريق الذين رغم قلة عددهم وهزيمتهم أفلحوا في تكبيد الفرس خسائر فادحة. (المترجم)

الدهر وسط صمت بشع. ثم في اليوم التالي تنعقد المراسم المعتادة: فحص الأشعة؛ تناول الطعام البارد، والتزام الراحة في الفراش لثلاثة أيام على الأقل بجوار كومة من الجرائد تمتلئ بقصص قطّاع الطرق في بلدَتي «مونتيليبري» و«بارتينيكي». ساعتها، وفي محاولة مني للدفاع عن نفسي، كنت أدع نفسي لتأمل عناوين أخبار أخرى لأماكن بعيدة عن بلدتي: مثل نبأ سقوط «قنبلة «جيلدا» فوق قطعان الماعز والسفن في ميناء جزيرة «بيكيني»»[1]؛ أو «إعدام السفاح «بيتيوت»»[2]؛ أو «فتاة تغرق في نهر «سيركيو»».

كنت قد اجتزت نهر «سيركيو» سنين مضت خوضاً في مياهه، مُعلقا حذائي حول رقبتي، ورافعاً ثيابي وأغراضي وبندقيتي طراز 91 بيدي فوق رأسي. فكيف أمكنها الموت غرقاً في مياه لا يزيد عمقها على متر واحد؟ لا بد من وجود دوامة أو تيار شديد، أو شَرَك خفي غادر! كم سيكون جميلاً الآن السير عارياً في الماء كما كان يحدث في الماضي؛ والنزول إلى أحد الشواطئ القريبة في جزيرة «ديلّي فيمّينيه» أو في «فالديزي»! لكن، لم ولن يكون بوسعي أبداً هذا. حينئذ كانت تتسرب إلى أحلامي وخيالاتي صورة فتاة بلباس بحر ذي لون أسود، وبقطرة ماء تنسال على ساقها المتسخة بالرمال، تتأرجح إلى الأعلى والأسفل وكأنها تمتطي أرجوحة من الضباب، وتتهدهد الهوينى فوق رأسي جيئة وذهاباً دوماً وإلى الأبد. كانت مروحة تدور في أحد أركان

(1) «جيلدا» هو اسم التجربة النووية التي أجريت في جزيرة «بيكيني». (الكاتب)

(2) «بيتيوت» اسم سفاح فرنسي شهير أعدم بعد الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

الغرفة مبعثرة خصلات شعرها، وقد كان شعر «مارتا» هو ذاته شعر الفتاة الغريقة.

لبثتُ في «روكا» عقب موت «مارتا» لأسابيع قليلة. كان الخريف قد حل بصقيعه الرقيق، وبدوامات أوراق الأشجار الجافة فوق زجاج النوافذ. كانت الريح تبعثرها في الشرفات، ونلتقطها نحن بدقة متناهية عند الفجر، لمجرد أن نشغل وقتنا بشيء مّا، أو لمد يد العون لعمال النظافة. وضعوني في غرفة أخرى مع زميل آخر صامت منعزل كان يقرأ قصة «جماعة باولي المباركة» من أولها إلى آخرها دفعة واحدة، ثم يعيد قراءتها من جديد[1]. كنت أنا وزملائي الجنود نلتقي كالعادة في ساعات الترويح في الحديقة. بيد أن ثمة شيئاً كان قد تبدل. فرغم أننا كنا قريبين للغاية من بعضنا، إلاّ أن كلاً منا سوف يسلك درباً مختلفاً في رحيله. توالى رحيلهم عن عالمنا بسرعة، الواحد تلو الآخر، وكأنها عملية تنظيف، أو تخفيضات في البيع. انتحر «سيباستيانو» في صباح أحد الأيام، في الساعة ذاتها التي كان عمال النظافة يمرون بين فراش وآخر بدلائهم وممسحاتهم المبللة مخلفين وراءهم رائحة مرة لاذعة لنشارة الخشب. أما العقيد فقد مات أيضاً بعده بيومين جراء أزمة صدرية مفاجئة أطلقوا عليها اسم «الصدر المثقوب». ثم مات «لويجي الشارد» وبعده «السعيد» كما لو لم يطق البقاء وحيداً. وختاماً حل دور «الماغرو العظيم»، نبيلِنا

(1) هي إحدى القصص الشعبية للكاتب الإيطالي «لويجي ناتولي» المشهور بالاسم المستعار ويليام جالت. (الكاتب)

الطبيب «ماريانو غريفيو كوردونا من كانيكاراو».

حدث هذا بضعة أيام قبل أن أترك المشفى، بينما كنت في غرفتي قائماً أمام المرآة بصدر عار أتطلع فاحصاً العلامات الزرقاء التي خطها «فاسكيز» بقلمه في فحصه الأخير لي، التي لم تكن قد مُحيت بالكامل بعد. كنت أنظر متردداً إن كان لا يزال عليّ الاحتفاظ بشعار اليد السوداء ذاك أو محوه بالصابون كقاتل يمسح مقبض مسدسه بقطعة من المخمل. حينها سمعت وراء الباب صوت الراهبة «كروتشيفيسا» يهتف بي. كان «الماغرو» يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكان يرغب في رؤيتي. بينما كنت أرتدي ثيابي كنت أتمنى أن أصل إليه بعد فوات الأوان، لكن، وللغرابة، كنت أتحرك بأسرع ما بوسعي، حتى أني بلغت ركضاً تقريباً بابه الموارب الذي كانت تغطيه لوحة نحاسيه مملوءة عن آخرها باسمه وألقابه. وجدته شاحباً كما في المرة الأخيرة. وعلى الرغم من شعاع شمس كسول كان يتلوى فوق أرضية الغرفة، كان يغشى الهواء زفير قوي ساخن وكأنه ينبعث من مدفأة. دنوت من فراشه لأراه، وقد اكتست ملامحه ببؤس شديد بلحيته الطويلة غير المشذبة، وبوجه بلون التراب كان حاله يزداد سوءاً على مرأى من العين من دقيقة إلى أخرى. يا لها من سرعة تلك التي كان ذاك الداء الشرير يؤدي بها مهمته بأصابع متمرسة وكأنه في عجلة شديدة من أمره!

قربّتُ مقعداً من فراشه، وجلست، فقد صرت متمرساً مع حالات

الاحتضار. لم يكن الطبيب العجوز ينبس بكلمة، وكان كل حين يطلب فقط عبر إيماءة أن يتناول كوباً من الماء، ثم كان يجفف شفتيه بقطعة من القطن كان يحتفظ بها داخل كُمّ قميصه كمناديل النساء. بدا أخيراً أنه قد تنبه إلى وجودي لكي يُشير إلي فقط بأصابعه نحو حزمة من الأوراق قابعة فوق الكومودينو. أدركت حينها أن إرثي الموعود كان في متناول يدي ينتظرني. كان الملف الخاص بـ«مارتا» ومعه كومة من دفاتر مذكراته السرية. تصفحت أحدها كان عنوانه المكتوب باللون الأحمر قد شدّ انتباهي (المناجاة، الوقاحة، التحدث أثناء النوم).

توقفت على الفور، حينما رأيت أن الأوراق كانت معبأة بالسباب، وبقصاصات ملصقة، وببعض التذكارات، والصور الفاضحة مصحوبة بسلسلة من التعليقات الخماسية التفعيلة يناقض إيقاعها الشبيه بالمارش العسكري البشائر المزعجة التي يوحي بها العنوان.

بينما كنت أنحني فوق العينين المغمضتين للمريض، سألته: «ماذا علي أن أفعل بها؟». لم أتلقَ جواباً، إلا إذا اعتبرت حركة يده المضمومة، والمتعجلة التي ضربني بها برقة على ساقي بمثابة إجابة منه. على حين غفلة سمعت صوته الذي كنت قد يئست من سماعه إلا عند حشرجة الموت: «فلترسلها إلى زوجتي أيها الوغد!».

بيد أننا كنا حقاً عند نقطة نهايته. كان ينظر إلي حينها بتعبيرات غريبة يمتزج فيها الاستياء والدهشة. راح يقتبس قولاً للمرة الأخيرة: «كان «أورلاندو» قد أحس بأنه قد فقد بصره»[1]، ثم حاولت شفتاه

---

(1) أحد أبيات نشيد «رولان» الذي يعد من أهم وأقدم الأعمال في الأدب الفرنسي وقد نال

العاجزتان أن تنفرج عن ابتسامة تجمدت عند منتصفها، بينما قطرة دقيقة من اللعاب راحت تسيل من جانب فمه، وتنحدر فوق رقبته ببطء بغيض. كان ناقوس الموت يدوي في صدره.

لبث هكذا، وقد ارتسمت على وجهه نصف ابتسامة سعيدة غير خبيثة. كانت ابتسامة مألوفة لي تتسم بالحيوية، حتى أني استغرقت وقتاً لكي أدرك أن طريقه قد بلغ نهايته، وأن كل دقيقة ستمر عقب تلك الدقيقة لن تبدل من الأمر شيئاً له. كانت سلسلة من الدقائق المتساوية، نهر بلا شطآن من الدقائق المتطابقة الأبدية التي لن تَحين أبداً.

حينها سُمع في الغرفة صوت زمجرة أعقبه صمت. كانت الراهبة «كروتشيفيسّا» قد همت بالنحيب. كانت قد صاحبته في «روكا» منذ فترة الشباب، وكانت شديدة الارتباط به حتى أنها كانت هي من ساعدته بيديها في محنته الأخيرة حين كان يتغوط في فراشه. وها هي الآن تتأوه باكية بنبرات رتيبة بلهجتها المحلية، من دون وشاح فوق رأسها، وبخصلات شعرها الرمادية تتدلى فوق جبينها، شعثاء، تحمل رأسه بين ذراعيها.

كنت أشعر بإنهاك شديد إلى درجة تجعلني لا أقدر حتى على الريبة في ذلك التعاطف الذي يليق بأرملة. ففي تلك اللحظة لم أك أفكر في شيء آخر غير ذلك الدفتر الذي كنت أقبض عليه في يدي. كنت أتساءل عما سأعثر عليه وراء غلاف تلك الصفحات الساكنة الفاترة الذي يحمل اسم «مارتا ليفي»، و«توليو ليفي» و«مريم ديلاّ بيرغولا»؟ أي

شهرة واسعة في العصور الوسطى. (المترجم)

عقربان يقبع تحت تلك الصخرة؟ أدلّة على جرم بلا اسم، أو على معاناة بلا جرم؟ ماذا كنت سأعرف أكثر مما عرفته عنها؛ أي صور كانت باستطاعتها أن تغير أو تمحو الصورة الوحيدة لها التي كنت أرغب في بقائها: صورة ملاك «ساروف» بخصر نحيل، وبعينين كحصوتين من الأبنوس في وجه مختال أضْفَت خصلة قصيرة من النور عليه رقة ووداعة؟

لم أتردد، فقد كانت المدفأة هناك بجواره.

مكثتُ في المشفى إلى آخر الشهر لإجراء فحوصات نهائية. أقر الطبيب الأصلع ذو البشرة البيضاء والوجنتين الورديتين الذي خلف «الماغرو» بأنها «فحوصات روتينية». كان طبيباً بالسليقة، حتى أنه حين كان يخلع عنه قميصه الطبي كان يبدو كقس مشلوح. أردف قائلاً لي: «في الحقيقة كان يمكنك الخروج من هنا منذ فترة ليست بالقصيرة».

أومأتُ موافقاً على كلامه. كان شك قد داخلني بأن «الماغرو»، وبالاتساق مع طبيعته الكئيبة والغامضة، ولخبثه وعناده أكثر منه لجهله، كان قد تعمد أن يبقي علي سجيناً في «روكا»، حتى يواصل نفخ هوائه داخل أغشيتي الرئوية مخالفاً بذلك كل التعليمات الطبية.

لم أتوقف لكي أسأل نفسي لَمَ فعل هذا. فخلال السنوات اللاحقة بت مقتنعاً بفكرة أنه كان يريد أن يستخدمني بِطريقة مريبة لكي يختلق شخصية مسرحية ثالثة تتداخل في علاقته بـ«مارتا». فلولاي لباتت تلك العلاقة بينهما سطحية تافهة غير مشوقة. لعله حجر عثرة، أو رغبة في المغامرة، أو نزوع مسرحي، في كل الأحوال، كان ثمة شيء يثيره

ويحرك مياه أيامه، في الوقت الذي بات ملل الوحدة والشيخوخة أشد ضراوة عليه. من ناحية أخرى، كان يدرك أن احتجازي داخل المشفى سيخفف من حدة رغبتي المريضة والمزمنة في البقاء داخل الأماكن المغلقة، وسيهدّئ الذعر الذي كان ينتابني في كل مرة يداهم عقلي فيها هاجس فقدي لتلك العباءة من الجدران التي كانت تحميني وتضمني بحب بين تلابيبها. فمن كان يضمن لي أن رئتيّ إذا تمدّدتا بأقصى طاقتهما أثناء تنفس الهواء في الخارج، لن تنفجر جراحهما وندباتهما فجأة كحياكة الملابس المستعملة؟ أليس من الممكن أن يعاود الداء هجومه وصراخه بكل عنفوانه، مثله مثل موسيقى سيمفونية ما لبثت أن بدأت حتى تلاشت، ثم طفقت خافتة من جديد، فاستردت عافيتها، ثم هبت في الختام تنشد بأقصى ما بها وتعزف بكامل آلاتها؟

شد الطبيب الجديد من أزري. ورغم أنه لم يكن يعرف شيئاً عن حاستي السادسة التي كنت أحاول أن أنسب لها ذعري ذاك، إلاّ أنه وجد الكلمات المناسبة لتشجيعي: «إنه إحساس ينتاب الجميع. إنها عادة سيئة يلزم القليل للتخلص منها. لا ينبغي المبالغة في الأمر».

اقتنعتُ بأن الأمر فعلاً لم يكن مأساوياً على هذا النحو، رغم أنه لم يكن بمستطاعي تجنب شعوري بالتردد أمام المهمة الجديدة التي تنتظرني، والتي كانت ترغمني على قطع الحبل السُري الدافئ الذي يربطني بالموجود الأسمى. فمنذ تلك اللحظة، لن يكون أمراً هيناً مخالفة بنود عقد التدريب المهني على الموت ذاك، ولن يكون هيناً أيضاً لي أن أرتجل دور ممثل كومبارس، بعد أن كنت ألعب دور البطولة. فكم كانت تلك

الثقة بالعافية وبالنفس التي عبأتُ بها صدري باستخفاف عندما كنت على الشاطئ بجوار رفيقتي تعيسة الحظ تبدو لي الآن سابقة لأوانها وفي غير محلها! فلم يعد علي الانفصال إلى الأبد عن «مارتا»، أو عن كل الآخرين فقط، بل عن تلك الصورة المزدوجة لي، عن لوحة «الترومب–لوي» التي أرى فيها نفسي[1]، وعن الجِبلة الخارجية الشبحية والمراوِغة لي التي كنت قد تعلمت أن أحبها، وكان ينبغي علي أن أتخلى عنها وراء ظهري، كراهب إنجيلي أُرغم على التخلي عن عباءته لعصابة من قاطعي الطريق. وبينما أنا على عتبة خاتمة محتومة لا إرجاء لها، كانت روحي تتردد متأرجحة بين خيبة الرجاء والأمل، دون أن تكف أبداً عن أن ترى، في الوقت ذاته، في ذلك الشفاء خطيئةً وفي الموت فضيحةً.

كان قرار الرحيل هو القرار المناسب، وقد كان في فجر أحد أيام شهر نوفمبر الباردة. وبيدين متجمدتين من البرد، طفقت أعد حاجياتي للرحيل في الظلام حتى لا أوقظ رفيقي في الغرفة، مستعيناً بخيط رفيع من النور كان يتسلل من أسفل الباب قادماً من الردهة التي تظل مضاءة طوال الليل.

من الشرفة كان التجويف الذهبي للمدينة يبدو مشحوناً بالضباب في الأفق. أسندت جبيني بقوة على زجاج النافذة دون جدوى لألقي نظرة تذكارية على الحديقة. كان الضباب وكأنه قد دهن الزجاج بطبقة كثيفة من الشحم. قبل انصرافي رحت أمارس لعبة «مارتا» نفسها، فكتبت بإحدى

(1) الترومب–لوي (*trompe l'oeil*) بالفرنسية هو أسلوب فني في الرسم يقوم على الخداع البصري بحيث تبدو الرسومات بشكل مجسم أقرب إلى الحقيقة. (المترجم)

أصابعي على الزجاج اسمها محاطاً بإطار مربع من الصلبان الشائكة.

في الحديقة قبض هواء الفجر الباكر على جلدي بقوة، وشعرت بأني أُشبه عاملاً يخرج من بيته متأبطاً صرّته، فعاد إلي الإحساس بالسعادة الطاهرة والبريئة من الحمى لكوني حياً متيقظاً في يوم وليد مثل الأيام الخوالي في الثكنات. هكذا بلغت البوابة، حيث لم يفتح الحارس العجوز «كاربيلّو» فمه إلا لينطق بكلمات معدودة، بينما كان يعيد إلي تصريح الخروج الذي كنت أعرضه عليه ودون أن ينظر فيه. كانت كلمات قليلة باللهجة المحلية كالعادة، دعاء بألا أعود إلى هنا ثانية: «شِدّ حِيلك! الماء أمامك والريح وراءك». أجبته بوداعة وبتحية تنم عن الاحترام كانت قد علمتني إياها أمي وخطرت لحظتها بذاكرتي مُبتسمة بحيوية: «فلتباركني جلالتك!».

رددتُ التحية ذاتها، ولكن بصوت هامس، إلى أقنعة المستقبل التي كانت في انتظاري لعلي أنال مباركتها. هممت حينئذ في المسير نحو ذلك التجنيد الإلزامي الجديد، قابضاً بقوة على اليد الحديدية لحقيبتي، وبسيجارة بين شفتي، كدليل مني على التحدي، بينما كانت «روكا» توصد أبوابها خلفي صامتة كالسِتار.

لم يكن أمامي سوى أن أروح جيئة وذهاباً، أسفل مظلة المحطة، مدخناً سيجارتي، وضارباً بقدمي كل حين على الأرض لكيلا أشعر بالوحشة، في انتظار الترام الذي كان سيقلني إلى المدينة. كانت الطريق باردة بلون القصدير، وكان السير جيئة وذهاباً فوقها وكأني امتزج كظل بظلال أخرى لبلد أسطوري. بدا لي أحد هذه الظلال كما لو كان

لصبي الجرائد فوق دراجته، وقد مر بجانبي كالسهم، وبمهارة لاعب الأكروبات، ثم سرعان ما اختفى عند أحد المنعطفات، قبل أن أصرخ به طالباً منه أن يحملني معه فوق دراجته بين كشك وآخر مثل جرائده في الصباح الباكر.

لم يظهر الترام. كنت وحيداً في هذا العالم دون حتى العصا الحديدية للحارس الليلي الذي كانت جلبته المألوفة تبعث بالطمأنينة في قلبي في ليالي الأرق في الطفولة. أما المدينة، وقد بدت لي كتلّة من القطران، والأسلاك والصخور، حفنة من الأشواك القاسية، فقد خيّل لي وكأنها قد أعلنت حرباً ضدي. فكيف كانت ستتلقاني هي والعالم، أنا بكل دنسي المتواري؟ أكان الوشم الذي أحمله على صدري قلادة نصر أو مجرد علامة على فسوقي، عورة عليّ ستْرُها بوشاح أسود؟ لقد قطعت شوطاً، وأكملت رحلة مهمة، لكن كان من العسير إدراك ما إذا كنت قطعتها بين صفوف الملائكة أو في جوف العالم السفلي؛ أو إذا كنت أعود منها محمّلاً بغنيمة من النيران، أو بحفنة من الرماد المغطى بلفائف مومياء. رددت في نفسي: «فلتخرج إلى النور أيها المشاغب!». ألقيت بنفسي في خضم الهواء الطلق، فشعرت به، لحظي السعيد، يفتح ذراعيه لي بود، ويعانقني مفسحاً مكاناً لي بين جنباته، كما تحتضن رمال الشاطئ جسداً عارياً.

طفقت أنافس زفير شجر الصنوبر الذي كان يهب عاتياً من فوق أسوار المشفى، ورحت أسحب مثله أنفاساً طويلة من الضباب حتى يرتوي ويتغذى كل جحر ناء وواهن في جسدي، ظناً مني أنني هكذا

كنت أعيد تعميد نفسي من جديد تعميداً تبدأ منه حياتي الجديدة الباقية.

لبثت هكذا لفترة من الزمن، جالساً فوق صندوقي العسكري، أسفل المظلة، أستنشق بخار الهواء، إلى أن رأيت أنوار قطار النهار الأول تتلألأ من بعيد، بينما يهبط بمحاذاة الطريق بسرعة، فيتوقف لوهلة أمام المحطات المهجورة من ركابها، لينطلق في طريقه من جديد وكأنه يتلهف على أن يناولني كسرة خبز الغفران والسلام. لم يكن ينتظر الترام أحد آخر معي، وأفلحت بالكاد في الالتفات خلفي، بينما كنت أضع قدمي داخل العربة، لألقي نظرة أخيرة على «روكا» المحاط بأشجار الصنوبر والنخيل والسرو، قبل أن يتحرك القطار.

ولكن ستبقى في مخيلتي إلى الأبد صورة لمشفى أشبه ببارجة قديمة معطلة بلا ضوء فوقها ولا صخب، إلا من صوت جزّازة عشب خفية تعمل خلف سقيفة انتظار السيارات. كنت سأراه في أحلامي المقبلة أيضا على هذا النحو: مقبرة حجرية متعددة الطوابق تشبه الكدمة الرمادية، أو هيكل بارجة جنحت إلى الأبد بحمولتها كاملة من الغرقى بين جذور نباتات متسلقة، وأنا الوحيد من أفلح في النجاة منها، تُرى لخطأ غريب مّا وقع، أو لضربة حظ سعيدة! ورغم نجاتي فقد بت أكثر بأسا وتعاسة، أَشْبَه بزجاج اتخذ عنكبوت فوقه عشا، أو كزجاج سيارة سقطت فوقه حصوة فتشقق. كنت كرجل ثري يمتلك مالاً مسروقاً أو عملة سيئة الجودة لا يقبل الناس التعامل بها. كنت سأهبط بحالي هذا بين الناس، وقد صرت نصف شاب ونصف عجوز، تنتظرني حياة عارية، حساب صفري من الأيام، بلا جمرة أو صرخة. قد حان دوري

لأخرج من سَم خياط النفس، وأغدو إنساناً كآخرين كثيرين مثلي في الطريق يدبرون بحكمتهم البشرية ثروتهم الضئيلة من الأنفاس والسنين. وكممثل مسرحي تراجيدي نحّى جانباً في خزانته الثياب الملطخة بالدماء لـ«ريتشارد الثاني» أو لـ«يوليوس قيصر» عقب انتهاء العرض، كنت سأحتفظ بنعليّ، وبحواراتي الآحادية الجليلة للبطل الذي كنت ألعب دوره في ركن منزو في ذاكرتي. وربما لهذا السبب أُتيح لي البقاء، ولهذا كنت أنا الوحيد، ولا أحد غيري، من نجا من تلك المذبحة: لكي أكون شاهداً ونذيراً على ما تنطوي عليه حكايتي من رحمة وبيان. رغم أني كنت أعرف حينذاك أنني سأفضّل الاحتفاظ بها في طيّ الكتمان حاملا إياها عبر السنين في مأمن تحت لساني، كوديعة مُدخرة، أدفعها إلى البحّار الذي سيحملني على متن قاربه في يوم سأشعر فيه أن لَيْلي قد حان، عقب نداء آخر وأخير لا مناص من تلبيته هذه المرة.



حكاية الدّهان "حولية الاحتضار"

في صيف عام 1946، وفي الغرفة رقم 7 مكرر، كنت قد وصلت قادماً من مكان قصيّ وقد أهلك البرد والجوع رئتي، بعد أن رحت أتنقل من محطة إلى أخرى، قابضاً بأصابعي على اليد الحديدية لصندوق عسكري، نعشٍ صغيرٍ من خشب التنوب للعشرين سنة الأخيرة من حياتي ذات الأقدام المتآكلة. هنا في مشفى «روكّا» كان الأمر قد صار حقاً لعبة: إما الموت أو الخلاص. لم تك بصحبتي حقائب أخرى، ولم يكن بالصندوق شيء ذو أهمية: مجرد حفنة من الذكريات الجافة، ومسدّس فارغ بين كتابين، وخطابات امرأة مر عليها الزمان.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة





